جَوْ

رواية

المعتقل: جهاد

صحيفة إلكترونية مستقلة تعنى بالشأن البحريني

جَــوْ: عذابـات 10 مـارس في سـجن «جـو»

الطبعة الأولى، بيروت 2017

© جميع الحقوق محفوظة لصحيفة مرآة البحرين

www.bhmirror.no-ip.org | www.bahrainmirror.com
editor@bahrainmirror.com | info@bahrainmirror.com

ISBN 978 - 9953 - 0 - 3898 - 8

جوَ

عذابات 10 مارس في سجن "جو"

رواية

المعتقل: جهاد

إهداء

لهذا الشعب عرفانًا، ولوالدي..

ولتلك الصابرة المنتظرة تكسّر قيودي..

الفهرس

سجن جَو 9
رسم توضيحي لسجن جو 15
تمهيد 17
مقدمة 21
1. 1004 نزلاء 25
2. عدٌّ لا يكتمل 31
3. نفايات وفئران 36
4. تراكم السخط 44
5. كل شيء محتقن 54
6. ليقتل الشيعة بعضهم 62
7. حمم البركان تتصاعد 68
8. الانفجار 73
9. الانفلات 78
10. واشتعل السجن 82
11. وجاء الوحش مدججًا 85
12. الوحش فاتحًا فمه للافتراس 88
13. والتهمنا الوحش 93
14. تلذّذ الوحش 100
15. الوحش متبخترًا شامتًا 106
16. لا صلاة.. لا ماء.. لا نوم 115
17. الوحش يبتكر عذاباته 128
18. مجزرة الحلاقة! 137
19. متشابهون حد ثخن الجراح 143
20. من خيمة إلى أخرى! 148
21. لا تملك أكثر من قتلي 154

22. حين عجز الوحش عن هضمنا 167
23. معركة الصوم 174
24. الطوابير العسكرية 180
25. بعض أسماء الوحش 187
26. وباكستاني أيضًا!! 194
27. الوحش للسجناء: هل تُصَلّون؟! 199
28. بعد أسبوعين من الانقطاع عن العالم 211
29. حقيقة ما حدث في مبنى الزيارات 220
30. نعارات! هاتف! ومجزرة ماء 228
31. عراة تحت الماء البارد 235
32. الجرب 245
33. العاصفة... 250
34. إلى المستشفى... 255
35. شهادات أخرى 258
36. لو وجدت في بلدي شيعيًا لقتلته 266
37. الاعتداء الجنسي على القاصرين 276
38. العودة إلى الزنازين 285
39. خلط السجناء.. 292
40. السجين الأجنبي 296
41. منع الأذان وصلاة الجماعة 302
42. مروحية وعاصفة بشرية... 306
43. مغادرة الخيام 309
44. نحو الإضراب مجددًا! 318
45. شهادة!! 325
46. مآلات ! 330
47. الفصل الأخير 333
الفهارس العامة 349

سجن جَو

افتتح مركز التأهيل والإصلاح- جو عام 1979، وهو يقع في قرية ساحلية أُطلق عليه اسمها «جو» تبعد عن العاصمة حوالي 25 كيلومترًا.

قبل تأسيس هذا السجن، كان في البحرين سجن رئيسي في جزيرة (جدا) وآخر صغير في القلعة مقر رئاسة الشرطة سابقًا ووزارة الداخلية حاليًّا. في مارس/ آذار 1985 تمّ نقل أول سجين من جزيرة (جدا) إلى سجن جو المركزي تمهيدًا لإلغاء استخدام الجزيرة كسجن. وفي 8 يناير/ كانون الثاني 1986 كان آخر يوم لاستخدام جزيرة (جدا) كسجن، فقد تمّ نقل آخر سجينين محكومين بالسجن المؤبد منها إلى سجن (جو) المركزي.

في الوقت الحالي توجد في البحرين عدة سجون، مثل سجن النساء ومركز الأحداث في مدينة عيسى في مبنيين منفصلين، ويقعان تحت سلطة الشرطة النسائية بوزارة الداخلية. وتنتشر مراكز التوقيف في مراكز الشرطة في مناطق البحرين المختلفة إلى جانب المركز الرئيس في

إدارة التحقيقات الجنائية بمنطقة العدلية، وكذلك سجن منطقة الحوض الجاف.

ويسهل الوصول إلى سجن (جو) لارتباطه بشبكة من الطرق من ناحية، وبسبب صغر مساحة البحرين من ناحية أخرى، ويتميز بوقوعه مباشرة على ساحل البحر مما يضفي عليه منظرًا خلابًا عند النظر إليه للوهلة الأولى من الخارج، لكنه على النقيض من ذلك من الداخل. هذا السجن مخصص للذكور ممن بلغوا الخامسة عشرة من العمر فما فوق.

في هذا السجن (جوّ) لا يتمّ فصل المحكومين لأسباب مدنية عن المسجونين بجرائم جزائية، كما يتم خلط السجناء الجنائيين بالسجناء السياسيين في المبنى ذاته.

كان يطلق على أول مبنى في سجن جو سجن 1 والثاني سجن2 وهكذا مع كل إنشاء لمبنى جديد، بعدها تم تغيير كلمة سجن إلى مبنى، فصارت مبنى 1، مبنى 2 وهكذا..، وبحسب المقدم راشد عبدالرحمن عبدالعزيز في كتابه (تاريخ المؤسسات العقابية في البحرين)_ وهو مدير سابق لإدارة مراكز الإصلاح والتأهيل ومستشار سابق لوزارة الداخلية_ فإن كل مبنى من هذه المباني أُنشئ لغرض معين، قبل أن تغصّ بالسجناء السياسيين في السنوات الأخيرة خصوصًا.

مبنى 1

كان أول استخدام له في أغسطس/ آب 1979 لبعض موقوفي الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل وجبهة التحرير الوطني البحرانية الذين تمّ نقلهم من مركز التوقيف بسافرة إلى مبنى 1، وقد تمّ الإفراج عنهم في 12 ديسمبر/ كانون الأول 1979 بمناسبة العيد الوطني بعد أن أمضوا خمسة شهور في هذا المبنى. ثم في العام 1981 سجن فيه عناصر ما عرف بخلية الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين؛ والتي اتهمت بارتباطها بإيران. وقد خُصص هذا المبنى لسجن الموقوفين والمحكومين في قضايا أمن الدولة، وقد قضى معظمهم مدة عقوبتهم باستثناء المحكومين بالسجن المؤبد الذين أفرج عنهم ضمن العفو الشامل في ديسمبر/ كانون الأول 2001.

مبنى 2

افتتح في 15 أكتوبر/ تشرين الأول 1985 ويتسع لـ288 نزيلًا. يتكون من ثلاثة عنابر وبه صالات كبيرة للأنشطة المختلفة ومسجد وحلاق وغرفة للموسيقى. وهو أول مبنى زُجّ به السجناء الجنائيون الذين نقلوا إليه من جزيرة جدا ابتداء من 1985. لكن في العام 1999 استخدم عنبر (3) من هذا المبنى لإيقاف المحكومين والموقوفين في قضايا أمن الدولة، حتى العام 2011 مع صدور العفو الشامل.

مبنى 3

افتتح في 22 يوليو/ تموز 1990 ويتسع لـ 56 نزيلًا، وكان الهدف من إنشائه وضع السجناء المصابين بأمراض خطيرة ومعدية به، ولكنه استخدم للمحكومين بمدد طويلة في قضايا أمن الدولة أيضًا، ويستخدم الآن للنزلاء الجنائيين. كما أنه يقع في الجهة الشرقية على ساحل البحر، ويتوافر فيه تلفاز ومصلى وحلاق ومحل للخياطة ومكتبة وساحة مفتوحة للتشمس والتريض.

مبنى 4

افتتح في 21 مايو/ أيار 1998 ويتسع لـ 316 نزيلًا. شُيِّد نتيجة لتزايد عدد السجناء، ويتكون من ستة عنابر وعدد من الغرف تسع كل غرفة منها ستة نزلاء عدا العنبر (5) فإن كل غرفة فيه تتسع لشخصين فقط. كما يوجد حمام داخل كل غرفة وصالتان كبيرتان للطعام وصالة مكيفة للألعاب الداخلية ومصلى ومكتبتان وحلاق، ويقع مباشرة على ساحل البحر.

مبنى 5

شُيّد في 21 مايو/ أيار 1998 ليكون سكنًا للعاملين، وبتاريخ 1 ديسمبر/ كانون الأول 2008 تم تأهيله لسجن المحكومين بأحكام بسيطة والإكراه البدني والقضايا المدنية ويتسع لـ 112 نزيلًا.

السجن الخاص

مع بناء مبنى 4 أنشئ مبنى للسجن الخاص لوقف الأشخاص المراد التحفظ عليهم والمحكومين من ذوي الاعتبارات الخاصة والمراكز الهامة، وجاء على هيئة شقة مكونة من قسمين، في كل قسم حجرة وصالة ومطبخ وحمام، ويقع السجن الخاص خلف مكاتب إدارة مركز الإصلاح والتأهيل، وألحقت به كافة المرافق اللازمة تتبعه حديقة بها بعض الألعاب الرياضية .

الجهاز الإداري لسجن الحوض الجاف:

في العام 1996 تغير مسمى إدارة السجون إلى إدارة المؤسسات العقابية، وفي 2003 نقلت إدارة المؤسسات العقابية من قلعة الشرطة إلى سجن جو، وفي 2004 تغير اسم المؤسسات العقابية وسميت بإدارة الإصلاح والتأهيل واتبعت بوكيل وزارة الداخلية. كما تمّ تغيير مسمى السجين إلى: نزيل.

كما مر على إدارة الإصلاح والتأهيل عدة أسماء مثل العقيد عيسى المحميد، وراشد عبد الرحمن عبد العزيز، والرائد إبراهيم سيف بخيت النجران، والرائد محمد راشد الحسيني، ويقوم العقيد غازي صالح آل سنان بأعمال الإدارة حاليًا.

يتكون الجهاز الإداري من مدير السجن ونائبه وعدد من

الموظفين الآخرين. تتراوح مؤهلاتهم التعليمية بين الأميّة، والإعدادية، والثانوية العامة، وعدد قليل من ذوي التعليم الجامعي.

يفوق عدد الحراس في السجن 400 حارس، ويحمل الحراس السلاح الناري أثناء حراستهم أبواب نحو 14 مبنًى داخل السجن، ويعمل هؤلاء الحراس ثلاث نوبات عمل، إلى جانب حراس خاصين للتحركات الخارجية مثل نقل السجناء إلى المحاكم أو المستشفى أو إلى أماكن التحقيق والتعذيب وغير ذلك.

ويشكل الوافدون من العرب والباكستانيين الأغلبية الكاسحة من العدد الكلي للحراس، أما المواطنون فهم فقط من الضباط، ومن المفارقات أنه لا يوجد أي شخص ينتمي إلى المذهب الشيعي بين هؤلاء الحراس والضباط.

المستوى التعليمي المتدني للحراس يوضح جانبًا مقارنة مع سوء المعاملة التي يتعرض لها السجناء، خاصة من جهة عدم معرفة بعض هؤلاء الحراس التحدث باللغة العربية بشكل واضح، كما يثير هذا الأمر (توظيف أجانب حراسًا للسجون) تساؤلات عن نوعية المعايير التي على أساسها يتمّ اختيارهم واستقدامهم من بلدانهم.

لا يوجد في سجن جوّ المركزي حتى الآن مختصون مهنيون مثل المعلمين، أو المساعدين الاجتماعيين، وأطباء الأمراض العقلية ومدرسي الحِرف.

رسم توضيحي لسجن جو

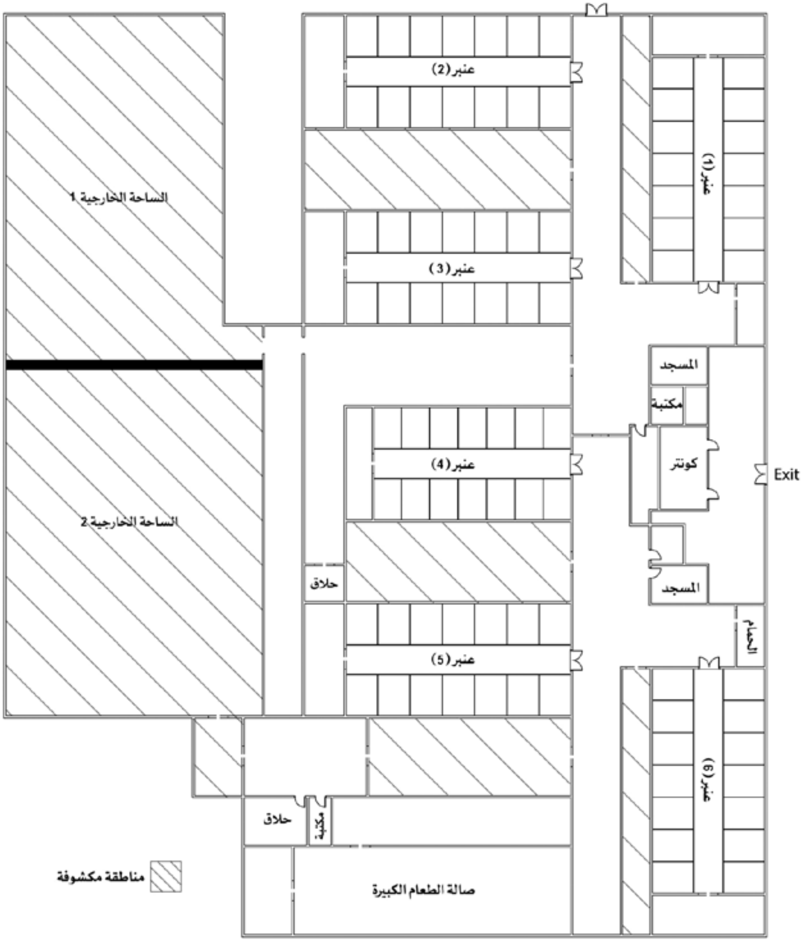

تمهيد

من غوانتانامو الأمريكية إلى عسقلان الإسرائيلية..

ومن الخيام في جنوب لبنان إلى بريتوريا في جنوب أفريقيا..

إلى (جو) البحرينية حيث السجن المركزي، والحقيقة التي يطمسها الوحش، ويظهرها الأحرار وهم يعيشون أحلك الظروف، لتعيها النفوس الحيّة والضمائر الحرة..

رواية لحقيقة حاولوا دسّها في التراب بالتضليل الإعلامي والكذب والافتراءات، وجدت نفسي مرغمًا على كتابتها لتصل إلى كل العالم، ليطّلع على صفحة من صفحات المظالم التي وقعت على فئة مضطهدة.

موقعها سجن جو المركزي، وزمانها مارس/ آذار 2015، إنَّها الأيام الأسوأ التي مرَّت عليَّ في حياتي وعلى السجناء الذين معي.

من أنا؟ أنا شاب بحريني، أحببت وطني كما أحب أمي، وكنت أظنهما أمرًا واحدًا، فالوطن هو حيث يكون المرء

في خير كما يقال، وأنا أكون بخير طالما أنا في حضن أمي، لكني لم أكن كذلك في وطني، لم أكن بخير، ووطني أيضًا ليس بخير، فوطني مصاب بورمين قاتلين يفتكان بجسده: الفساد والاستبداد.

أنا الآن سجين سياسي منذ قرابة خمسة أعوام، وما تزال تنتظرني سنوات طويلة ستستغرق أجمل سنوات عمري. كان يمكن أن أحقق الكثير من الإنجازات الجميلة خلال هذه السنوات لو كان وطني بخير. لقد حكم القضاء البحريني عليّ بكل هذه السنوات فقط لأنني مارست نشاطًا سياسيًّا سلميًّا معارضًا. أنا اليوم أدفع ضريبة نشاطي الثوري في وطنٍ أمسينا فيه غرباء ونحن على ترابه.

تمت محاكمتي تحت قانون الإرهاب، بعد أن نسبت إليَّ تهم جنائية وتم تحميل فعلي الاحتجاجي السلمي مضامين إرهابية. أنا واحد من مئات غيري أدينوا بجرائم لم يقوموا بها وكانوا أبرياء منها براءة الذئب من دم يوسف، إلّا أن القضاء البحريني حكم عليهم بالسجن 15 عامًا أو أكثر معاقبة لهم على مبادئهم الحقة ومطالبهم الوطنية المشروعة.

سأروي ما حدث كإفادة حقوقية بطابعٍ روائي، كي لا تندثر وتُطوى صفحاتها بالنسيان ومرورٍ الزمان، ربما سيكون ثمنها باهظًا لأنني ما زلت في السجن، ولكن الحقيقة لا تقدّر بثمنٍ، سأبدأ ببيان مقدمات وقوعها وأنتهي

بما جرى علينا من ويلاتها ونكباتها، لقد وجدها الوحش فرصته الذهبية ليلتهم السجناء، لكنه كما في كل مرّة، لم يستطع هضمهم، وسنبقى نخرج سالمين.

«أعطني حقيقة أكن جيدًا، أعطني ساعة أكن ممتازًا، أعطني يومًا أكن رائعًا..». عبارة توقفت عندها متأملًا في مقدمة رواية بعنوان: (آدم المقدام)، ما تزال رهن التدقيق والطباعة..

لقد أثارت هذه العبارة دافعي نحو تقديم شيء بسيط لهذا الشعب وثورته وشهدائه وتضحياته الجسام التي لو قسنا كل ما مررنا به في هذه الرواية فإنَّها لا تُقدّر منه بثمن.

مقدمة

84 يومًا كانت رحلة كتابة هذه الرواية، استعدت فيها الذكريات الأليمة، ووثّقت الأحداث الحزينة التي جعلت دموعي تنهمر وأنا أستحضرها وأسجلها. كتبتها تحت ظروف صعبة وإمكانات ضعيفة، فقد كان من الصعب أن أجد مكانًا بعيدًا عن العيون وسط اكتظاظ هذه السجون، أو هادئًا تنساب فيه الأفكار وسط الضجيج والإزعاج مع خطورة ما أقوم به.

أما الوقت فكنت أسابقه كفرس رهان، أقضي الساعات مع قلمي والأوراق وحيدًا منعزلًا عن الناس، في الليل والنهار، ولكن ليس هذا ما استنزف جهدي ووقتي؛ بل الحقيقة التي غابت عنِّي ورحت أستكشفها من أُناس اخترتهم بعناية، أخذت وقتًا أكثر من ذلك.

لكتابة الرواية، استهلكت عشرة أقلام كاملة، حصلت عليها بشكل متقطع وبصعوبة كبيرة. أما الأوراق والدفاتر فيندر وجودها، ولا تتوافر في دكان السجن دائمًا، ما جعلني أنتظر من شهر إلى آخر للحصول عليها وقد بلغت

خمس دفاتر، وكان تسريبها إلى خارج السجن بسريّة وحذر شديدين، أمرٌ مليء بالصعوبة والمخاطر والتهديدات.

من المؤكد أني لم أتمكن من إظهار الحقيقة بشكل كامل، لكنني غطيت جوانب كثيرة منها. إنها حقيقة مرَّة وأليمة، غاب عنِّي أمرَّها وأكثرها إيلامًا، سواء داخل المبنى الذي أتواجد فيه، أو المباني الأخرى. لكنني التزمت أقصى درجات الصدق في رواية ما شاهدته بأمّ عيني، وما شاهده من كان معي ممَّن أثق بهم، دون أيّ زيادة أو نقصان. هناك شخصيات لم تأذن لي بذكرها بالاسم، أو لم أحصل على الإذن بذلك بسبب بعدهم عنِّي، رغم أنَّ ذكرهم كان مهمًّا.

هذه المذكرات بمثابة دعوة لباقي المعتقلين، ليأخذوا على عاتقهم نقل وتوثيق ما عايشوه، وما شاهدوه بأعينهم، لتكتمل الصورة بكل ألوانها، وتكون المسؤولية جماعية بحجم الحدث وارتداداته، التي ما زلنا نعاني منها نحن وعوائلنا يوميًّا حتى يومنا هذا.

أعلم أن مجرد كشف شخصيتي أو معرفتها سيعرضني إلى استهداف مباشر قد يكلفني حياتي، ولست أستكثر ذلك أو أستنكره، لكني على يقين بأنِّي من خلال هذا العمل أؤدي واجبي الإنساني تجاه شعبي الذي لن أتمكن من أن أفيه حقه مهما كان، ولكن لا يسقط الميسور من المعسور.

كما أتقدم بالشكر لكل الأحبَّة والأصدقاء الذين عملوا بتفانٍ لوضع هذا العمل بين أيديكم، وأخصّ بالشكر تلك الصامدة التي تزرع الأمل في داخلي والتي ساندتني في كتابة هذا العمل، ومعلمي الذي شجعني، وأخي في هذا البلاء الذي دعمني وسار معي حتى النهاية، والناشط علي عبد الإمام الذي أعتبره قدوتي في الإعلام الحر غير الرسمي، ومن شخصيته سجينًا وملاحقًا وناشطًا أستلهم عملي، وشكرًا لـ«مرآة البحرين» لتبنيها الرواية وعنايتها بها ومراجعتها وتدقيقها وطباعتها ونشرها.

- 1 -

1004 نزلاء

أسيرُ ماشيًا وسط الظلام، أتخطى جثثًا قد غدت في زحام، هل هم موتى؟ كلا إنَّهم نيام.. رغم ضجيج وكلام، قد جُعل النوم لبعضهم حرامًا، في ممرٍ مفروشٍ بالأنام.

1004 نزلاء في مبنى واحد، إنَّه المبنى 4 الذي لا يتسع لأكثر من 456 شخصًا فقط. سجناء يفوق عددهم طاقة المبنى بأكثر من ضعفين، يختلطون بين جنائيين وسياسيين. الجنائيون منهم بحرينيّون ومنهم جنسيات أخرى، أما السياسيون فبحرينيون كلّهم، ومن طائفة واحدة فقط.

إنَّها الحادية عشرة مساءً وأنا أبحث عن صديقي وزميلي أبي قاسم، غدوت أجوب الغرف بحثًا عنه، طرقت أول باب وألقيت السَّلام، لكنِّي لم أجد جوابًا، فكلّ من في تلك الغرفة منشغل بهاتفه الذكي يحادث أحدًا، أو يلهو بإحدى الألعاب. خرجت متمتمًا: لقد أسْمعت لو ناديت حيًّا، ولكن لا حياة لمن تنادي.

قصدت غرفة أخرى لعلّي أظفر بمرادي، طرقت الباب.. وفتحته، إذ بهدوءٍ يخترقه صوتٌ أحادي، صوت طَرَبٍ قادمٍ من جهاز قد تجمعوا حوله، يعرض لهم فيلمًا راقصًا. دققت النظر وإذا به جهاز لوحي (IPad)، نعم آيباد في هذا المكان.. المهم أنه لم يلتفت أحد لدخولي..

«إحم إحم، السلام عليكم شباب، هل أبو قاسم موجود؟»

«لا ليس هنا» أجاب أحدهم ملوحًا بيديه.

خرجت منزعجًا، لكني أكملت البحث في غرفة أخرى، وإذ برائحة غريبة خطرة، مصدرها خمسة شبَّانٍ يتناوبون على تدخين لفافة كبيرة من الدخان مثل الهنود الحمر، جلسوا مشكِّلين دائرة جعلتهم في نشوة سُكْرٍ، وبجانبهم شخص ملقى على السرير، قد أجلس في حضنه آخر أبيض البشرة، يتحرَّش به، هنا لم أسلّم ولم أسأل؛ بل خرجت موصدًا الباب بقوَّة كاسرة.

صرخ أحدهم: ما به هذا؟ أيريد أن نقتله؟ لا بُدَّ أن أهدده أو أحذره، فربما يبوح بما رآه ولا يستره؟

ردَّ آخر: دعك منه.. دعه يشتكي إن أراد، لن تخيفنا شكواه القذرة، ولا يخيفنا الشخص الذي سيخبره. كان هؤلاء بعض السجناء الجنائيين.

في غمرة انزعاجي نسيت أنني كنت أبحث عن (أبي قاسم) فهممت بالرجوع إلى غرفتي، فصادفت أحد أصدقائه، تذكرت الأمر وناديته سائلًا عنه.

أجاب: لا لم أره، ولا أنصحك بالبحث عنه، فكل العنابر الستة مفتوحة، وقد يكون في أيٍّ منها، وكأنَّك تبحث عن إبرة في كومة قش.

أجبته: صدقت، الأفضل أن أعود إلى غرفتي لأنام، تصبح على خير إن شاء الله.

فعلًا إنَّها إبرة في كومة قش، فالمبنى يتألف من جهتين شمالية وجنوبية، في كل جهة ثلاثة عنابر، داخل كل عنبر 14 غرفة، وفي كل غرفة عشرة أشخاص! سابقًا كانت أبواب العنابر مقفلة على بعضها، لكن الآن وبسبب الاكتظاظ الشديد ليست العنابر وحدها هي المفتوحة على بعضها؛ بل كذلك الجهتين صارتا مفتوحتين على بعضهما البعض.

وصلتُ إلى غرفتي، وفتحت الباب بهدوء، كانت الأضواء مطفأة، والظلام حالكٌ جدًّا، لكنِّي رأيت نورًا خافتًا من باب الحمام المفتوح قليلًا، ما ساعدني على عدم التعثر بالأخوة النائمين، رغم أنَّ حجمها صغير (4 متر في 3 متر) كان ينام فيها اثنا عشر سجينًا. وعند تقسيم هذه المساحة على العدد يصير نصيب كل واحد من السجناء مترًا مربعًا واحدًا، ما يعني أنها أصغر من مساحة القبر!! ستة منهم

ينامـون علـى الأرض، وأنـا منهـم، رغـم مضـي أكثـر مـن أربـع سـنوات علـى وجـودي فـي سـجن جـو، وسـتة منهـم ينامـون علـى أسـرَّة مـن حديـد مكونـة مـن طبقتيـن، لكن بقي شـخص واحـد، فأيـن ينـام؟! إنَّـه ينـام معلقًـا علـى حبـالٍ مشـدودة فـي الفـراغ بيـن سـريرين، ، واضعًـا فراشـه عليهـا!

هكـذا هـو حالنـا، ولكن ربمـا هو أفضـل من الذيـن ينامون فـي ممـرات العنابـر وأروقـة المبنـى، حيـث يكـون الإزعـاج الدائـم سـريرهم.

بيـن جميـع الأخـوة النائميـن افتقـدت رجـلًا ينـوّر الطريـق للناس إلى دار السـلام، أبًا عطوفًا يمسـح بيديه كل قلقٍ ووهم، مربيًـا يبعـد الشـباب عـن درب الآثام، ويهـوِّن علينـا المصائب ويصبّرنـا فـي الشـدائد ويأزرنـا، سأسـميه هنـا «المعلّـم». كان سـريرهُ خاليًـا، دققـت النظـر قـرب بـاب الحمـام، فوجدتـه سـاجدًا مفترشًـا الأرض بمنكبيـه، ذلـك أن مـن عادتـه السـهر حتـى يحيـن وقـت صـلاة الليـل، وبعـد انتهائـه مـن الصـلاة يوقـظ التالـي مـن الأخـوة، ثـم الثالـث، كسلسـلة مترابطة حتى يحيـن أذان الفجـر، ذلـك أنَّـه لا يوجـد سـوى هـذه المسـاحة الصغيـرة التـي بالـكاد تكفـي للوقـوف والسـجود، ولا يمكـن النـوم عليهـا لأنَّ الفـراش إن وضـع فيهـا يكـون عائقًـا أمام فتح بـاب الحمـام.

استلقيت على فراشي بمحاذاة سجادة «المعلّم» الخضـراء التـي بهت لونها عنـد موضع الركبتيـن لكثرة صلاته

عليها، أحسَّ بوجودي، لكنَّه لم يرفع رأسه ولم يقطع سجوده، كانت هذه عادته حيث ينهي صلاته بسجدةٍ طويلة رغم آلام ظهره.

وأنا مستلقٍ هائم في أحداث يومي وبُعدي عن أهلي، تذكرت أُمِّي الحبيبةً وإخواني، وجعلت أحدّث نفسي: أما آن لك يا سجن أن تنقضي؟ أما آن لي أن أحتضن أحبابي؟ أراك قد أصبحت مرتعًا للعالم الزائل، مخدِّرات وحشيش، لعبٌ ولهو، فسادٌ وانحراف، فمن وراء كلّ هذا؟! إنَّها إجابة واحدة: إنَّها الإدارة الفاسدة.

لا أتحدث هنا عن أفراد الشرطة البسطاء الحثالة القابعين عند الأبواب، فهؤلاء لا يستطيعون تهريب هذا الكم الهائل من الهواتف والمخدرات والحشيش، فالكميات التي يتمّ تهريبها تتعدى الـ 100 هاتف وقطع كثيرة من الحشيش، لا يمكن تهريب ذلك عبر أفراد الشرطة الصغار، لأنَّهم يفَتّشون بدقة، ولكن هناك من لا يُفتّش، ويدخل بسيارته الخاصة.. هناك من غرق في الثراء الفاحش غير المشروع من خلال تهريبه هواتف سعرها لا يتجاوز ثلاثين دينارًا، وبيعها عبر مخبريه ومساعديه بأكثر من ألف دينار للهاتف الواحد، إنَّهم كبار الضباط الذين لا يطالهم الحساب.

وللأسف، فإن الكثير من السجناء الشباب وقعوا ضحية هذا الابتزاز، وصاروا بلا وعي منهم يساهمون في إثراء

الفساد وتقويته وجعله يحقق ما يريد على حساب أنفسهم وعوائلهم. يبتاع الكثير هذا الهاتف من نوع (نوكيا 1100) بهذا السعر الابتزازي، ويضغطون على عوائلهم لتوفير المبالغ لهم، بل وصل الأمر ببعضهم أن هدّد عائلته بعدم الخروج للزيارة إذا لم يُوَفَر له المبلغ، وبعضهم يطلبه من عائلته بحجة جمع التبرعات باسم سجين محتاج، كل هذا قد أفسد عددًا من الشباب وحرفهم عن جادة الصواب.

المؤسف أكثر، سقوط بعض الشباب ممَّن سجنوا بسبب مبادئهم ومطالبهم في طريق مظلم؛ فحشيشٌ هنا، وعراكٌ بالسكاكين هناك، وهنا تهديد بالقتل، إلى أين سيصل هذا الوضع وإلى متى؟ كنت أسأل نفسي.

- 2 -

عدٌّ لا يكتمل

بينما أنا في متاهات أفكاري، سمعت صراخًا قطع حبل أفكاري «آآآه، آآآه، دعوني، أنا لم أفعل شيئًا، لماذا تضربوني؟!»

قفزت من فراشي فزعًا باحثًا عن مصدر الصوت، قطع «المعلّم» سجدته وقام معي.

«آآآه، إنَّه مؤلم» صرخ أحدهم!، لم يكن مصدر الصوت خارج الغرفة؛ بل كان داخلها، إنَّه (علي) يصرخ في نومه!.

ـ علي حبيبي، استيقظ إنَّه مجرد حلم.

قالها «المعلّم» وهو يمسح بيده الحنونة على رأسه، ويصلّي على النبي وآله. استيقظ علي، وفتح عينيه ليرى وجه المعلّم، فابتسم وزال عنه فزعه.

ـ قتل الله شيطانك لقد أفزعتنا. قالها المعلّم ممازحًا، فردَّ عليه علي خجلًا:

ـ آسف يا معلّم لقد كان كابوسًا فظيعًا.

المعلّم: من المؤكد أنَّهم قوات الشغب بخراطيم الماء الحار وأعمدة الحديد المملحة!

علي ضاحكًا: نعم إنَّهم هم مجددًا، كانوا يشكِّلون حلقة دائرية حولي، ويضربونني ضربًا مبرحًا!

المعلّم مبتسمًا: لا عليك قم وتوضأ لصلاة الليل أنت وجهاد، اللهم اجعله خيرًا.

دخل علي ليتوضأ، أما أنا فقدطويت فراشي لأستغل مساحته للصلاة قرب عليّ.. فإذا بالإنارة تُضاء، وقفت أنا والمعلّم نتبادل النظرات، فمفاتيح التشغيل ليست داخل الغرف، إنَّما هي خارج العنبر قرب الباب!

«حساب، حساب يا شباب» صرخ أحد الموجودين في الممر. فقال المعلّم مستغربًا: حسابٌ في مثل هذا الوقت؟ هل هرب أحدهم؟ أم إنَّهم لم يحسبوا مبكرًا؟ ربما فإنِّي لا أذكر ذلك.

أجبت: كان أفراد الشرطة يتأكدون يوميًّا من عدد السجناء عبر عدّهم مرَّتين في الصباح والمساء، وأحيانًا يأتون بشكلٍ مفاجئ إن حدث أمر طارئ. «حساب يا شباب» نداءٌ شرطي في الممر.

«من لديه شيء ممنوع فليخبئه»، قال أحد الشباب على

مسامع الشرطة دون أيّ مبالاة أو خوف، فلم يكن للشرطة هيبة تذكر آنذاك.

وصل الشرطي في العدّ إلى غرفتنا، وكان آسيوي الجنسية، وغير ملم باللغة العربية، دخل ونظر إليَّ وكأنَّه يسألني عن العدد ولا يريد أن يعدّ بنفسه، فتجاهلت إيماءته يعدّ بنفسه، فأشفقت عليه وقلت: 12. مشيرًا له بأصابع اليدين.

هزّ رأسه وخرج دون أن يتأكد من العدد، فقد كان عليٌّ حينها في الحمام، والموجودون في الغرفة أحد عشر شخصًا فقط!

«هل عدّ الشرطي عليّ، فهو داخل الحمام» تساءل المعلّم مستفسرًا. أجبته ضاحكًا: هذا الشرطي لا يعلم أين مرساه. خرج عليّ من الحمام، ودخلت أنا، لكنني وعند خروجي منه سمعت الشباب ينادون للعدّ مرة أخرى. فقلت ضاحكًا: لن ينتهوا حتى الصباح.

لكن هذه المرة جاء مسؤول النوبة الليلية بعد أن وبَّخ أفراد الشرطة لفشلهم في العدّ، دخل الغرفة فبادرته بالسؤال: لماذا أعدتم العدّ؟

أجاب غاضبًا: هؤلاء الحثالة لا يعرفون حتى العدّ والحساب، ينقصنا 56 شخصًا من العدد الكلي اليوم!

انتهيت من صلاتي أنا وعليّ، واستلقى كلّ منَّا على

فراشه، بعد أن كانوا قد أطفؤوا الإنارة، لحظات معدودة، وإذ بالإنارة تُضاء من جديد، لكنني في هذه المرة لم أحرك ساكنًا، فدخل الشرطي وعدّ الموجودين وخرج.

قلت في نفسي: يستحيل على مثل هؤلاء أن يعدّوا 1004 أشخاص، وإنَّما يتصنّعون ذلك، ويضعون العدد في النهاية كي لا يرهقوا أنفسهم، ولكن لماذا لم يصرخ أحد: الحساب؟ ألم يلاحظوا دخول الشرطة للعنبر؟

فجأة ارتفع صراخ، تتبعت مصدره، إنَّه يعلو من إحدى الغرف المجاورة: «افتح باب الحمام، وأعطني الهاتف الذي كنت تستعمله، فقد رأيته في يدك قبل أن تدخل الحمام مسرعًا» قالها مسؤول النوبة بغضب وهو يطرق الباب على الشاب الذي دخل الحمام مرتبكًا.

«لا يوجد معي أيّ هاتف، أنت تتوهم، لقد دخلت الحمام لأقضي حاجتي، إنّي أعاني من وجع في البطن» قال الشاب.

المسؤول: إن كان الأمر كذلك فافتح الباب.

الشاب: لحظات وسأنتهي.

دقائق وخرج الشاب، ودخل مسؤول النوبة الحمام ليفتشه، فلم يجد شيئًا، خرج غاضبًا وهو يهدّد: «سأريكم، سأقلب الغرفة بعد قليل على رؤوسكم وسأجده». سأله زميله «أين وضعت الهاتف؟»

ردّ عليه الشاب بتحسُّر وندم: «لقد رميته في المجاري، وأجريت عليه الماء».

«يا غبي!! لقد رميت أكثر من ألف دينار في المجاري، ما هذه الحماقة؟!» صرخ زميله غاضبًا في وجهه.

الشاب: «خفت أن أخفيه في مكان ما، ويجده وأعاقب بنقلي إلى العزل ستة شهور».

خرجت وما زال الشباب يتعاتبون لضياع هاتفهم في المجاري، ولا أدري هل أضحك أم أبكي على الألف دينار التي صارت في المجاري!!

- 3 -

نفايات وفئران

قبلةٌ على جبيني! فتحت على إثرها عيوني، فوجدت وجهًا بشوشًا يبتسم لي، إنَّه المعلّم!.. لا يا معلّم لا تحرجني هكذا، من أنا لتقبّل جبيني؟! قلتها معاتبًا إيَّاه.

فردّ علي: أولًا هذه القبلة التي اختلستها منِّي قبل يومين بعد الصلاة، وثانيًا أنتم مؤمنون ويكفي ذلك لأقبِّل جباهكم، وثالثًا قم فالأذان قد رُفع، قم حتى لا تتأخر عن صلاة الجماعة.

أجبته: حاضر يا معلّم سأقوم الآن.

كان المعلّم متواضعًا جدًّا، لا يسمح لأحدٍ أن يقبِّل جبينه، بل يعتذر منه حاضنًا إيَّاه.

لأجواء صلاة الفجر طقوس خاصة، حيث تُقام في ممر العنبر المظلم، والضوء الوحيد الموجود هو عند الباب الأمامي فهو ينير جزءًا صغيرًا بامتداده من جانب

إمام الجماعة «المعلّم»، فهو نور هذا السجن ويوسفه.. رائحة الخشوع والرُّوحانيَّة تفوح من المكان، خاصة مع ترانيم دعاء العهد بصوت (أحمد عباس الدرازي) الشجي الذي كان رادودًا قبل دخوله السجن، وما أكثرهم الشباب الذين صنعهم السجن وصقل مواهبهم، وسيخرجون إلى المجتمع يومًا ويفاجئونه بإبداعاتهم.

أثناء الدُّعاء فزع القوم من زائر غير مرغوب فيه، ليس ملك الموت، وليس بشرًا كما يتصور البعض؛ بل كان فأرًا بحجم القط، يعدو بين المصلين وهم يفرّون منه فزعًا، تائهًا في طريقه يجتاح الأقدام ويسير على السجاد، حتى انتهى إلى أحد الأبواب فارًّا، فانتابنا شعور هستيري من الضحك على أنفسنا بعد الفزع.

هكذا كانت حالة المبنى المزرية في الصحة والنظافة، فتكدّس النفايات لـ 1004 شخص بين فترة وأخرى جعل المبنى وكرًا للفئران التي تقفز هنا وهناك، وتُسبِّب بانتشار مرض الجرب وأمراض أخرى كما حصل قبل فترة في عنبر (1) وما خفي أعظم.

انتهينا من الصلاة وعدنا إلى الغرف، ونحن لا نزال نضحك على ما جرى، أردت أن أخلد إلى النوم، فهناك يوم حافل بانتظاري، تدريس بعض الشباب مادة من المواد، مراجعة الرسائل التي أرسلتها إلى الإدارة، زيارة الساعة 10، وغيرها من الأمور. لكن هناك ما حال بيني وبين النوم،

فقد فتح المعلّم نقاشًا بين الشباب، وهو يسترق النظر إلى السماء بسؤال نوعي:

«علي.. محمد.. جهاد.. أبو إبراهيم.. حسين.. أحمد، انتبهوا معي يا شباب سأسألكم سؤالًا وأريد منكم جوابًا».

«سل يا معلّم» أجابوا بصوت واحد.

قال: هل تشعرون أنَّكم اكتفيتم من بناء شخصياتكم وأنفسكم في الفترة التي قضيتموها في السجن، وتريدون الخروج منه؟

أجابه علي: بالتأكيد يا معلّم.

وقال محمد: أعتقد ذلك، سنتان كانتا كافيتين كما أتصور.

وأجبت: أتفق مع إخوتي.

ردَّ المعلّم: أنا لا أشعر أنني أمضيت ما يكفي لبناء نفسي كي أكون ملهمًا وفاضلًا.

أطرقنا رؤوسنا خجلًا، فأكمل حديثه: فكروا في جوابكم، السجن فرصتنا لبناء أنفسنا وترميم أرواحنا لنكون صالحين. تصبحون على خير يا أحبَّتي.

صحوت من نومي على صوت زقزقة العصافير،

وكنت آخر المستيقظين، فالغرفة خالية من الأخوة ولم أشعر بحركتهم، ربما لأنني كنت أغطُّ في نومٍ عميق.

غسلت وجهي ووقفت أمام المرآة مبتسمًا ككلّ يوم لسرٍّ ربَّما لا يعلمه إلَّا قلبي، وبعد خروجي من الحمام وجدت أمامي الطالبين الجامعيّين المجتهدين: علي (سنة أولى)، وأحمد (سنة ثانية): «السلام عليكم يا جهاد، على الموعد أتينا»، قال علي.

فأجبته: «وعليك السلام يا أبا حسين، نِعْمَ الطلَّاب أنتم، على الموعد أتيتم، وعلى الموعد صحوت دون أن يوقظني أحد، لنبدأ الدرس، بسم الله الرحمن الرحيم».

أخرجت الكتب التي أرسلها الأهل والأصدقاء لي، كنَّا ندرس بمتعة، رغم أنَّنا في سجن ولسنا في الجامعة. وبعد وقتٍ كافٍ قلت منهيًا الدرس«سنكتفي بهذا المقدار اليوم، هناك أمر يجب أن أنجزه قبل الزيارة، ألقاكم غدًا» .

«إن شاء الله يا جهاد». قالها علي، بدوره أحمد قال: «قرَّة عينك مقدمًا للزيارة بوجه نبيك محمد (ص) إن شاء الله» .

ودّعتهما وجمعت الكتب والأوراق وأنا أقول في نفسي: شباب كالزهور، توقف مستقبلهم لأنهم طالبوا بحقوقهم: شوقي رضي، حسين عبد الغني، أحمد نصيف، محمود

السبع، علي السميع، محمد الجشي، حسين حبيل، علي حسن، وغيرهم من الشباب الجامعي الطموح الذي لا يجد مساحة للإبداع إلَّا وشغلها بقدراته ومواهبه، ومنها: ذاك النص المسرحي الذي أعددناه أنا وعلاء وحسين ومحمد ومحمود، واتّفقنا على تنفيذه بعد خروجنا من السجن، شباب لا يعرفون الكلل ولا الملل.

وكما هؤلاء الشباب، كان المبنى، الجميع مثل خليَّة نحل في تراصّهم ونشاطهم وحيويتهم، وكلّ يؤدي دوره في تخصصه الذي ينتمي إليه. فهذا الشيخ علي المسترشد الذي تجمعوا حوله يدرِّس فقه المذاهب الإسلامية ودروسًا أخرى، وذاك الكهل الذي يعطي الشباب دورة في الإسعافات الأولية فهو الدكتور سعيد السماهيجي، أما الأستاذ الذي يشرح المعادلات الرياضية فهو الأستاذ علي الأعرج، وذاك الذي يدرّب الشباب على تمارين اللياقة البدنية ولعبة فنون القتال والدفاع عن النفس فهو أبو جبرائيل، وأما الذي يقوم بدورات حول تأسيس المشاريع الصغيرة والمتوسطة فهو أبو قسَّام. ومن يدرِّس الرياضيات لطلبة الهندسة حسين حبيل، أما الذي يعلّم الطلبة الذين حرموا من إكمال دراستهم اللغة الإنجليزية وقواعدها فهو الطالب الجامعي محمد الجشي، والذي يدرِّس النحو والصرف وقواعد اللغة العربية هو الشيخ حسين الهنان. وغيرها من دروس علوم النفس التي يقدِّمها شوقي، أما درس الشعر العربي فيقوم بتدريسه جاسم النعيمي.

تُرى أهي مدرسة أم جامعة؟ كلا إنَّها السجون البحرينية حيث تجد المثقفين بمختلف مجالاتهم. فهنا عالم الدِّين والدكتور والمدرّس والمهندس والطبيب والرياضي والمحامي وكل ما قد يخطر في البال، درس يتلو الدرس في الصباح والمساء، وطلَّابٌ بعد طلَّاب، لا يكلّون ولا يملّون.

المبنى مثل خلية نحل تعجّ بالدروس، وقد طرح أحد الأساتذة مشروعًا لتوحيد جهود هذه الدروس والأنشطة داخل المبنى ضمن قالب إداري منظّم، حتى يتسنى للجميع الاستفادة من الجهود الفردية عبر تحويلها إلى جماعية، إضافة إلى تنشيط الجهود المهملة. فكرة المشروع تقضي بتنظيم هذه الأنشطة الثقافية والاجتماعية والعلمية والدينية، وسدّ النقص فيها. مسودة المشروع قبل أن تطرح على السجناء، تمّ عرضها بشكل خاص وغير معلن، على الرمز الكبير الأستاذ عبد الوهاب حسين، الذي أيدها، ووافق عليها ودعمها.

وبالفعل اجتمع الإخوة، وأعلنوا عن طرح هذا المشروع في جلسة موسّعة مفتوحة للجميع. وجرى انتخاب مجموعة من خيرة شباب المبنى لإدارته. وقد شقّ المشروع طريقه بصورة فاعلة، وكانت ثماره لا يستهان بها في كُلِّ المجالات، وأُطلق عليه اسم (النُّور المحمَّدي) لإعداد الكوادر والطاقات لبناء المجتمع من خلف القضبان.

بعيدًا عن الممرَّات، تجد الضجيج والصراخ الآتي من (واجهة الاستقبال الأمامية) الكونتر، حيث الباب الرئيس للمبنى أمام فضاء تقدر مساحته بـ 30 مترًا طولًا في 9 أمتار عرضًا، يستغل السجناء هذه المساحة للنوم بعد أن اكتظَّت الغرف بأعداد السجناء. هناك طاولة تحيط بها خمس كاميرات يجلس عليها مسؤول النوبة ليسجل خروج أيّ سجين، وما يجري من تحركات داخلية في المبنى كـ (الزيارة، الإدارة، الورشة، العيادة، المخزن، دكان النزيل أي الكانتين (المخزن العسكري)) والتحركات الخارجية كـ (المحكمة، المستشفى، النيابة، الطب الشرعي، التظلّمات، أو إلى المنزل للإفراج). كما يسجل دخول أي سجين جديد لينتهي الأمر بإحصاء العدد الإجمالي في المبنى.

على جانبي الكونتر يوجد بابان زجاجيان، باب الجهة الجنوبية إلى العنابر (1 و2 و3) وبابٌ للجهة الشمالية إلى العنابر (4 و5 و6) وفي وسطه مكتب واجهته زجاجية، في أسفلها نافذة صغيرة يقف خلفها السجناء لمراجعة أمورهم، ومتابعة ردود استمارات طلباتهم ورسائلهم. ومن الداخل غرفتان واحدة بها الهاتف الذي تتواصل به الشرطة مع الإدارة، وغرفة بالخلف تطلّ على العنابر لتوزيع السجائر والأدوية. على يسار الباب الرئيس غرفتان، إحداهما تستخدم كمطبخ للشرطة، والأخرى مكتب لمقابلة ضابط المبنى الذي لا يتواجد فيه إلَّا عند حدوث مصيبة في

المبنى، وأما باقي وقته فيمضيه في لقاء زملائه وأصدقائه في مجمع السجن.

هذه المساحة أصبحت محلًا لتفريغ الكبت والغضب إلى حدٍّ كبير، فهذا يصرخ في وجه الضابط الأردني: أريد الذهاب إلى الإدارة، وإن لم تأخذني سأخرج من الباب مشيًا على الأقدام.

وذاك يقول: موعد زيارتي الساعة التاسعة، والآن الثامنة وخمسون دقيقة ولم يأتِ الباص، اتصل بهم.

وهذا المعتقل المصاب بمرضٍ مزمن يتوعَّد الشرطة: هاتوا دوائي وإلَّا سأحطّم الكونتر.

وذاك يرجو الشرطي أن يأخذ أخاه الممدد على الأرض إلى العيادة: أتنتظرون موته؟

ووسط هذا الضجيج، إذا بصوتٍ أسكت الجميع: بين السلَّة والذلَّة هيهات منَّا الذلَّة.. عن حقنا لن نتخلَّى.. هيهات منَّا الذلَّة.. فليسمع رأس الدّولة.. هيهات منَّا الذلَّة.. للباطل جولة.

- 4 -

تراكم السخط

إنها مسيرةٌ احتجاجية وسط السجن! لافتات مرفوعة، وأقمصة موحَّدة قد كُتب عليها 1004، وهو عدد السجناء في المبنى حينها، احتجاجًا على الاكتظاظ وتدهور الخدمات والحقوق. مسيرة بكادر إعلامي ملثَّم يصوّر المحتجين كي يرسل المقطع المرئي إلى خارج السجن.

جابت المسيرة كل المبنى، وانتهت بإلقاء البيان الختامي من قِبل أحدهم حيث توعَّد بنشاطات أخرى من إضرابات واعتصام بالكونتر. لم أكن من المشاركين مع هذه المجموعة في نشاطها لقناعتي الذاتية بأنَّ هذا النوع من الاحتجاج ليس في المكان ولا الزمان المناسبين.

انتهى البيان الختامي، وتفرَّق الجمع، فرأيت أحدهم يتوجه نحوي، وحين أصبح أمامي قال: «جبناء متخاذلون! أنتم في سجن فماذا لديكم لتخسروه؟» لم يعر أحد كلامه

اهتمامًا، ولـم أردّ عليه منعًـا لإثـارة فتنـة تعمـل علـى تفريـق الصـف الواحـد.

انتظرتـه قليـلًا علَّـه يهـدأ، ثـمَّ توجهـت إليـه وهـو واقف مع مجموعـة مـن الشَّـباب، سـائلًا إيَّـاه بهـدوء: سـيِّدنا العزيـز هل أسـتطيع محادثتك علـى انفراد.

«نعـم يـا أخـي مـاذا تريـد؟ تحـدَّث أمـام الإخـوة لا يوجـد سـرّ بيننـا». قالهـا بـلا مبـالاة.

قلتهـا مكـرّرًا طلبـي: «دقيقـة واحـدة يـا سـيِّد، وإن كانت لا تسـمن ولا تغنـي مـن جوع»

«حسنًا، أستأذنكم يا شباب، لنذهب إلى تلك الزاوية».

جلسـنا وسـألته: لمـاذا أنـت غاضـب منِّـي ومـن باقـي الشباب الذيـن لـم يشـاركوا فـي المسيرة؟ هـذا الأسـلوب سـيجعلهم ينفـرون منكـم!

أجـاب: النـاس هنـا متخاذلـة، خائفـة أن تشـارك فـي أيّ فعاليـة، ولـمَ الخـوف؟ هـل يوجـد شـيء نخـاف أن نخسـره ونحـن فـي السـجن؟ هـل تخافـون أن تخسـروا هواتفكـم التي اشـتريتموها بأكثـر مـن ألـف دينـار لتسـهروا الليالـي معهـا؟ لا تريدوننـا أن نرسـل أيّ صـور أو مقاطـع مرئيـة إلـى وسـائل التواصـل والإعـلام حتـى لا يداهمـوا المـكان ويفتشـوه؟

أجبتـه: لا يـا سـيِّد، النـاس متوجّسـة مـن نشـاطكم، ليس

خوفًا من فقدان هواتفهم أو من خسارة امتيازات حصلوا عليها، الناس هنا خائفة من ضربة أمنية وهجمة قمعية تُطحن فيها جماجمنا، وتسيل إثرها دماؤنا، وتُداس من بعدها كرامتنا.

قاطعني قائلًا: لا يستطيعون! نحن ألف شخص هنا، الأمر ليس لعبة Playstation ولا فيلمًا لجيمس بوند!

فأجبته بشكل مباشر: بل يستطيعون، فكِّر بعقلانية!

أصرَّ في ردّه: بل لا يستطيعون، وأقصى ما يمكن أن يفعلوه هو أن يغلقوا الأبواب، وهذا أيضًا صعب مع كل هذا العدد!

سكتُّ للحظات، ثم أجبته: حسنًا لنفترض أنَّهم سيغلقون الأبواب فقط، ألسنا الخاسر الأكبر في ذلك؟ ألن تتوقف كل الفعاليات والدروس والنشاطات الدينية والتربوية؟

أجابني: إذًا رأيك أن نستثمر هذا الوضع والانفتاح المحدود في إقامة الدروس، وننسى الثورة وتضحيات الشهداء ودموع اليتامى وصيحات الثكالى؟ كلا يجب أن نفجر ثورة داخل السجن. حتى لو..

قاطعته: ثورة!! ما هدفها؟

ردَّ: ثورة توقظ المتخاذلين، وتبثُّ الرُّوح الثورية، وإن

ضُربنا وعُذّبنا وأقفلت الأبواب علينا ليوم أو يومين، أو حتى لأسبوع فسينتهي الأمر عاجلًا أم آجلًا، لا تستطيع الوصول إلى شيء دون تضحيات.

قاطعته غاضبًا: وهل تريد إرغام الناس على التضحية برميهم في التهلكة والمجهول؟

ـ يجب على الناس أن تقدّم التضحيات، فلتستيقظوا من سباتكم، والأيام بيننا وسترى ذلك قريبًا جدًّا. قالها لينهي النقاش منصرفًا.

كانت هذه رؤية جماعة من السجناء المتحمّسين الذين يرون أنَّ مشروعهم السّياسي داخل السجن يتصادم مع مشروع «النُّور المحمَّدي»، كانت هذه الجماعة ترى أنَّه لا ينبغي استثمار هذا الانفتاح في إقامة الدروس وبناء المجتمع فقط؛ بل في الثورة على الظالم، وهذا ما طرحوه من أول يوم في الاجتماعات التأسيسيَّة للمشروع. إلَّا أنَّ المؤسسين رأوا ذلك حكمًا بالإعدام على المشروع لأنَّ الحركة الثورية السياسية في الوضع الحالي تتطلب حركة سرية مؤثرة على النظام، ولا تترك أثرًا سلبيًّا على العمل التربوي والتوعوي بوجه غير مكشوف.

ما إن تفرَّقت الجموع، حتى عاد الضجيج والصراخ، فالكل يعاني من تعطُّل حقوقه وسط هذا الإهمال والاكتظاظ، الكلّ يبحث عن ضالَّته، وأنا أبحث عن ضالَّتي

الكبرى، وهي موضوع إكمال دراستي الجامعية، فمنذ السنة الأولى من سجني وأنا أريد أن أقابل شخصًا صاحب قرار، يستطيع أن يبتّ في هذا الموضوع، فالضابط الأردني الذي أمامي عديم الصلاحية، وهو يعترف بذلك، ممَّا يدلُّ على استهتار واضح بحقوق السجناء وهدرٍ للمال العام، بجلب أجانب برتب عالية وإعطائهم أموالًا طائلة دون تمكّنهم من وضع حلول لمشاكل السجناء؛ بل يزيد الوضع تعقيدًا وسوءًا بتواجدهم في هذا الموقع دون صلاحيَّات. «أريد حلًّا لمشكلتي» قلتها للضابط.

أجابني: حلّها ليس بيدي.

قلت: خذني للمدير إذًا.

ردّ سريعًا: لا يمكنك مقابلة المدير مباشرة، اكتب رسالة وسوف أرفعها بنفسي للمدير.

قاطعته: ولكنِّي قمت بذلك منذ شهر يونيو/ حزيران 2013م ونحن في شهر مارس/ آذار 2015م ولم أتلقَّ أيّ ردٍّ على رسائلي، هل مدير السجن (ناصر بخيت) في الصين ليتأخر الردّ هكذا؟ وحتى إن كان في الصين، فنحن في عصر السرعة والفاكس، ومكتبه يبعد عنَّا بضعة أمتار، لماذا هذه السياسة القذرة؟ لماذا يغلق الضباط البحرينيون أبوابهم في وجوه النزلاء، ويقدمون الأجنبي عديم الصلاحية للتصادم معهم ؟

- هذا ما أستطيع فعله لك، اكتب رسالة، وسأوصلها بدوري إلى سيادة المدير. ردَّ عليَّ مؤكدًا كلامه السابق.

أمسكت استمارة طلب، وكتبت فيها: سعادة المدير، هذه الرسالة العاشرة التي أكتبها لك، فلماذا لا تردّ على رسائلي؟ أم إنَّك ترميها في سلَّة المهملات؟. المهم أنَّني لم أتلقَ ردًّا حتى على هذه الرسالة!

دخلت للاستحمام، ولبست ثيابًا رماديَّة اللَّون، قد قمت بكيّها مستعينًا بثقل أحد السجناء بعد وضعها تحت فراشه، وتعطَّرت بعطر اقتنيته من الدكَّان اسمه (سلطان) لكن رائحته ليست كذلك، خرجت للكونتر، وكان الباص قد وصل للتوّ.

«زيارة، من لديه زيارة» صرخ الشرطي ممسكًا بالأصفاد لوضعها في يدي من لديه زيارة. فأشرت له حتَّى يقيّد يديّ وركبتُ الباص، كنت وحدي، فهو دومًا يبدأ من المبنى الذي أتواجد فيه، ثم يجوب المباني الأخرى، نظرت إلى الأصفاد متأملًا وقلت في نفسي: السجن لي مرتبةٌ، والقيد لي خلخال، والمشنقة المعلَّقة أرجوحةُ الأبطال.

كلمات رأيتها مخطوطة على أحد جدران السجن، وقد دلَّت على طريقة تفكير الشَّباب في هذا المبنى. بينما كان الباص يجوب طرقات السجن لجمع الشباب الذين لديهم

زيارة في الساعة 10، توقف عند مبنى (1) وأقبل كهلٍ يمشي بعكّاز محدودب الظَّهر، أبيض الوجه، تُجمّله ابتسامةً لا تفارق ثغره، إنَّه (الشيخ محمد علي المحفوظ) يساعد (هشام الصباغ) في ركوب الباص بسبب إعاقته الدائمة، ابتهج الجميع برؤيته.

«السلام عليكم أحبَّتي»، قالها الشيخ.

وإذ بردّ جماعي متحمّس: وعليكم السلام يا شيخنا العزيز، أهلًا بك..

ردَّ بطمأنينة: أهلًا بكم أيُّها الصَّابرون، أبشروا فإنَّ الفرج قريب..

كان وجوده يبعث الطمأنينة في قلوبنا، ويعطينا الأمل، إنه الوحيد من الرموز الذي يمكنه الخروج معنا في زيارة لكونه في مبنى رقم (1). وأما الباقي فهم في مبنى (7) وأوقاتهم مختلفة.

وصلنا إلى مبنى الزيارات، والقلوب كلّها مشتاقة للقاء الأهل، وإن كانوا لا يسمحون إلَّا بالأقارب من الدرجة الأولى (الوالدان، الإخوان والأخوات، الأعمام، العمَّات، الخالات، الأخوال) مع العلم أنني كنت أفتقد كثيرًا حضور البعض ممَّن لم يسمح له، وفوق كلّ ذلك كان العدد المسموح به للزيارة خمسة أشخاص فقط، في كبائن صغيرة متقاربة، تنعدم فيها الخصوصية بسبب أفراد الشرطة، الذين يتجولون بين الحين والآخر، والكاميرات التي تصور كل

زاويـة، مـع العلـم أنَّـه يوجـد كبينـة (حجـرة صغيـرة) خاصـة ولكـن لا يحصـل عليهـا إلَّا المقرَّبـون مـن النظـام وأصحـاب النفـوذ، فالتمييـز بابهـا، والعمالـة مفتاحهـا.

(جهـاد.. كبينـة 4) نـادى الشـرطي، وفـكَّ القيـد عـن يدي، فدخلـت القاعـة التـي بهـا 14 كبينـة، 7 علـى اليميـن و7 علـى اليسـار، وصلـت أُمِّي والابتسـامة على محيَّاها، فقبَّلت رأسـها وحضنتهـا مرحّبًـا بهـا، لكـن أحسسـت بشـيء كـدَّر صفـو هذا اللِّقـاء، فسـألتها عـن السـبب بإصرار.

ردَّت: يا بُنيَّ، انزعجت فقط من التفتيش إنَّه مذل!!.

أطرقـت برأسـي مهمومًـا: آسـف يـا أُمِّي لأننـي جعلتكـم تأتـون إلـى هـذا المـكان.

أجابتنـي: لا عليـك يـا بُنـيَّ، لا تـحـزن ولا تجعلنـي أنـدم لأنِّـي أخبرتـك بهـذا، مهمـا فعلـوا فلـن يثنونـا عـن زيارتـك.

دقائق قليلة ووصل أبي وباقي الأهل فرحين برؤيتي.

حينهـا سـألتني أُمِّي: مـا هـي أوضاعكـم داخـل السـجن يـا ولـدي؟ هنـاك صـور ومرئيـات فـي الانترنـت لاحتجاجـات داخـل السـجن، لمـاذا هـذا التهـور واللامبـالاة؟

زفـرت زفـرة مصحوبـة بنفس عميـق مجيبًا: الوضـع يا أُمِّي هـو قنبلـة موقوتة قـد تنفجر فـي أيّ وقت، وانفجارها سـيكون مأسـاة لا تحمـد عقباهـا، أتمنـى أن ينتهي الأمـر على خير!

«انتهت الزيارة، انتهت الزيارة، الرَّجاء من الزوَّار مغادرة الكبائن» قالها الشرطي في المكبِّر الصوتي مخاطبًا الزوَّار.

قلتها بغضب: مرَّ وقت الزيارة سريعًا، لكن بقي سبع دقائق! فالزيارة ساعة وليست 53 دقيقة.

أجابت أُمِّي: لا عليك يا بُنيَّ زيارتك القادمة بعد أسبوعين بتاريخ 28 مارس/ آذار 2015، اعتنِ بنفسك وروحك.

أجبتها: نفسي سأعتني بها، لكن روحي ليست معي.

ودَّعتها وباقي الأهل. ورغم فرحة الزِّيارة ورؤية الأهل، كان هناك شيء يكدّر صفو الفرحة علينا، كما كدَّر الفرحة على الأهل عند دخولهم، إنَّه التفتيش المهين، حيث كان نظام التفتيش يرغم كل سجين على نزع كل ثيابه بما فيها الملابس الداخليَّة، ولبس إزار ليفتّش بعدها بتفتيش ذاتي باليد عبر تمرير الشرطي يده على كل جسم السجين، بما فيها المناطق الحساسة بأسلوب فظ خالٍ من الدِّين والآداب والقيم والمبادئ والأخلاق. لا فرق بين صغير وكبير، كهلًا كان أم عالم دين، ولا يُعفى منه إلَّا ذوو النّفوذ وفئات معيَّنة من المجتمع.

«لن ألبس هذا الإزار، فقد لبسه قبلي أكثر من ألفي سجين، والكثير منهم مصاب بأوبئة مزمنة منتشرة في مباني

السجن، ومن بينهم سجناء مبنى (2) عنبر (2) المخصص لأمراض الإيدز والتهاب الكبد الوبائي والسرطان» قالها (هشام الصباغ) رافضًا التفتيش بالإزار.

الشرطي: لا ترفض التفتيش متذرعًا بالإزار، إنَّه يُغسل كل يوم.

أجابه الصبَّاغ: يغسل كلّ يوم ورائحته هكذا، وثانيًا أنا لم أرفض التفتيش، فتّشني بالأجهزة الإلكترونية إن شئت.

قال الشرطي: كلا، إنَّ نظامنا هو التفتيش بالإزار، ولا خيار لك في ذلك، سأريك الآن، انتظر لأشكوك للضابط على هذه المهزلة. وأنتم الذين انتهيتم من التفتيش هيا اركبوا الباص ـ مشيرًا بيده لنا لركوب الباص حتَّى لا نعلم ما هو مصير هشام الصبَّاغ ـ

- 5 -

كل شيء محتقن

عدت إلى المبنى، وعلمت لاحقًا أنَّه تمَّ ضرب (هشام الصبَّاغ) ونقله للانفرادي، كان هذا مصير من يطالب بحقّه ولا يتنازل عنه رغم مشروعية حقّه ومطالبه.

حين دخولي كان صوت الأذان يدوِّي في الأرجاء، أسرعت لتغيير ملابسي حتى لا تفوتني صلاة الجماعة بالمسجد، حيث كان في كل جهة مسجد يتوسط العنابر تُقام فيه صلاة الجماعة، ففي جهتنا كان الإمام هو الشيخ علي المسترشد، وفي الجهة الأخرى سماحة السيِّد مهدي الموسوي.

ما إن تراءت لي صفوف المصلّين حتى ارتسمت على شفاهي البسمة، خارج المسجد لا يوجد مكان للصلاة لكثرة المصلّين، وداخل المسجد يصلِّي إخوان نتقاسم معهم المعاناة، وننتظر حتى ينتهوا من صلاتهم، كان هذا من أكثر النماذج وضوحًا في التسامح والأخوَّة، يخرج الإخوان

ونبادلهم الكلام والسلام بكل محبة ووئام، وندخل لنصلي لربّ الأنام، نموذج رائع يضرب كل الافتراءات والتضليل الإعلامي الطائفي بعرض الحائط، وهو ما روَّجت له السلطة على مرِّ السنين الماضية، فلا هذا سنّي ولا هذا شيعي، كلنا إخوان «إخوان سُنَّة وشيعة، هذا الوطن ما نبيعه» شعارٌ لطالما ردّدناه معًا منذ 2011 في دوَّار اللؤلؤة وما زلنا نُردِّده.

بعد الصلاة يبدأ درس الفقه للشيخ علي المسترشد، واليوم لا يوجد مكان يكفي لوضع قدم فيه، فما بالك بالجلوس؟ ولكن ما هو عنوان اليوم؟ فالمسجد مكتظّ! إنَّه الزواج يا حبيبي، الرابط الشرعي الذي جعله الله نصف الدِّين، وكل هذه الورود الشبابية تهفو إليه، وهي داخل السجن، ولكن لم يكن التهافت بسبب العنوان فقط؛ بل كان من أجل طرح الشيخ الشبابي والفكاهي أيضًا، والذي جذب كل السجناء الحاضرين ووصل إلى مسامع الغائبين.

بينما الشيخ يشرح آداب الزواج، والكل منشدٌّ إلى كلامه، فإذا بضجيج وصراخ قد علا، طغى عليه صوت تحطيم الزجاج، كان ذلك مقصًا قطع حبل الكلام، وأسدل الصمت على المكان. استأذنت الشيخ لأستطلع ما يحدث في الخارج، خرجت مسرعًا من المسجد، وكان الناس يهرولون ناحية الكونتر، فعرفت أنَّ أمرًا ما يحدث هناك.

(طرااخ): أتنتظرون موت أخي لتأخذوه إلى العيادة، سأريكم (طرااخ) سيأتي الضابط وستأخذونه رغمًا عنكم.

كان ذلك أحد المعتقلين يثور بسبب المريض الممدد من الصباح حتى الظهر، وقد تفجَّر غضبه، وغدا يحطم كل الزجاج.

«سنأخذه إلى العيادة، توقَّف... هذا يخالف القانون سنأخذه، تأخرنا لأنَّه لا يوجد لديّ أفراد شرطة ليصطحبوه إلى العيادة» قالها مسؤول نوبة الصباح محاولًا تهدئة المعتقل، لكنَّه استمرَّ في تحطيم الزجاج.

«يا شباب أوقفوه، وأنا أعدكم بأنِّي سآخذه إلى العيادة بنفسي». قالها مسؤول النوبة راجيًا باقي المعتقلين.

قام أحد الأساتذة وأمسك (حسن) قائلًا: اهدأ، وقم بالصلاة على النبي محمد وآله، سوف يأخذونه، وأنا لن أتحرك حتى يأخذوه، لكن ليس بهذه الطريقة.

ردَّ عليه المعتقل: لا تنفع معهم سوى هذه الطريقة.

وفى مسؤول النوبة بوعده لهم، بمجرد أن توقف المعتقل، لكن بعد أن أصبح زجاج الكونتر كله مكسرًا.

عدت إلى المسجد، وكان الشيخ قد انتهى من درسه، ما إن لمحني حتى دنا وبادر مستفهمًا عمَّا حدث، أجبته بالتفصيل، فأجابني بدوره: هذا الوضع هو القنبلة التي

ستنفجر في أي وقت، الأحداث متسارعة، والله وحده أعلم بما هو قادم.

ليلًا بينما كنت أجوب المبنى كالمعتاد، مررت بالكونتر، فرأيت منظرًا مألوفًا يحدث بين اليوم والآخر، رجلان واقفان بملابس السجن، يحملان في أيديهم حاجياتهم الشخصية وفراشًا ومخدّة، إنَّهم سجناء جدد، لكن لا يبدو على ملامحهم أنَّهم بحرينيِّون.

توجَّهت إليهم لأرحب بهم: السلام عليكم يا إخوان، مرحبًا بكم.

أجابني أحدهم: وعليكم السلام يا أخي.

فسألتهم: ما اسمكما ومن أي بلد أنتما؟

أجابني أحدهم: أنا خالد، وهذا أخي عمر، ونحن من سورية.

أكملت مرحّبًا: أهلًا وسهلًا بأهل سورية، وأنا جهاد.

بينما هما واقفان، ذهبت إلى طاولة الكونتر، وألقيت النظر على أوراقهما التي خطَّ فيها الحكم: عشر سنوات، القضية: التجارة بالبشر، وهي المُسمَّى الجديد الراقي للدعارة في هذا البلد، استُحدث بعد أن صُنّفت المنامة ثالث عاصمة للتضليل في العالم، نعم هؤلاء من حوّلوا البحرين بمساعدة المتنفذين في السلطة من عاصمة

الحوزات العلمية ومدفن العلماء إلى بارٍ ومرقصٍ ليلي والعياذ بالله.

رأيتهم حائرين، لا يدرون أين ينامون، فأشار لهم الشرطي بأن يبحثوا عن أي زاوية فارغة في الكونتر أو الممرات التي حولهم ليناموا فيها، فغرف وممرات العنابر ليس فيها حيِّز فارغ.

بينما كنت أهمّ بالخروج من الكونتر، استوقفني منظر (خالد) مستغربًا من عدد الشباب الذين شكلوا طابورًا طويلًا جدًّا في لحظات بسرعة فائقة وكأنَّهم في لعبة الكراسي، اقتربت منه، فبادر بالسؤال: جهاد، هل هذا طابور توزيع الوجبات؟ أجبني فأنا جائع.

أجبته: كلا، الطَّعام يوزَّع داخل العنابر من قبل مسؤولين عنه من السجناء.

قال: إذًا هو طابور الذهاب إلى العيادة، إن كان هكذا فأخبرني لأنني مريض، وليس لديّ سوى كلية واحدة تعمل فقط.

أجبته ساخرًا: لا يا خالد، ليس هذا وقت الذّهاب إلى العيادة، هناك وقت محدد للذهاب إلى هناك، وكأنَّ للمرض وقت محدد.

سألني مجددًا: إذًا هو طابور لمقابلة أحد الضباط؟ سأذهب لعلي أقنعه بنقلي إلى مبنى آخر.

أجبته: لا، لا يا خالد، الضباط يأتون في الصباح، ولا يحضرون في أوقات أخرى إلَّا للضرورة.

سألني بعد أن عجز عن التفكير: إذًا لِمَ هذا الطابور؟!!

قلت له: تتبع هذا الصف حتى تصل إلى مقدمته، ثم عد وأخبرني بما رأيت.

ذهب وعاد مسرعًا وهو يقول: إنَّهم يستلمون دواءً ما من أحد الممرضين، ويشربون الماء بعده، ويحرص الممرض على ابتلاعهم الدواء عبر تفتيش أفواههم، ما هو مرضهم؟

أجبته موضحًا: ليس جميع هؤلاء مرضى، فجُلّهم أدمنوا المخدرات والمسكّنات، ومنهم من يريد أن تنقضي مدَّة سجنه في النوم للهروب من الوضع الذي هو فيه، وأما سبب تفتيش الممرض لأفواههم وتأكده من ابتلاعهم الدواء فذلك لأن بعضهم يجمعه ليبيعه، والبعض يعطيه لأصدقائه، وآخر يجمعه ليبتلعه في جرعةٍ مضاعفة مرَّة واحدة.

نعم إنَّه الدواء الذي تحوَّل إلى سُمّ، وصار يقدّم من قبل إدارة السجن، بصورة ممنهجة دون ضوابط تُذكر، من أجل تدمير هؤلاء الشبَّان وتخدير عقولهم رغم عدم وجود

أيّ ظواهر مرضية تدعو لأخذ الدَّواء، وما أسهل الحصول عليه، وما أصعب الحصول على غيره من الحاجات الضرورية.

أكملت جولتي الليلية المعتادة، ذهبت إلى الساحة الخارجية لأستنشق بعض الهواء النقي بعيدًا عن دخان السجائر الذي يملأ الممرات.

الساحة الخارجيَّة أو ما يُسمَّى (الفنس) ساحتان منفصلتان بهما ملعبٌ لكرة القدم تقدّر مساحتهما بـ 30 مترًا×35 مترًا (حوالي 1 كيلومتر مربع) محاطة بسياج حديدي مرتفع، يعلوه سياج شوكي كثيف، وعند زاوية ساحة الجهة الجنوبية (1، 2، 3) يوجد برج للحراسة، يجلس فيه حارس، يلعن نفسه للجلوس هناك، لأنَّه بين الحين والآخر يركل أحد الشباب الكرة أثناء اللعب وتخرج خارج الساحة وراء السياج، فيبدأ بالصراخ وتنطلق الصيحات: شرطي، أرجع لنا الكرة. وعند رفضه يبدؤون برميه بالحجارة الصغيرة مع السخرية منه.

لم أسلم من دخان السجائر حتى وسط هذه المساحة الكبيرة، لأنَّ عدد المدخنين كان ضخمًا جدًّا. فمن بين ألف وستة أشخاص في المبنى الآن، لا يوجد سوى 150 غير مدخّنين تقريبًا حسب إحصائية أحد الإخوة. وفضلًا عن فعل هذا السمّ في أبدانهم، فكم يدفع هؤلاء للكانتين من أجر السجائر فقط! إذا كان العدد التقديري للمدخنين 856

شخصًا، وكل واحد منهم يشتري ثلاث علب في الشهر كما تجري العادة بـ 30 دينارًا، فإنَّ شبَّاننا يدفعون مبلغ (25680) دينارًا شهريًا لدكان النزيل (الكانتين) للسجائر فقط! دون باقي المشتريات التي تصل فاتورتها إلى 100 دينار شهريًّا، أودعها أهالي السجناء لهم بعد أن حصدوها من عرق جبينهم بعد جهدٍ جهيد، لكون غالبية السجناء من عوائل ذوي الدخل المحدود أو الفقراء.

هربتُ من الساحة الخارجية إلى الممرات المكشوفة بين العنابر، فلكل عنبر ممر يستخدم لنشر الثياب المبللة، عادة يكون هادئًا جدًّا، يجلس فيه البعض للهروب من الإزعاج والدخان، بينما تستغلّه قلة شاذة لأعمال شاذة؛ كتدخين الحشيش أو الاعتداء على أحدهم أو اللواط.

هذه المرَّة لم يكن ممر نشر الثياب هادئًا أبدًا، فهناك نقاش حاد يدور بين مجموعتين من الشباب بسبب ضرب أحد من هذه المجموعة لشخص آخر من تلك، والكل مكشّر عن أنيابه، كلٌّ قد رفع في وجه الآخر سكينًا، فاخترت الانسحاب من المكان حتى لا أكون حكمًا ولا جزءًا من مصيبة قد تحدث لا تحمد عقباها، وبينما كنت أجرُّ أذيالي، تجمدت مكاني على وقع صراخ وزئير السكاكين «آآه، لقد جرحت يدي» صرخ أحدهم.

- 6 -

ليقتل الشيعة بعضهم

آلمني المشهد الذي رأيته بقدر ما أرعبني، هرولت في الممرات باتجاه الكونتر: يا ناس، أدركوهم قبل أن يقتلوا بعضهم بعضًا في ممر نشر الثياب، صرخت مستنجدًا بالشباب، فأسرع إليهم البعض، وتجاهل البعض الآخر صرخاتي.

«ألو، حضرة الضابط هناك شجار كبير في مبنى (4)»، قالها الشرطي في الهاتف مبلّغًا الضابط المناوب بعد أن سمع صرخاتي، يبدو أنَّه لم يكن بعيدًا عن المبنى، فلم تمر إلَّا لحظات حتى وصل الضابط عند الباب. ُصدم من العدد الهائل الذي يعجُّ به الكونتر، فامتنع عن الدخول خوفًا على نفسه، ونادى أحد أفراد الشرطة. تسلَّلنا خلفه نسترق السمع.

سأل الضابط الشرطي: ماذا حدث؟

أجابه: شجارٌ كبير بالسكاكين بين السجناء الجنائيين.

الضابط: من أي فئة هم؟

أجاب الشرطي: إنَّهم من الشيعة سيِّدي.

ردَّ الضابط بعدم اكتراث: إذًا دعهم وشأنهم، وإيَّاك أن تتدخل بينهم، حتى لو قتل بعضهم بعضًا!! وأقفل راجعًا إلى مكتبه.

لكن بحمد الله تمكّن عدد من الأساتذة السجناء من فضّ الشجار، وحلّ الأمر بشكل ودّي، واتفق الفريقان على الجلوس على مائدة واحدة لتصفو القلوب.

هكذا كانت الإدارة تنتظر الانهيار الذي يجعل السجناء يأكلون بعضهم بعضًا وتتقطّع أوصالهم، فيما يعمل العقلاء على الاحتواء والتخفيف واللملمة. لقد سمعت بنفسي قبل يومين الرائد الأردني (باسم) يقول: نحن نعلم بما يوجد في المبنى وما يحدث فيه، ولسنا عاجزين، ولكنَّنا ننتظر الفرصة المناسبة لتصحيح الوضع، سترون ما سيحدث خلال هذا الأسبوع. مشيرًا إلى أنَّ عيون المخبرين تنقل كل ما يحدث داخل المبنى إلى الإدارة بشكل دقيق.

استوقفني إعلان وضعه السجناء، مزخرفًا بالألوان على ورقة مقوّى كبيرة بها مجسّم دوار اللؤلؤة، وصورة أحد الشُّهداء، قد كتب فيه:

«شهداؤنا عظماؤنا.. يدعوكم معتقلو الدراز لتأبين الشهيد فاضل العبيدي، وذلك غدًا الواقع 10 مارس/ آذار

2015م في صالة الطعام الكبيرة (اللنغر Langar) الكبير». لا أحسب أن هذا الإعلان كان غائبًا بطبيعة الحال عن عين الإدارة.

صالة اللنغر، هي مساحة كبيرة لمشاهدة التلفاز تقع في إحدى زوايا المبنى، طولها أكثر من 25 مترًا وعرضها حوالى 9 أمتار تنقسم إلى قسمين، قسم به تلفاز خصَّصه الشباب للأفلام الإنجليزية والأخبار والرياضة، وقسم آخر به تلفاز أيضًا خُصص للأفلام الهندية لكثرة وجود الأجانب من الجالية الهندية.

كانت هذه الصالة الأكبر مساحة في المبنى لذلك اختارها الشباب لإقامة الفعاليات والمناسبات الدينية لقدرتها على استيعاب أعداد كبيرة. بينما أنا واقفٌ أقرأ الإعلان، أحسست بحركة مريبة قام بها عدد من الشباب إثر دخول سجين جديد من البوابة الرئيسية، يذهب أحدهم ويعود ومعه عشرة آخرين، ومن ثم العشرة يذهبون ويعودون بعدد أكبر، فاقتربت منهم، إنهم يسألون بعضهم بعضًا: هل ذاك هو؟

«نعم إنَّه هو، أنا متأكد» يجيبه الآخر.

ردَّ عليه: إذًا اجمع باقي الشباب.

سألتهم: يا شباب ماذا يحدث؟

أجابني سريعًا سترى بعد قليل ما سيحدث، سنكسر

عظام هذا العميل المخبر ليكون عبرة لمن يعتبر، وتسوغ له نفسه العمل مع الظالم، ومرافقة المرتزقة ومداهمة بيوت الآمنين ليلًا، وهتك ستر النساء واعتقال الأحرار وملاحقة المطلوبين.

قلت بسرعة أسألهم: وهل أنتم متأكدون من ذلك؟

أجابني: نعم، كل أهل منطقته قد أكدوا ذلك، لقد فاحت رائحته في الخارج، وورقته احترقت لدى النظام، فرُمي به في السجن، وهذه نهاية كل عميل عندما يبيع أبناء وطنه، يبيعه النظام عند الانتهاء منه.

لم أكن الوحيد الذي لاحظ الحركة المريبة في الكونتر، فحتى ذلك المخبر لاحظها، وبدأ يرتجف ويتوسل أفراد الشرطة قبل أن يقضوا عليه ويوسعوه ضربًا، لكن الشرطة لم تسمعه ولم تعره انتباهًا؛ بل ظنّوا أنَّه يتذرَّع لنقله إلى مبنى آخر، حتى أحس أفراد الشرطة بأنفسهم بالحركة بعد حين، وتوجه أحدهم إلى الهاتف لإخبار الإدارة، لكنَّه ما إن رفع سماعة الهاتف حتى سمع: هجوووووم.

فرَّ كالخروف الذي لحقت به مئات الذئاب محتميًا خلف أحد أفراد الشرطة: احمني، لا تدعهم يضربوني. لكن ذلك لم يفده، فقد سحبه أحد الشباب إلى وسط الجموع، وتسارع الكل إلى ضربه.

فهـذا يركلـه ويقـول: هكـذا رُكلـت أُمِّـي مـن قبـل المرتزقـة عندمـا داهمـت معهـم منزلـي.

وذاك يلكمـه ويقـول: خذ يا عابد الدينـار، هذا جزاء إيقاعك لـي مـع 20 مطلوبًا ذات يوم في كمين غـادر أعددته أنت.

إلـى أن تدخـل أحدهـم وسـحبه مـن بينهـم، ورمـى بـه خـارج المبنـى حتـى لا يمـوت بيـن أيديهـم، وهـو بحالـة مزريـة جـدًّا لا يحـرِّك سـاكنًا مـن شـدة مـا تعـرض لـه مـن كسـور ورضـوض.

لكـن فجـأة وفـي لحظـات معـدودة، امتـلأ المبنـى بأصحـاب الخـوذ البيضـاء والعصـي السـوداء، وفـي أيديهـم دروع أصبحـت لهـم رداء، إنَّهـم فرقـة مـن قـوات مكافحـة الشـغب قـد اقتحمـوا المبنـى يهرولـون مـن الإدارة، وهـي مسـافة قصيـرة تقـدّر ببضعـة أمتـار، والمضحـك المبكـي أنَّ عـددًا منهـم قـد واجههـم، وآخـرون فـرّوا بسـرعة البـرق، وكأنَّ المـوت وراءهـم، هرولـوا باتجـاه الغـرف خوفًـا مـن أن يلقـوا الضـرب نفسـه الـذي لاقـاه المخبـر، أو لتخبئـة هاتفـه وباقـي ممنوعاتـه، إلَّا أنَّ الوضـع انتهـى بشـرح أحـد الشـباب لفـرد مـن الشـرطة لمـا حـدث، وأنَّـه لـم يكـن هناك أي نيَّـة لأحـد باحتـلال المبنـى أو ضـرب الشـرطة؛ بـل ضـرب المخبـر فقـط.

لـم تكـن هـذه المـرة الأولـى التـي أرى فيهـا هـذا المشـهد،

فبعد أن تحترق ورقة كل من يتعاون أمنيًّا مع النظام للإيقاع بإخوانه وأبناء وطنه، وبعد أخذ ما يتمّ أخذه منه، يُرمى به في السجن لئلَّا يُشكِّل خطرًا عليهم، هكذا تدور الدائرة عليه ليلقى جزاء ما فعله.

- 7 -

حمم البركان تتصاعد

وجه الصباح عليَّ ليلٌ مظلمُ وربيع أيامي عليَّ محرمُ
والليل يشهد لي بأني ساهر إن طاب للناس الرقاد فهوموا
بي قرحة لو أنها بيلملم نسفت جوانبه وساخ يلملمُ
قلقًا تقلبني الهموم بمضجعيً ويغور فكري في الزمان ويتهمُ

أصبحت أردد قصيدة السيد جعفر الحلي ملحنة بعد ليل لم أنمه قلقًا، وصبح لم ترَ الشمس له طريقًا، كان الجو مهمومًا حزينًا رغم أنَّ كل شيء على ما يرام، فالحركة في المبنى طبيعية جدًّا. كان قد شجعني على ترديد هذه الأبيات بصوت عال أنني وُجدت في مكان يمكنني من سماع صدى صوتي، إنَّه ممر صالون الحلاقة قرب الساحة. يدوّي الصدى ويسمعه الحلَّاق (أسامة) في صالونه المتواضع الذي يقع نهاية الممر، والشباب الجالسون في الساحة الخارجية (الفنس) من خلال النوافذ.

«صوتك جميل، لماذا لا تصبح خبازًا» قالها الحلّاق أسامة ممازحًا بعد أن أخرج رأسه من باب الصالون منوّهًا أنَّ صوتي قد أزعجه.

فأجبته ضاحكًا: شكرًا، شكرًا.. لقد أخجلت تواضعي. وانسحبت من الممر خجلًا نحو الساحة الخارجية (الفنس) التي كانت تعجُّ بالسجناء في نشاطٍ وحيوية:

مباراة في الملعب بين الأجانب والبحرينيِّين، يسودها الضحك والصراخ.

حصَّة للِّياقة البدنية والتمارين يقودها (أبو قسَّام) بجديَّة ونشاط وحيوية.

درسٌ في أحكام تجويد القرآن الكريم يدرِّسه (عزيز العكراوي) بصوته الجميل.

وقارئ هنا وهناك قد فتح كتابًا وراح يسرح في صفحاته ويمرح في سطوره متذوقًا حلاوة لا يعرفها الكثير من الناس.

هكذا كانت الساحة الخارجية كعادتها في كل يوم، فجلست أتأمل الوضع والشباب: آهٍ، آه، شبابٌ يذبل في السجن، جرمه الوحيد المطالبة بالحقوق، شباب أمسى في وطنه غريبًا، يعتقله اليمني، ويقيِّده الباكستاني، ويعذّبه ويحاكمه المصري، ويسجنه الأردني.

إنَّها (البحرين) حيث السجن الذي لا تجد بين جدرانه بحرينيًّا واحدًا سوى السجين، ويدَّعون أنَّنا في مركز إصلاح وتأهيل، أي إصلاح وتأهيل تتحدثون عنه! إنَّه إفساد وتدمير وتمييز، في نظام اعتقلنا وزجَّ بنا عبر محاكمات غير مستقلَّة وبشكل غير عادل يميّزه أي عاقل.

قطع تفكيري مرور أحد الأجانب الذين أعرفهم: ولكن لسنا نحن الوحيدين الذين طالهم ظلم هذا النظام، حتى هؤلاء ظلموا، هذا (عبد الرحمن مسعود الباكستاني) حُكم عليه بحكم جائر قضى منه سنة ونصف تقريبًا ـ قد بُرّئ بعد سنتين من السجن فقد خلالها كل أبنائه ـ في قضيَّة شركة الإمارات للصرافة، التي اتهم بها مجموعة من الآسيويين بغسيل الأموال بأربعة مليارات ريال، صادرت الجهات المختصة بالقضية 20 مليون ريال أثناء الاعتقال، لم يتم ذكرها في التحقيق والنيابة والمحكمة. فأين ذهب كل هذا المبلغ؟ وهل هو السبب وراء افتعال القضية؟

ولكن ليس ذلك غريبًا على نظام قد استشرى فيه الفساد، وأصبحت الرشوة والسرقة واختفاء الأموال عادة يعترف بها رسميًّا كل عام من خلال ديوان الرقابة المالية.

بينما المساجين يمارسون روتينهم اليومي المعتاد بين رياضة ودرس وقراءة، حدث ما لم يكن في الحسبان داخل مبنى الزيارات، حيث خرج (علي) الملقب بـ(أبو هاجوس) مع والده (حسين) المسجون في المبنى (1)

للزيـارة في السـاعة العاشـرة صباحًـا، زيارة افتقـد فيها حضور أخيـه الأصغر، فذهـب والـده لسـؤال أحـد أفـراد الشـرطة الأردنييـن عـن ذلك: حضـرة الوكيل، لماذا لـم تسـمحوا لابني بالدخـول للزيـارة؟

الوكيـل الأردنـي الأصل: نعم، لـم نسـمح لـه بالدخول لأَنَّه لـم يجلـب بطاقة الهويـة أو الجواز أو ما يثبـت أَنَّه ابنك.

الوالـد مقاطعًـا: ولكـن ليسـت هي المـرة الأولـى التي يأتي مـن دون إثبـات هوية، وفي كل مرة يتـمّ إدخاله دون اعتراض، لماذا الآن؟

الوكيـل الأردنـي ـ مـن دون أي احتـرام ـ: لا تناقشـني، بـلا بطاقـة أو جـواز لـن يدخل.

الوالد باسـتغراب وغضـب: أنت لا تعلم بما يحدث هنا، منذ زمـن طويـل والجهـات الرسـمية تماطـل في إصـدار بطاقـة هوية لـه، اطلـب من الضابـط البحريني الحضور حتـى أتفاهم معه.

ردَّ الوكيل ضاربًا على صدره: لا يوجد ضابط بحريني.

ـ اذهـب وأحضـر لي الضابـط البحريني قبـل أن يحدث ما لا يُحمـد عقباه.

ـ أتهددنـي؟!! أتهددنـي؟! قالهـا الوكيـل الأردنـي صارخًا للفـت انتبـاه باقي أفـراد الشـرطة للحضور.

تدخل علي (أبو هاجوس) مدافعًا عن أبيه: يا هذا! إيَّاك أن تصرخ بوجه أبي أيُّها المرتزق.

وحدث تدافع تحوّل إلى شجار بالأيدي، وأفضى إلى ضرب عليّ ووالده ضربًا مبرحًا من قبل ثلاثة وكلاء أردنيين وعدد من أفراد الشرطة، وتكبيلهم من الخلف وإخراجهم من قاعة الزيارة. ممَّا أثار حفيظة عائلتهم فأخذوا يصرخون ويبكون على حال ذويهم.

وفي هذه الأثناء، وبينما كانت عمة علي (أبو هاجوس) تنتظر زيارة ابنها، سمعت صراخ أخيها (حسين) وابنه، فحاولت الدخول إلى قاعة الزيارات، فمنعتها واحدة من أفراد الشرطة النسائية، لكن مشهد تكبيل أخيها وابنه أشعل غضبها، فراحت تتدافع مع الشرطية لتدخل، فعلا صراخها ونحيبها حتى سمعه كل السجناء وعوائلهم.

نقل عليّ ووالده حسين إلى الإدارة، ونقلت عمته إلى مركز الرفاع الشرقي، وانتقلت أخبارهم وانتشرت في أوساط (الإعلام الثوري) للسجناء، ونقلها بعض السجناء الموجودون في مبنى الزيارات تزامنًا مع زيارة علي (أبو هاجوس) بنقل شهاداتهم الحية لما حدث دون ذكر تفاصيل دقيقة.

«هتكوا حرمة النساء في مبنى الزيارات!!» انتشرت في المبنى كانتشار النار في الهشيم، أثارت حفيظة كل الشباب وأجّجت مشاعرهم، وأشعلت غيرتهم، فحدث ما لم يحمد عقباه!!

- 8 -

الانفجار

10 مارس/آذار 2015 الساعة 12:30 مساءً

«يجب أن لا نقف مكتوفي الأيدي، لا بُدَّ أن نقوم بشيءٍ ما» قالها أحد الشباب بغضبٍ وحماس في حلقة نقاش في الكونتر.

الإمام علي (ع) يقول: «إذا مسَّ العرض، قامت الحرب» قالها آخر مؤكدًا كلام الأول.

لكن القرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1] قلتها بلحن غير متفق مع موجة غضبهم.

ردَّ عليَّ أحدهم بعصبيَّة وغضب: ماذا تقول يا جهاد؟!

(1) سورة الحجرات، الآية 6

ألا تكفيك كل هذه البيِّنات؟! الخبر قد انتشر في مواقع التواصل الاجتماعي، والقادمون من الزيارة أكدوا ما حدث!! ألا يكفي كل ذلك لتكون لنا ردَّة فعل؟!!

أجبته مصرًّا على رأيي: كلا، لا يكفي، يجب أن نتأكد ممَّا حدث بالتفصيل من حسين وعليّ (أبو هاجوس) في الإدارة.

إذًا سأذهب إلى الإدارة لأتحدث معهم ومع عليّ (أبو هاجوس) لنعرف الحقيقة. قال ذلك (عبد علي السنكيس) لقطع النزاع بين الشباب.

لبس السنكيس ثياب السجن، وتوجّه نحو الشرطي الجالس أمام الهاتف داخل غرفة الكونتر المحصَّنة ذات الواجهة الزجاجية ليطلب منه اصطحابه إلى الإدارة، وكان اسمه محمد عبدالقوي (يمني الجنسية) إلَّا أنَّ الشرطي رفض ذلك متذرعًا أنَّه لا يوجد لدي أمر لآخذك إلى الإدارة!

في هذه الأثناء حدث ما لم يكن بالحسبان، إنَّها القشة التي قصمت ظهر البعير، تقدم ثلاثة شبَّان يمشون بخطوات سريعة، وكأنَّ الجمر تحت أقدامهم، يتطاير من أعينهم شررٌ ونار، غاضبون، قد بانت على وجوههم حمرة غريبة، كالسهم المنطلق أمسكوا بالشرطي الجالس على طاولة الكونتر قرب الباب وطردوه خارج المبنى، وعلامات

الصدمة واضحة على وجهه، ثم توجهوا مباشرة إلى الغرفة التي يوجد بها المكتب المخصص لضابط المبنى، وسحبوا اثنين من أفراد الشرطة اللذين ينظمان الاتصالات، وهما يتوسلان الشباب أن لا يضربوهما، وطردوهما أيضًا خارج المبنى.

هنا اشتمَّ الشرطي محمد عبد القوي رائحة الخطر بعد رؤيته لهذا المشهد، فلم يبق شرطي آخر سواه في المبنى، فحاول أن يكون بطلًا وأسرع نحو باب غرفة الكونتر المحصَّنة وأقفله، ثم توجه إلى الهاتف ورفع السماعة ليبلِّغ الإدارة، إلَّا أنَّ الشباب الثلاثة كسروا الباب وجرّوه بعنف وهم يقولون له: اذهب لأسيادك وقل لهم: لقد رموا بي خارج المبنى كالخروف، ردًّا على ضرب النساء في مبنى الزيارات.

استغل السنكيس الفرصة، وخرج مع الشرطة المطرودين إلى الإدارة وهو يخاطب الشباب: سأذهب للتأكد من الموضوع، وأتفاهم مع الإدارة، لا تستعجلوا ولا تقوموا بأيّ شيء حتى أعود.

كل ذلك حدث والكل صامت متسمّر في مكانه يتابع الحدث بعينه!

حتى تقدم أحدهم صارخًا: ماذا تنتظرون، لنريهم ماذا

يحدث عندما تُنتهك أعراض نسائنا، أقفلوا الباب واحتلوا المبنى (ثورة) لِلمسّ بحرمة وشرف الحرائر!!

ثارت حميَّة الحاضرين، وتقدموا خلف المحرض غاضبين يجرّون طاولة الكونتر، وبعض الأثاث من مكتب الضابط نحو الباب الرئيس للمبنى.

لقد أعماهم غضبهم وحميّتهم، وأصبحوا لا يرون شيئًا، لقد رأوا ذلك الرجل وسمعوا كلامه وانجرّوا وراءه، لكن ليس بعين البصيرة، كان ذلك وللأسف من أكثر الناس الذين تدور حولهم دائرة الشك في المبنى، نعم إنَّه مخبر وعميل لدى الإدارة.

طاولة، أسياخ حديد، أريكة، مكتب، ثلاجة!! كان هذا شكل الباب الرئيس الذي لا ترى ما خلفه إلَّا عبر ثقوب صغيرة، مغلق بإحكام شديد، هذا المشهد جعل أحد الممرضين الذين علقوا داخل المبنى يشعر بالخوف، إلَّا أنَّ الشباب آووه إلى غرفة بها أجانب وأجلسوه.

وما إن انتهوا من أمر الباب الرئيس، حتى بدأ بعض السجناء بالتلثم، إنَّهم ليسوا من السجناء السياسيين، وأنا أنظر إليهم وفي وجهي أكثر من علامة استفهام: ماذا يفعل هؤلاء هنا والآن؟! فوجودهم في هذا الزمان والمكان غريب. قلتها في نفسي، ولكن ما هي إلَّا لحظات وعرفت الجواب!

هجم الملثمون على غرفة الكونتر المحصَّنة، وكأنَّهم في سباق يتهافتون باحثين عن شيء ما بين الأدراج والرفوف والخزانة، لا ليست الأصفاد أو مفاتيح الأقفال أو بعض الأوراق، إنَّها أقراص دواء الأعصاب! وعندما وجدوها لم يجمعوا أيًّا منها في أكياسهم؛ بل قاموا بابتلاعها دفعةً واحدة بشكلٍ مباشر لئلَّا يشاركهم الآخرون فيها، وهو ما جعلهم في نشاطٍ، وأفقدهم بعض حواسهم وإدراكهم. لم يكتفوا بذلك؛ بل بدؤوا يحطّمون غرفة الكونتر المحصنة بشكل بربري عشوائي تحت تأثير الأقراص، وأنا أنظر إليهم وعيني تكاد تخرج من مكانها لهول الصدمة محدّثًا نفسي: ألا يوجد أي عاقل بين هذه الجموع، أم إن عقولهم قد تعطَّلت؟!

فجأة، ومن بين الناس، تقدَّم جمع آخر ملثَّم يقوده أبو علي ومن خلفه سيِّد محمد وأبو محمد وأبو غايب، وقد تعرفت عليهم من خلال بنيتهم الجسدية وقلت في نفسي: هؤلاء من لهم تاريخ جهادي معلوم في الساحات، أتمنى أن تكون هذه هي نقطة التحول.

- 9 -

الانفلات

وكما ذكرت بينما يحطم عدد من الشباب الملثمين غرفة الكونتر المحصَّنة، إذ تقدَّم من بين الناس جمع آخر ملثَّم يقوده أبو علي ومن خلفه سيِّد محمد وأبو محمد وأبو غايب. نعم، نحتاج إلى مَن يوقف هذه المهزلة. قلتها عندما رأيتهم يتقدمون نحو ساحة الكونتر.

لكن استغربت عندما رأيت أحدهم يصعد على ظهر الآخر!!.. ماذا يريد أن يفعل يا ترى؟! أخرج قطعة من حديد وراح يضرب الكاميرا ويحطمها، حتى هؤلاء قد جرفتهم موجة الغضب.

لم أتحمَّل الوقوف ساكنًا، فالذي يحدث هو عمل غوغائي عشوائي يزيد علينا البلاء، لا بُدَّ من التحدث مع الشخصيات البارزة والأساتذة، فهم صمَّام الأمان للمبنى، لقد حافظوا على بنية مجتمعه من الصراعات والنزاعات والمشاكل.

كالمجنون الحائر، رحت أبحث عن «المعلّم» رغم علمي بوجوده في الزنزانة في هذا الوقت، ولكن الصدمة أنستني ذلك، دخلت وإذا به جالسًا على سريره واضعًا القرآن في حجره، يقرأ سورة يس والمسبحة في يده. جلست بجانبه منتظرًا انتهائه من السورة، إلى أن التفت إليَّ مبتسمًا مسلِّمًا وقال:

أرى في جعبتك كلام، قل فإني أسمعك يا جهاد.

أجبت بقلق: لقد انفلت الوضع يا معلّم، يجب أن تتدخلوا قبل فوات الأوان، وإلّا ستكون النهاية مأساوية.

أجابني: لقد استدعيت أكثر من شخص حتى الآن، ومن بينهم محمد وأبو غايب، وأرسلت إليهم جمال والأستاذ علي محمد، ولكن لم يستجب لنا أحد، هناك تعنّت وعناد من قِبل البعض، فهم يقولون: إنَّ الوضع بدأ عفويًّا من قِبل الناس، وهم أصحاب القرار، وأنَّ ليس لنا حق التدخل، جهاد عليكم بالدعاء فلقد أوصيت عددًا من الشباب بقراءة دعاء أهل الثغور في المسجد لعلَّ الله يلطف بنا ممَّا سيحدث، لا تنسانا من دعائك.

قالها المعلّم مودّعًا، فانصرفت من عنده مجيبًا: وأنتم من أهل الدُّعاء.

خرجت من الغرفة إلى ممرات المبنى، وقد لفت انتباهي أحدهم، شخص قد تلثَّم بقميص بنيّ اللون، وأبقى

على قميصه الداخلي الأبيض، يصرخ في الناس وكأنَّه يخطب من منبره: أين غيرتكم؟! أين حميّتكم؟!. لقد ضربوا إحدى النساء في الزيارة وشقُّوا وجهها، وأنتم لا زلتم متقاعسين عن الدفاع عن حرمات الله، أين أنتم أيُّها المعتقلون السياسيون، يا من دخلتم السجن بسبب مطالبكم وحقوقكم، لماذا لا تثورون؟!.

كان ذاك أحد الذين تهافتوا قبل قليل على سرقة أقراص دواء الأعصاب، وبلع الحصَّة الأكبر منها.

عدت إلى الكونتر، فوجدت خرابًا وركامًا، وكأنَّ حربًا طاحنة قد اندلعت فيه، ماء مسكوب على الأرض اختلط به دماء أحدهم، أرجّح أنَّه جرح من الزجاج المتناثر، وأما السقف فغير موجود؛ بل أُسقط هو ومركز التحكم بالكاميرات الذي يصلها بالإدارة، وذلك بعد أن عجزوا عن تحطيمها كلّها، لكن السؤال: أين ذاك الجمع الذي كان محتشدًا هنا؟ سألت نفسي بصوت مرتفع.

أجابني أحدهم من خلفي بصوتٍ مثقل مهموم: جزء منهم قد اتجه نحو الساحة الخارجية، وجزء آخر نحو الباب المطل على مبنى (3) وكلٌّ يعبّر عن غضبه بطريقته دون أن يسأل نفسه: ما هو الهدف وما غاية العمل الذي يقوم به.

فالتفتّ إليه، وإذا به الأستاذ علي محمد.

فقلت: ولكن يا أستاذي ألا يجب أن تفعلوا شيئًا قبل فوات الأوان؟!

الأستاذ: حاولت يا جهاد؛ لكن دون جدوى، حتى الذين توقعت أنَّ لي تأثيرًا عليهم، قابلوني بآذان صمَّاء وعيون عمياء، الله العالم بما سيحدث!

فعلًا فليتلطَّف الله بنا، ولكن ما الذي يحدث في الساحة الخارجية يا أستاذ؟! قلتها متسائلًا.

فأجابني: مصيبة أخرى، اذهب وسترى بنفسك؟

- 10 -

واشتعل السجن

ساحة حرب! مروحيَّة تحلِّق على ارتفاع منخفض، سماءٌ أصبحت سوداء من كثافة الدخان، أُناس فوق المبنى بأيديهم حجارة! على الأرض هناك فئة تحاول فتح ثغرة في السياج للهروب منها! فئة تحرق عددًا من المفارش التي ينام عليها السجناء في الممرات! أشخاص يدحرجون أشياءً تشبه العجلات في حجمها، أمعنت النظر وإذا بها عدد من القناني البلاستيكية للمشروبات الغازية قد مُلئت بالماء بعد استهلاكها، وتم ربطها معًا بهذا الشكل لاستخدامها كثقل يُرفع في التمارين الرياضية البدنية.

فكّوا الخيوط المربوطة حول قناني المشروبات الغازية، وأخذ كلّ شخص أربع قناني، اثنتان وضعوها في جيوبهم والأخرى في أيديهم، وأنا أتساءل ما الذي سيفعله هؤلاء القوم!

(هجوووووم) صرخ أحدهم. فتقدموا إلى زاوية الساحة

الخارجية الجنوبية، ورشقوا البرج الجنوبي بوابلٍ من القناني البلاستيكية، حتى صار مخرّقًا كبرج الحمامٍ، لأن واجهته خشبية مع بعض النوافذ الزجاجية، التي تحطمت أيضًا. المفاجأة أنَّ الشرطي الحارس الموجود في البرج رمى بنفسه من أعلى البرج إلى الأرض خارج نطاق سياج السجن، وفرَّ هاربًا!

دبَّ في الناس الحماس، وارتفعت أصوات التكبير، حتى عمدوا أيضًا إلى سيارات الحراسة ذات الدفع الرباعي الواقفة في الجهة المقابلة للساحة الخارجية، وقاموا برشقها بالحجارة والعلب البلاستيكية.

هنا لمحت (أبو علي) وهو على سطح المبنى يخاطب أحدهم على الأرض، إنه أبو غايب، قال أبو علي: البشارة يا أبا غايب، لقد ثار الإخوة في مبنى رقم (1) و (3) و (6) معنا وانتفضوا لشرف الحرائر، وليس هناك إلَّا عدد قليل من المرتزقة حائرين، لا يعرفون ما الذي يفعلونه.

ردَّ عليه أبو غايب: الله أكبر، بوركت يا أبا علي على هذا الخبر، الله أكبر، الله أكبر.

هنا سألت نفسي: إذا اتّسعت دائرة المواجهة، لا أخال إلَّا أنَّ الوضع سيزداد سوءًا، ولكن ما هذه الرائحة إنَّها ليست غريبة. سؤال لم تمضِ لحظات حتَّى عرفت إجابته! فما إن احترق وجهي، وذرفت عيناي الدموع، وأحسست

بالاختناق حتَّى عرفت الإجابة، إنَّه الغاز المسيّل للدموع، ومصدره عنبر رقم (2) ما جعلني أنسحب من الساحة الخارجية لقوة تأثيرها، فيما هرولت فئة أخرى باتجاهه.

انسحبت من الساحة الخارجية متوجّهًا إلى الباب المطل على مبنى (3) وقد اختصر الشباب الطريق بتحطيمهم قفل الباب الفاصل بين جهتي المبنى الذي يقع خلف الكونتر، فأصبح امتداد الممر من عنبر (2) حتى الصالة الكبيرة التي يقع قربها باب والمخرج إلى مبنى (3).

هنا استوقفني مشهد أنساني حريق وجهي، وبعث فيَّ الطمأنينة والرَّاحة، جمْعٌ من الشباب قد ملأ المسجد، لهم دويٌّ كدويّ النحل، يقرؤون الأدعية في خشوع وروحانيَّة منقطعة النظير، نعم هذا ما أوصاهم به المعلم، ولكن شيئًا ما عكَّر صفو خشوعهم وتأملي (طاااااخ) صوتٌ أخمد الأصوات وأسكت الناس وأفزعهم، إنَّه صوت الرصاص الانشطاري!

- 11 -

وجاء الوحش مدججًا

10 مارس/آذار 2015 الساعة الرابعة عصرًا

بين كرّ وفر، دارت المناوشات بين قوات الشغب الخاصة بالسجن والشباب أمام الباب المطل على مبنى رقم (3) وخرج سجناء مبنى (3) أيضًا لمواجهتهم.

تقدَّم الشباب ورشقوا الشرطة بالحجارة والقناني البلاستيكية ما أدَّى إلى تراجع قوات الشغب، خوفًا من وقوع إصابات في صفوفهم، وردّوا بإطلاق الغاز المسيّل للدموع دون أيّ فائدة تذكر.

فوجئ الشباب بصوت ما اخترق حاجز الصمت (طاااااخ) إنَّه صوت طلقة من سلاح الرصاص الانشطاري (الشوزن) أطلقها الضابط الموجود بين أفراد قوات الشغب بشكل مباغت نحو الشباب، ما جعلهم يتراجعون إلى داخل المبنى.

على وسائل التواصل الاجتماعي وفي الإعلام الرسمي صرَّح وزير الداخلية بأنَّه مسؤول عن كل ما يحدث في سجن جو المركزي.

تصريحٌ تجسَّد في موقف حدث عند البوابة الرئيسة للسجن، أعداد ضخمة من قوات شغب (سافرة) ـ منطقة بحرينية حوّلها النظام إلى معسكر لقواته ومساكنهم ـ مكونة من أكثر من عشر جنسيات من بينهم الدرك الأردني، حاصرت السجن من كُلِّ الجهات، مكونة من سريتين بها أربع فصائل عسكرية، يقدر عددها بأكثر من 600 فرد مدججين بكافة أنواع الأسلحة والمعدات، يقودها قائد (معسكر سافرة) بنفسه اللواء عبدالله الشامسي، لم يتفق مع إدارة السجن على طريقة التعامل؛ بل اكتفى بقوله: لدينا الضوء الأخضر من جهات عليا لاستخدام القوة وفعل أي شيء.

لقد سمعت هذا بنفسي من فم أحد الضباط البحرينيين مشيرًا إلى الوزير نفسه، إن لم تكن سلطة أعلى.

مشهدٌ لم يغب عن أنظار من اعتلى المبنى، عدد ضخم من قوات الشغب مع عدد كبير من سيارات الدفع الرباعي (Jeep) وعدد من المدرعات المزودة بالماء الحار، تحاصر السجن بأكمله، مشهدٌ نقله من كان على السطح إلى من هو على الأرض، فزاد حماس وعزيمة البعض للمواجهة، وأيقظ البعض الآخر من وحل الغضب إلى النهاية المتوقعة.

مشهدٌ أردتُ بدوري نقله إلى المعلّم لإعلامه والهروب إلى الزنزانة من مخاطر الغاز المسيّل للدموع الذي انتشرت رائحته في المبنى، لكن أحدًا ما سبقني إليه، دخلت الزنزانة وكان لدى المعلّم ضيف يتحدث معه بصوت يسمعه الجميع: لقد انفلت الوضع يا معلّم، يجب أن نتصرف الآن بحكمة وعقلانية بعيدًا عن العصبية والغضب، فقوات الشغب حاصرت مجمّع السجن بأعداد ضخمة وسيهجمون في أي وقت.

كان ذلك أبو محمد نفسه الذي رفض نصيحة المعلّم بالتدخل لاحتواء الوضع قبل ساعتين، وأصرَّ على عناده ورأيه.

أجاب المعلّم: الآن فات الأوان، لن تستمع لكم الإدارة أو تتفاوض معكم، فالأمر حتمًا خرج عن سيطرتها، والدليل أنَّ (قوات شغب سافرة) حاصرت السجن بأعداد ضخمة لإنهاء ما حدث، لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليّ العظيم.

وفعلًا ما هي إلَّا ساعة، وفي هذا الجو المشحون بالغليان من قِبل الطرفين، بدأت قوات الشغب بالاصطفاف والتقدُّم باتجاه المبنى، وكأنَّهم جيشٌ جرَّار في ساحة حرب طاحنة بعدّته وعتاده.

- 12 -

الوحش فاتحًا فمه للافتراس

10 مارس/آذار 2015 الساعة الخامسة عصرًا

كل شيء ينذر بوقوع كارثة، كارثة قادمة لا محالة، فالسماء قد حشدت غيومًا داكنة زاد من سوادها الدخان، والهواء يحمل نسائمَ باردة قد سمَّمها الغاز المسيّل للدموع، والأرض تعجُّ بمن شبعوا حقدًا وجاؤوا لهدر الدماء.

تقدّمت صفوف قوات الشغب معتمرين خوذًا بيضاء، والهراوات والدروع بين أيديهم، تقدموا بوجوهٍ بائسة قاسية منحوتة من الصخر، وقلوب مليئة بالحقد، وكان نذير شؤمهم مطر، ولكن من نوع آخر! مطر من عبوات الغاز المسيّل للدموع، هطل في كل أرجاء المبنى، فسمَّم الأجواء، وأجبر من كان على السطح بالنزول والتراجع إلى الداخل، الكل يهرول، لا من خوفٍ يطاردهم؛ بل من عذاب غازٍ قاتل فتَّاك، باحثًا عن هواء نقي بعيدًا عن هذا الوابل من العبوات، لكن أين المفر ونحن في مبنى مغلقٍ محاصر؟!

سقط العشرات من المرضى وكبار السن اختناقًا، وحملهم الشباب إلى الغرف، والمفاجأة كانت أنَّ قوات المرتزقة أصبحوا فوق رؤوسنا مباشرة! نعم قد احتلوا سطح المبنى! قلت في نفسي: إنَّهم يدبِّرون مكيدة.

لم تمرَّ لحظات حتى دوَّت أصوات انفجارات القنابل الصوتية في الممرات، بعد أن رمى بها المرتزقة من فوق السطح، فأصيب السجناء بفزع ورعب مهول، وعادوا على مضض إلى زنازينهم مختنقًين فزعين، وشعور القلق والخوف يستوطن الجميع من الآتي.

خيَّم الصمت بشكل قاتل على كل ممرات المبنى، فالألف شخص الذين كانوا في ممراته قد انسحبوا إلى زنازينهم، إلَّا القليل من الشباب الذي صمد وثبت في ساحة الكونتر رغم الغاز الخانق القاتل، ورغم القنابل الصوتية ودويّها.

دقت ساعة الصفر حاملة معها رياح الإرهاب العاتية، بهجوم قوات المرتزقة على الباب الرئيس كالكلاب، مكشّرين عن أنيابهم بعدائيَّة ووحشية، يحاولون فتح الباب بكل ما أوتوا من قوَّة، لكنَّهم لم يستطيعوا فرجعوا بالخيبة، ولكنَّهم ما لبثوا أن عادوا إلى نافذة غرفة مكتب الضابط، ونزعوا السياج الحديدي عنها، وتسلَّلوا منها لمباغتة الشباب، إلَّا أنَّ الشباب لمحوهم واشتبكوا معهم بالأيدي، لكن في النهاية اضطر الشباب للانسحاب من الغرفة

لكثرة عدد المهاجمين، وإغلاق باب غرفة مكتب الضابط بالطاولات والأثاث، لكنَّه لم يكن كافيًا لردع المرتزقة، فقد صارت المواجهة من جبهتين، وجدران الغرفة لم تكن متصلة بالسقف؛ بل كانت هناك فجوة بينهما. حاول المرتزقة التسلُّق من خلالها إلى داخل الكونتر، مع رميهم عشرات العبوات من الغاز القاتل والقنابل الصوتية منها.

هنا أحسّ الشباب باليأس من ردع قوات الشغب المرتزقة، فتراجعوا ملتحقين بباقي الشباب بالزنازين، مستسلمين إلى الأمر الواقع.

صرخ أحد المرتزقة: أين تفرّون يا أبناء المتعة، تعالوا نحن فرسان سافرة، في إشارة توصم به طائفة من المسلمين بفعل الحرام، بينما هم يتبعون نص القرآن وسنّة الرسول (ص).

تسلّق الجدار مع آخرين، وغدا يلاحق الشباب المنسحبين بسلاح طويل بين يديه، بين فوهته وزناده مسافة، وما إن وصل إلى باب عنبر (3) حتى سمعنا دوي إطلاق نار قوي متكرر (طاااخ، طااخ) كانت تلك صوت طلقتان من الرصاص الانشطاري أطلقها ذلك المرتزق (أبو عنتر) على الشباب بينما هم يهمّون بالدخول إلى غرفهم، بقصد القتل العمد من الخلف.

طلقتان، استقرت الأولى في كلتا يدي شاب بشكل فظيع، أفقدته الإحساس بها. والطلقة الثانية أصابت ظهر شخص ثانٍ، والأعضاء التناسلية لشخص ثالث، فسالت

الدماء في الممر، وسحبهم الشباب إلى داخل الغرفة، على وقع قهقهة المرتزق (أبو عنتر) الذي لم يكتف بالدماء التي سالت في الممر؛ بل راح يقفل أبواب الغرف.

وعندما فتح بعض الشباب باب غرفة رقم (4) قليلًا، توجه نحو الغرفة وفتح الباب بسرعة، وباغت أحد الشباب الجالسين على سريره، وأطلق النار عليه من مسافة قريبة جدًا حفرت فخذه ونهشت لحمه وجعلته يتطاير حتى بان عظمه في مشهدٍ مروِّع مفزع، أصاب كل من في الغرفة بالهلع والصمت الذي تخترقه آهات المصاب.

قال المرتزق أبو عنتر مهددًا: ليتحرك أحدكم أيضًا وسيلقى المصير نفسه.

أما في عنبر رقم (2) فكان المشهد مختلفًا، فقد تقدَّم ضابط بحريني مع شرطيين متبخترًا في الممر الخالي بعد انسحاب الشباب إلى الغرف ينادي: أين أنتم يا جبناء؟ في استفزاز واضح ممَّا أثار حمية الشباب حوله، فأتاه الجواب: (هجوووووووم) صرخ أحد الشباب فاتحًا إحدى الغرف ووراءه آخرون منقضّون على الشرطيين والضابط، كانقضاض الصقر على فريسته.

خرج الشرطيان بدمائهما بعد أن نالا ما نالاه من الضرب، وأما الضابط البحريني فقد تعثّر وسقط ونال الجزء الأكبر من الضرب ليسحبه رفاقه الباقين إلى الخارج، بعد رمي عدد من عبوات الغاز القاتل داخل الممر، ما جعل الشباب

يتراجعون إلى الغرف مرة أخرى، وبثَّ الرعب في قلوب قوات الشغب المرتزقة، لأنهم لم يأتوا من بلدانهم ليموتوا؛ بل ليكسبوا المال ويترقوا، ولو عبر إعانة الظالم وسفك الدماء.

وفي هذه الأثناء حضر عند الباب المرتزق (أبو عنتر) وكان عبوسًا غاضبًا ممَّا جرى على الضابط، وأتى معه ثلاثة من المرتزقة أمثاله، في يد أحدهم سلاح الرصاص الانشطاري (الشوزن) والهراوات بيد الاثنين الباقيين، كنت داخل إحدى الزنازين، وكان العدد الموجود كبيرًا بسبب قرب الزنزانة من الباب، متوزعين بين الأسرَّة والأرض، متسمّرين في مكاننا لا نقوى على أيّ حركة من شدّة تأثرنا بالغاز القاتل.

سيطر الهدوء على المكان حتى سمعنا صوت بعض الخطوات، تبعها صراخ أحد الشباب الذي مزَّق السكون بآهاته (آآآآآآه، آآآآه، أنا لم أفعل شيئًا) أجاب المرتزق (أبو عنتر) بحنق: اخرس، ألم تفعل شيئًا؟ إذًا من ضرب الضابط؟!! سنفلق جماجمكم ونحطّم عظامكم حتى تعترفوا.

- 13 -

والتهمنا الوحش

بدأ عدد من أفراد قوات الشغب المرتزقة باقتحام الزنازين، صابّين جام غضبهم وحقدهم على السجناء، يجرّونهم من الزنازين إلى الممر بأسلوبٍ عنيف خالٍ من الرَّحمة ومتجرّد من الإنسانيَّة، زنزانة تتلوها زنزانة، ونحن في حالة خوف وترقُّب، حتى وصل الدور إلى الزنزانة التي كنت فيها. فتح (أبو عنتر) الباب بقوة وقال: أهلًا وسهلًا! عددٌ كبير هنا، أيّ شخص يقوم بحركة غبيّة ويحاول المقاومة سأفرغ الذخيرة في رأسه بهذا السّلاح. وهو يلوِّح بسلاح الرصاص الانشطاري (الشوزن) كان شيطانًا على هيئة بشر.

أزعجه سكينة ووقار أحد الشباب الذي كان يقرأ القرآن في السرير العلوي وقال: الآن عرفتم ربكم وكتابه؟! تعال يا رافضي سأعرِّفك بربّك الآن!

تقدَّم نحو أحد الشباب الذي لم يعره اهتمامًا، وسحبه

من أعلى السرير، ورمى به بقوَّة إلى الأرض، فضرب رأسه بالأرض، راح الشاب يتلوَّى من شدَّة الألم والدِّماء تسيل من رأسه.

والمصيبة العظمى التي هزَّت قلوبنا هي سقوط كتاب الله تعالى على الأرض في استهتار واضح لحرمة وقدسية القرآن الكريم.

ثم بدأ يجرَّ السجناء واحدًا تلو الآخر إلى الممر، بينما يقف باقي الشرطة، شرطيان عند الباب يعتدون على من جاء عليه الدور لكمًا وصفعًا وركلًا وضربًا بالهراوات، مع وصفنا بأبشع الألفاظ الماسة بالشرف والدِّين والعقيدة.

تكدَّس السجناء على بعضهم بعضًا في الممر الذي ضاق بهم، يحرسهم اثنان من المرتزقة في المقدمة، يحمل أحدهم سلاح الرصاص الانشطاري (الشوزن) يصوّبه بين الحين والآخر نحو الشباب لإفزاعهم وإرهابهم، وكأنَّها لعبة في يده، وخلفنا بالمؤخرة (أبو عنتر) مع مرتزق آخر يصرخ: من الذي ضرب الضابط يا أبناء العاهرة؟!! اعترفوا وإلَّا سينال الجميع عذابًا قاسيًا لن يتحمّله أحدٌ منكم.

في هذه اللحظات وصل ضابط بحريني عند الباب، صرخ مناديًا: أبو عنتر.

ردّ عليه: نعم سيِّدي.

سأله الضابط: هل نخرج هؤلاء الآن؟

أجاب: لا سيِّدي، يفضّل أن ندعهم للنهاية لنتسلى بتحطيم عظامهم، فهؤلاء اعتدوا على ضابط، ويجب أن ينالوا الجزاء على ما فعلوه حتى لو مات أحدهم.

أمره الضابط: إذًا تعال وأشرف على خروج الباقين.

لم يطلب أبو عنتر منَّا إفساح المجال له للمرور؛ بل راح يدوس على رؤوسنا وأكتافنا قاصدًا إذلالنا وإهانتنا والحطّ من كرامتنا، وهو يقول: إن رفع أحدكم رأسه سأركله في وجهه بحذائي.

عبر على أجسامنا وخرج مرافقًا الضابط البحريني، حتى سمعنا دويّ صراخ إخواننا من باقي العنابر، يخترقها صدى ارتطام الهراوات على أجسادهم ورؤوسهم، ويشوبها آهات مخيفة في مشهد مرعب كان بمثابة التعذيب النفسي القاسي الذي ارتعدت منه فرائصنا، وغرقنا في صمت قاتل وسط انتظارنا لمصيرنا الذي سيكون أقسى من كل هذا بكثير بعد التهديد والوعيد، وكل صوت كنَّا نسمعه كان ينبئنا باقتراب الموت.

أطربوا آذانهم بصرخاتنا واستغاثاتنا، ومتّعوا أعينهم بآلامنا وجراحنا، لم تأخذهم بنا رحمة أو شفقة؛ بل أسكرهم الحقد وأعمى قلوبهم، فتبًا لتلك القلوب القاسية، كانت أبداننا ترتعش من صدى آهات الشباب، وسط تعالي قهقهات قوات الشعب المرتزقة الوحشية، الذين كانوا يتلذّذون بتعذيبنا.

لـم نكـن نعـرف المكان الـذي أخـذوا إليه السـجناء، ولكن صراخهـم يـدلُّ علـى أنَّه تـمّ جرّهم على طـول الطريق المؤدي إلـى حيـث يذهبـون، فصرخاتهـم تسـمع قريبـة، ثم تبتعد شيئًا فشـيئًا، حتـى يبـدأ التالـي بصـراخ ينبـئ عـن الألـم الـذي يعاني منه.

كانـوا لا يسـمحون لنـا برفـع رؤوسـنا خوفًـا مـن أن نـرى وجوههـم ونحفظهـا؛ بـل كانوا يصوّبون السـلاح نحـو كلّ من يرفـع رأسـه ويضربونـه، كانت تلـك اللحظات طويلـة، نتنفَّس فيهـا بصعوبـة دون أن نتحـرك مـن مكاننـا، مـا أدَّى إلـى إصابـة أحـد السـجناء مـن الذيـن كانـوا بقربـي بنوبـة صـرع، جعلـت أطرافـه كالخشـبة اليابسـة، وراح يلفـظ أنفاسـه وكأنَّـه علـى حافـة قبـره، فصـرخ أحـد أصدقائـه مناديًـا المرتزقـة: مـددوا جسـمه بسـرعة، افتحـوا فـاه للأعلـى حتـى لا يبلـع لسـانه!! أخرجـوه، أسـعفوه قبـل أن يمـوت!

ردَّ عليـه أحـد المرتزقـة: اصمـت، لا ضيـر فـي ذلـك، اجلسـوا ولا ترفعـوا رؤوسـكم وإلَّا حطمـت جماجمكـم.

ولكـن عندمـا رأى جديـة الأمـر خـاف مـن أن يتحمـل مسـؤولية مـا قد يحـدث لاحقًا، فأشـار إلـيَّ وإلى أحد الشـباب وقـال: قومـا أنتمـا واحمـلاه واتبعانـي، فقـط أنتمـا!

هرعنـا إليـه وأخرجنـاه خـارج العنبـر، فصُدمـت مـن هـول المشـهد حتـى كادت عينـاي تخـرج مـن محلهمـا! المئـات

من المرتزقة كالوحوش انقسموا إلى صفّين متقابلين، من باب عنبر (3) حتى المخرج المؤدي إلى الساحة الخارجية الشمالية قرب الصالة الكبيرة.

لم تكن أيديهم خالية؛ بل كان البعض يحمل هراوته، والبعض الآخر يحمل عمودًا من حديد، وآخر لوحًا خشبيًّا، والسجناء يركضون بين الصفّين، محاولين النفاد بجلدهم، والمرتزقة يشبعون السجناء ضربًا من باب العنبر حتى مخرج الساحة الخارجية، والركض والهرولة، هنا فخ وقع فيه الشباب بسبب الماء المسكوب على الأرضية، فسقطوا على الأرض، وتجمَّعت حولهم الوحوش والذئاب البشرية تنهش من لحمهم.

صرخ عليَّ المرتزق الذي أمرني بنقل المصاب: لا ترفع رأسك! انظر إلى الأرض! كنا نتجه للكونتر فاستوقفنا أحد الضباط، وكان أردني الجنسية ضمن (قوات سافرة) سأل الشرطي: إلى أين تأخذ هؤلاء؟ لم ينالا حصتهما من الضرب بعد!

أجابه: سيحملان المريض إلى الإسعاف فقط، ثم سيعودان ليلقيا مصيرهما.

قالها الضابط الأردني مستهزئًا وهو يضرب بعصاه جنب المريض: ولكن ما به، لا أرى به دماءً أو علّة. فامتعضت من الموقف ونظرت شزرًا إلى عينيه، فرفع عصاه وانهال بها بقوة على ظهري، ثم رفعها في وجهي وقال: لا تنظر إليَّ

هكذا! احمله إلى الإسعاف، ثم عد، سترى ماذا سأفعل بك !

لم أنطق بالآه وحبستها داخلي حتى وصلت إلى الباب الرئيس، وحصد جسدي ضربات أخرى قاسية، لم يكن الكونتر خاليًا؛ بل كان مليئًا بالسجناء الذين أجبروا على الجلوس في زاوية ضيقة مع وضع أيديهم على رؤوسهم.

خارج المبنى كان طاقم الإسعاف متوقفًا يعالج الإصابات البليغة، والتي معظمها كان في الرأس والوجه، حتى إنِّي لم أميِّز الكثير منهم بسبب إصابته الفظيعة.

تسلم منَّا المسعف المريض، وعدت أدراجي لأكون لقمة سائغة لهذه الوحوش الحاقدة، فذاك يركلني من الخلف، وهذا يلكمني في الوجه، ولكن الضربة التي أفقدتني توازني، وأحسست بنزعات الموت من ألمها تلك التي كانت بالهراوة على صدري.

عدت إلى العنبر وكأنِّي ورقة تتلاعب بها الرياح، وفي صدري ألمٌ قطَّع الأحشاء.

لم أصمد كثيرًا حتى اسودَّت الدنيا في عيني وسقطت، وعلى أثر صرخات استغاثة الشباب، فتحت عيني بعد برهة من الزمن، فوجدت أنَّ من يحملني اثنان من المرتزقة لا من الشباب. حتى مررنا بضابط في زي قوات الشغب المرتزقة،

أعتقد أنَّه كان ضابطًا بحرينيًّا، بالقرب من عنبر (4) فسأل المرتزقة: ما به هذا؟!

أجاباه: مريض.

قال: مريض؟!! سوف تعالجه هذه (طاااخ). كانت لكمة قوية على جبهتي، هوى رأسي مرتطمًا بالأرض واسودّت الدنيا في عيني.

- 14 -

تلذّذ الوحش

لـم أعلـم، هـل أنـا ميِّـت أم مغمًـى علـيَّ؟! هـل أرقـد فـي عالـم الأرواح أم فـي عالـم الأبـدان، مـرَّ شـريط حياتـي وذكرياتـي علـيَّ، تـرى هـل أنـا أحتضـر؟! لكنني ارتحـت عند رؤيـة أحبَّائي الذيـن كانـوا بالنسبة لـي سرّ هـذه الحيـاة، سرّ صبـري وصمـودي وابتسـامتي كلّ صبـاح. الأمـل وسـط كل هـذا الضبـاب الكثيـف، مـدّوا إلـيَّ يدهـم، فأفقـت مـن ذلـك السـبات.

فتحـت عينـي علـى سـماءٍ غائمـة مهمومـة، فـي وسـطها مروحيَّـة مشـؤومة، تـدور فـوق رؤوس أُنـاسٍ مظلومـة، فتحـت عينـي ووصـل إلى سـمعي صـوت أنيـن وآهـاتٍ، ودبَّ الوجع فـي كلّ بدنـي، سـألت نفسـي: أيـن أنـا، مـاذا حـدث؟!

فالحجـم المهـول للصدمـة لـم يـزل بعـد، لمحـت أحـد الممرضيـن بجانبـي يسـعفني وأنـا ممـدد وسـط عشـرات المصابيـن الممدديـن فـي مقدمة السـاحة الخارجية الشـمالية،

ومن خلفنا باقي المساجين جالسين على الأرض، واضعين أيديهم على رؤوسهم، وآخرون لا زالوا يتوافدون إلى الساحة بحالة مزرية، إنَّهم الذين كانوا معي في عنبر (3) ولكن المشهد الذي أدمى قلبي وأفجعه هو رؤية المعلّم بحالة مأساويَّة، يهرول هاربًا من مخالب تلك الوحوش وهراواتها، حافي القدمين ممزَّق الثياب، واضعًا يداه على رأسه، قد هوت عليه الهراوات قاصدة رأسه، هيئته تنبئ بشدَّة ما وقع عليه من تعذيب وألم، هيئة لم أعتد رؤيته عليها، أسالت دموعي بحرقة ولوعة.

فأيّ حرمة انتهكوها، وأيّ دماء سفكوها، إنَّها دماء وصرخات الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوَّة، وهم تحت أيدي ذئاب بشرية، لطالما تبجَّحت وزارة الداخلية بترويضهم عبر الادّعاء أنهم يحملون القيم السامية التي تقرّها الشرائع السماويَّة وترفضها القوانين الوضعيَّة.

في هذه الأثناء بدأنا نسمع أصوات القنابل الصوتية ودويّها، وأحرقت وجوهنا رائحة ذلك الغاز القاتل الخانق، كان مصدره المبنى رقم (3) المخصص للسجناء دون الثامنة عشرة سنة، ولم تمرّ لحظات حتى سمعنا أصوات صراخ شبَّان يتعرضون للتعذيب والضرب.

غابت الشمس، وبان غسقها أحمر كالدماء التي سالت من أجسادنا، غابت معلنة انقضاء يوم مريرٍ أسود علينا، وحلول

ليل لا نعلم ماذا يخبئ لنا، زالت حمرة الشمس ودخل وقت صلاة المغرب، فطلب بعض السجناء الماء للوضوء.

فأجاب عدد من أفراد قوات الشعب المرتزقة: لا ماء ولا صلاة، الصلاة ممنوعة اليوم، ومن يخالف الأوامر سنلقِّنه درسًا لن ينساه.

كان أفراد قوات الشعب المرتزقة يجوبون الساحة كذئابٍ متوحشة تبحث عن فريسةٍ خالفت الأوامر بإنزال يدها عن رأسها، أو باعتراضها على أمرٍ أو سوء معاملة، أو طلبها ماءً للشرب أو الوضوء، أو حمامًا لقضاء الحاجة، كل هذه الأمور تؤدي إلى هلاكك ووقوعك فريسة بين أيديهم، ليجتمع عليك العشرات من المرتزقة كالكلاب الضارية، تنهش لحمك، وتكسر عظمك، ثم تتركك بالأنين والآهات التي تشبع غرائزهم الحيوانية، وتوصلها إلى قمة النشوة المريضة. نعم كانوا يتلذذون ويتمتعون بآهاتنا وصرخاتنا.

بين الحين والآخر يجول أحد المرتزقة في الساحة، مستعرضًا عضلاته باحثًا عن ضحية يشفي بها غليله، يصرخ بما يسكن قلبه من الحقد والقذارة.

فواحد يصرخ: أين أنتم يا أبناء الخميني؟! قوموا لأجعل منكم شهداء.

وآخر يقول: أهلًا بكم يا أبناء المتعة، من منكم سيعطيني أخته لأتمتع بها؟!

وآخر يستهزئ: أين مهديّكم، ليخرج ويخلّصكم من هذه الورطة.

وآخر يسخر: لينفعكم المشيمع، وعلي سلمان الآن.

لم يكن غير الانحطاط سيد للموقف. بين كل هذا الإذلال والتعذيب، كانت هناك معاناة لم يسلم منها أي جنس من البشر، فهي حاجة إنسانية لا يمكن إغفالها أو التخلُّص منها إلَّا بقضائها وهي: التبوّل والتغوّط. كانت بابًا من أبواب المعاناة، وهذا المشهد المأساوي جزء منها، أحد كبار السن قد اشتعل رأسه شيبًا، مصابٌ بعدَّة أمراض منها: الضغط والسكري، يطلب من أحد المرتزقة الأردنيين الذهاب إلى الحمام.

وكانت الإجابة: «شُخ على حالك». تعبير دارج في اللهجة الأردنية، ومعناها تبوّل على نفسك، إجابة لم يعرف ذلك الكهل مفادها، فهي لغة دارجة؛ بل راح يسأل من حوله عن معناها، والذي وجد معناها هو نفسه من لم يحتمل قمع حاجته، ولم يجد مفرًّا إلَّا أن يتبول مكانه في ثيابه، قام بذلك منكِّسًا رأسه خجلًا لعظم المذلَّة والإهانة التي صار إليها مع وحوش لا تعرف معنى الإنسانية، ولا تفرق بين صغير وكبير، وسليم ومريض.

ومن معاناة إلى عذاب، حيث دخل أحد المرتزقة الأردنيين الساحة يحمل في يده قيودًا بلاستيكية ــ في اللغة الدارجة سيركليب ــ وكان عددها كبيرًا جدًّا، بدؤوا بتقييد السجناء من الصفوف الأمامية التي كانت أمامي، كانوا يقيدون معاصم الشباب من الخلف بشكل قاسٍ جدًّا، ما يجعل آثار القيد تظهر بوضوح على الجلد. إنَّه يوقف جريان الدم إلى اليد حتى تصبح زرقاء. كنت أسمع أنين الألم الذي جعل الشباب ينوحون ويبكون من شدته، ولم يستثنِ أحدًا من ذلك، بِمَن فيهم أشخاص من جنسيات غير بحرينية يقدّر عددهم بـ 22 جنسية.

إلَّا أنَّ القيود البلاستيكية نفدت رغم كميّتها الكبيرة، لأنَّ عدد السجناء يربو عن الألف سجين، ممَّا أنقذ البعض من عذابها، تمَّ بعدها نقل من تمّ تقييده إلى الساحة الجنوبية عبر الباب الفاصل بينهما.

وفي هذه الأثناء سمعنا أصوات تكسير قادمة من داخل المبنى، كانت الأصوات واضحة كوضوح الشمس في كبد السماء، قلت في نفسي، لربما دخلت وحدة التفتيش المبنى! فعندما تدخل هذه الوحدة المكونة من شرطة الإدارة تقلب الغرف رأسًا على عقب، وعدد الهواتف في المبنى لا يحصى، ولن يتركوا المكان دون أن يجدوا عددًا كبيرًا منها.

فجأة، حدث استنفار من المرتزقة الموجودين في

الساحة، وضابط يأتي وآخر يذهب، وسط اصطفاف قوات الشغب المرتزقة بشكل عسكري منظم، يوحي باستعدادهم لأمرٍ ما.

وفعلًا لم تمرّ سوى لحظات حتى دخل من مدخل الساحة رجل متوسط القامة، بلباس عربي ـ ثوب أبيض وشماغ ـ يمشي ومن حوله وورائه حاشية يحرسونه، فقلت في نفسي: ترى من يكون هذا؟ هل هو ضابط كبير جاء ليتفقد الوضع؟ أو هو أحد أفراد العائلة الحاكمة، جاء ليشمت بالضعفاء والمساكين؟

- 15 -

الوحش متبخترًا شامتًا

كما ذكرت وسط استنفار أمني لقوات الشغب المرتزقة، وأجواء من الحذر والترقب، تقدم رجل إلى مدخل الساحة متوسط القامة وعبوس الوجه، بلباس عربي يتبختر ماشيًا، يمشي معه عشرات من الحرس يأمنون له الطريق.

تساءلت في نفسي: ترى من يكون هذا؟!

سؤالٌ لم أجد بُدًّا من الحصول على جوابه، فأحد الإخوة المصابين الممدّد بجانبي بدأت ألوان وجهه بالتغيُّر، فاغرًا فاه متعجبًا، وعينه تكاد تخرج من بين جفنيه، وهو يقول: إنَّه هو، إنَّه هو، نفس الشخص الذي عذَّبني، في أيام السلامة الوطنية، هذا هو (خليفة بن أحمد آل خليفة).

سألته متعجبًا: خليفة بن أحمد، رئيس مديرية شرطة المحافظة الجنوبية؟!

أجابني: نعم إنَّه هو، لطالما تلذَّذ بآهاتنا، وأشرف على

التعذيب بنفسه في مركز الدفاع الغربي، في أيام السلامة الوطنية.

إنَّها فترة الطوارئ عند انطلاق شرارة الثورة عام 2011م والتي شهدت أنواع الانتهاكات التي وثقها تقرير البروفسور محمد بسيوني.

دخل خليفة بن أحمد آل خليفة الساحة بلباس مدني يتفقد الأوضاع، ويتخطى الصفوف، ويتفحص الوجوه، فناداه بعض السجناء مستغيثين به، معلّقين آمالهم عليه.

قال له أحدهم: نحن ليس لنا علاقة بما حدث هنا!

أجابه مقاطعًا إيَّاه: نحن نعلم بأنَّ الغالبية لم تفعل شيئًا، ولكن الخير يخصّ، والشرّ يعمّ.

قلت في نفسي: ألم تسمع قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] أم إنَّكم أصبحتم لا تعترفون بالقرآن؟

أكمل خليفة بن أحمد جولته، لكنَّه توقف عند سجين يحتضر ألمًا، فسأله: ما بك تئن هكذا؟!

ردَّ عليه: لو سمحت أريد الذهاب إلى الحمّام.

ردَّ عليه: حمام؟ وهل أبقيتم على أيّ حمام لكم؟!

---

(1) سورة الأنعام، الآية:164.

أجابه بحرقة: ماذا، كيف؟! الحمامات لم يلمسها أحد من السجناء، فمن الذي حطمها؟!

أحدث ردّ (خليفة بن أحمد) بلبلة في أوساط من سمعه، فلا يوجد تفسير لكلامه إلَّا أنَّ أصوات التكسير القادمة من داخل المبنى ليست بسبب التفتيش، بل هي أصوات تخريب مرافق المبنى، وافتعال أضرار فيه لاتّهام الشباب بها لاحقًا.

عاين (خليفة بن أحمد) الوضع بعينه، ورأى المصابين ممددين على الأرض في مقدمة الساحة دون أيّ علاج، سوى بعض الإسعافات الأولية، وخرج دون أن يحرّك ساكنًا.

خرج من الساحة، ودخل عدد من أفراد شرطة الإدارة بغرور وتكبُّر، تعرَّفت على أحدهم رغم تغطية وجهه بلثام مضحك من الكمامات الطبية، كان قصير القامة ضعيف البنية، دميم الوجه وصوته أشبه بالصفارة، إنَّه الشرطي عبد القوي.

دخل ومعه ثلاثة أفراد من الشرطة حاملين في أيديهم أوراقًا بدا أنهم سعداء بما فيها، وسط ترقُّب السجناء، فالكل يشمّ رائحة مصيبة قادمة، هي حتمًا أسوأ من الماضية، خيَّم الهدوء، حتى كسر حاجز الصمت الشرطي الواقف في منتصف الساحة أمام صفوف السجناء قائلًا: من يسمع اسمه فليجب بنعم، ويتقدم إلى هنا.

إنَّها هي حتمًا!، ولكن بهذه السرعة ولم تمر سوى بضع ساعات؟ هل هذا معقول؟! لا ربما هو أمرٌ آخر.. تساؤلات ازدحمت في نفسي.

أكمل الشرطي: ناجي علي حسن فتيل، سيِّد أحمد رضا حميدان، عباس السميع. لا حتمًا هذه هي، إنها قائمة الموت والانتقام التي سيتذوق من فيها الويل والعذاب، وسيحمّل مسؤولية ما حدث، لكن بهذه السرعة؟! وبلا تحقيق، أم إنهم أعدّوها مسبقًا قبل وقوع الحدث أصلًا؟

أكمل الشرطي: سعيد السماهيجي، محمد المحاسنة، أحمد عباس هلال، صادق عبدالله حسين، عباس العكري، علي حسن حاجي، حسين السهلاوي، محمد ميرزا، حسن عبد الغني...

واستمر يقرأ قائمة طويلة أحصيت عددهم، وإذ بهم 37 شخصًا، يتفاوتون بين شخصيات معروفة، وأخرى أستغرب وجودها بينهم!

قام الأشخاص الواردة أسماؤهم، وتقدموا نحو شرطة الإدارة، الذين قاموا بتقييد أيدي السجناء من الخلف مع إجبارهم على الوقوف ووجوههم إلى جهة السياج، إلَّا أنَّ شخصًا لم يستجب حتى كرّروا اسمه أكثر من مرة دون أيّ فائدة، إنَّه المحكوم بالإعدام ظلمًا الشاب عباس السميع، لم يجبهم رغم مناداته أكثر من مرّة.

جاء بعض المرتزقة يتفحصون الوجوه ليجدوه، لكنَّهم لم يفلحوا. فجاء الشرطي محمد عبد القوي (يمني الجنسية) أحد أفراد شرطة المبنى، وهو نفسه الذي طرد من الكونتر صباحًا، جاء يتصفَّح الوجوه ليتعرف عليه، رغم أنَّ شكله لم يكن غريبًا عليهم، فعباس السميع ظهر في عدة مقاطع مرئية من داخل السجن أحرجت النظام، خاطب فيها أسرة الشرطي الإماراتي القتيل (خالد الشحي) بعد صدور حكم الإعدام بحقِّه، إنَّه ليس من قتل ابنهم؛ بل تمَّ تلفيق التهمة ضدّه، وإنَّه بريء من دمه كبراءة الذئب من دم يوسف، وقد أقسم بذلك على القرآن الكريم، ممَّا أشعل ضجة كبيرة في أوساط الإعلام المحلي والخليجي والدولي.

تعرّف الشرطي محمد عبد القوي على عباس السميع، وجرَّه من ثيابه وسط الجموع، لكنَّه قام شامخًا صابرًا محتسبًا أمره لله سبحانه، قام ثابت الخطى، وسط صرخات بعض الشباب: «الله معك يا سميع». قمعتها المرتزقة بالهراوات، لم يعر عباس السميع أهمية للشرطة؛ بل راح يصافح أصدقاءه ويودِّع أحبَّاءه، فصرخ فيه الشرطي محمد عبد القوي: «تخالف الأمر! سنريك عاقبة عملك، سنلقّنك درسًا لن تنساه». هذا بينما كانوا يجرّونه إلى الإدارة.

في هذه الأثناء دخل ضابط بحريني يرتدي بزَّة رسمية لقوات الشغب، متوسط الطول ومربوع الوجه، قوي البنية، دخل يتفقد المصابين بنظرات شماتة واستهزاء، لم يكن

وجهه غريبًا: أين رأيته، أين رأيته يا جهاد؟! تذكر. قلتها في نفسي.

تقدم نحوي بينما أنا أتمعن في وجهه وهو يحاول الهرب منّي، ناداه أحد الشباب المصابين قربي باسمه: حضرة الضابط محمد الأنصاري، حضرة الضابط محمد الأنصاري.

ردَّ عليه بتغطرس: نعم ماذا تريد؟!.

المصاب: فخذي يؤلمني جدًّا، أريد الذهاب للعيادة.

سأله بعد اهتمام: ومِمَّ يؤلمك؟

أجاب المصاب: لقد اخترقته طلقة من الرصاص الانشطاري (الشوزن) وهشمت لحمه.

الأنصاري ساخرًا: شوزن؟ نحن لم نستخدم الشوزن في المبنى!

ردَّ المصاب: إذًا كيف وصل الرصاص الانشطاري (الشوزن) إلى فخذي؟!!

ردَّ عليه الضابط ساخرًا: اسأل نفسك. ثم ضحك ضحكة شيطانية، وغادر الساحة.

كان ذلك المصاب (رضا عبد علي) وهو من معتقلي قرية النويدرات، وقد أصيب في عنبر (3) غرفة (4) بطلقة مباشرة وبشكلٍ وحشي.

لكن ترى أين رأيت محمد الأنصاري؟! نعم إنَّه هو، هو نفسه الضابط البحريني الذي لكمني في وجهي قرب عنبر (4) قبل وصولي إلى الساحة مغمًى عليَّ، وبسبب تلك اللكمة ارتطم رأسي بالأرض، ولكن يا للأسف، إنَّه ضابط بحريني من أبناء وطني، وليس أجنبي كهؤلاء المرتزقة، ويعاملني بهذه الوحشية!

بعد استغاثات ومعاناةٍ مريرة، وبعد أن تبوّل الكثير من كبار السن والمرضى في ثيابهم، بعد استسلامهم أمام مقاومة الحاجة، بدأت قوات المرتزقة بالسماح للسجناء بقضاء الحاجة في الجزء الخلفي من الساحة، وأمام أعين الكل من سجناء ومرتزقة، دون وجود أيّ ماء للتطهُّر والتنظيف، وكان ذلك بأمرٍ من قائد كتيبة قوات الشغب.

لكن لم يكن ذلك سوى إمعانًا في الإذلال، نقلنا من معاناة إلى معاناة أخرى، فقد تكوَّن في الجزء الخلفي من الساحة مستنقع من البول والغائط، نتن الرائحة تجمَّع عليه الذباب الأخضر وجميع أنواع الحشرات.

إذلالٌ نفد صبر السجناء منه، وضاق به الناس ذرعًا، فوقف عبد علي خير (أبو رضا) في وسط الجموع مناديًا قائد كتيبة قوات الشغب الذي كان يجوب الساحة: لو سمحت، لو سمحت.

ردَّ عليه: لا تحدث أيّ فوضى واجلس.

ردَّ عليه مؤكدًا: لكنني أريد التحدث معك، ولا أقصد إحداث أي فوضى.

أجابه: ماذا تريد تكلّم.

بادر الرجل بالكلام بكل هدوء: إنَّ الناس بحاجة ماسة للحمام، وهي حاجة إنسانية لا يُستغنى عنها، ونحن بشر ولسنا حيوانات، هناك عشرات الحمامات بالداخل.

قاطعه قائد الكتيبة صارخًا: اجلس ولا تحرِّض الناس، لا يوجد أمر لديّ للسماح لكم باستخدام الحمام، اجلس وإلَّا أجلسناك بالقوة.

نادى أحد الشباب: شرطي، شرطي، أريد الذهاب إلى الخلف للتبول. وإذ بالمرتزق الأردني قد استشاط غضبًا، ورفع هراوته حقدًا وغدا يضرب الشاب على رأسه وظهره وهو يقول: لا تقل لي شرطي، وإلَّا حطمت رأسك، من الآن وصاعدًا إذا أردت أن تنادي أحدًا فينا قل (سيدي) أو (أفندي)ـ تعبير دارج لدى البحريني يوصف به الشخص المغترّ بنفسه من باب السخرية، ولكنَّه يُقال للشخص من باب التبجيلـ موقف قد تكرر أمام عيني كثيرًا، حتى أصبح شيئًا مسلمًا تُعاقب على تركه. لقد ابتدع منتسبو وزارة الداخلية بدعم من مسؤولي النوبات والضباط ذلك إمعانًا في إذلال السجناء بطريقة فظَّة، طبقت فيها القوانين العسكرية على المدنيين السجناء، وكأنَّنا في ثكنة عسكرية.

في خضم هذا الوضع المتأجج، تحركت قوات الشغب المرتزقة وعدد من شرطة الإدارة للتهيؤ لأمرٍ ما، قاموا بإرجاع كل من تمّ نقله إلى ساحة أخرى بعد فك القيود البلاستيكية عنهم، وتخليصهم من ذلك العذاب الأليم.

لكن تمّ إرجاعهم إلى الساحة بالطريقة نفسها التي تعرّضوا لها عندما دخلوا إليها في البداية، حيث اصطفت قوات الشغب المرتزقة صفين قرب الباب الفاصل بين الساحتين، وغدوا يضربون كل من يتمّ إرجاعه من الساحة الأخرى ضربًا قاسيًا بالهراوات.

حضر عدد من شرطة الإدارة مع مسؤول النوبة الليلية للمبنى (مصطفى حيدر غلام) ومعه وكيل أردني اسمه يوسف، وقاموا بترتيب جلوس السجناء في صفوف متساوية.

فقلت في نفسي: إنَّهم يستعدّون للعدّ!!، ولكن كيف سيتمكنون من عدّ أكثر من ألف سجين مع كل هذه الفوضى، وغياب الكثير من السجناء؟! هذا مستحيل، ولا يمكنهم أن يتظاهروا بذلك! فالمطلوب هو أمر حساس جدًّا، سيعرف من خلاله إن كان قد هرب أحدهم أم لا.

- 16 -

لا صلاة.. لا ماء.. لا نوم

10 مارس/آذار 2015 منتصف الليل

إنه ليل مظلم بائس، لم ترحم برودته أجسادنا الضعيفة المنهكة، ولم ترأف وحوشه بأوجاعنا وجروحنا المفتوحة، ليل حملني للاشتياق لدفء أحضان أُمِّي الحبيبة وحنانها، ورسم الابتسامة على ثغري، لم يكن تذكرها يحزنني ويكسرني؛ بل يقويني ويسعدني، وسط هذا البحر الهائج من العذاب الذي غرق الكثير فيه بحزنه ونفاد صبره، في ساحة مكتظة بالسجناء، قد تعبوا من وضع أيديهم على رؤوسهم، تعبوا من آلام مريرة لم يجدوا مهربًا منها وسط تحديق أعين الوحوش التي تنتظر بفارغ الصبر نزول يد أحدهم لتجرِّعه عذابًا فوق العذاب، بضربٍ قاسٍ وحشي بكل ما قد يخطر في ذهنك.

وسط هذا الجو المليء بالإرهاب، جُمع السجناء في ساحة واحدة، وحضر عدد من شرطة الإدارة مع مسؤول

النوبة الليلية مصطفى حيدر غلام، يرافقه وكيل أردني الأصل، أشقر الشعر وخفيفه مع صلعة دائرية، متوسط الطول وكبير البطن، عسلي العين، يحمل هراوة سوداء في يده أخذها من أحد المرتزقة، له لهجة بدوية واسمه يوسف، بدأ الوكيل يوسف بترتيب الصفوف ولبس قفازات بيضاء، لأنَّه كان يتقزَّز من لمسنا، وكأنَّنا حشرات أو جراثيم، مع نظرات الاستهزاء والاستكبار.

لكن المفاجأة كانت في طريقة العدّ، حيث كان يجبر السجناء على الوقوف له للعد فردًا فردًا مطأطئي الرأس إلى الأرض، بينما يمرّ الوكيل يوسف عديم الإنسانية ويقوم بضرب السجناء على أعناقهم وهو يعدّهم، كانت ضرباته عنيفة يسمع صداها وسط هدوء قاتل يسيطر على الساحة، حتى تعب الوكيل يوسف، وآلمته يده من ضرب كل هذا العدد من السجناء على رقابهم.

عندها نادى وكيل أردني آخر اسمه (سند)، وأكمل العدّ بالطريقة نفسها وبشكل مؤلم أكثر، انتهى من عدّ السجناء بالصفوف، ثم توجه ناحيتنا لعدّ المصابين الممددين في مقدمة الساحة، وكان عددهم حسب ما سمعت 84 شخصًا.

حان الآن موعد جمع العدد، والحصول على المجموع النهائي، والكل يترقب في صمت لمعرفة هل هرب أحدهم أم لا؟! وكانت النتيجة كما توقعت.

الوكيل يوسف: المجموع 1011 أي إنَّ هناك خمسة إضافيين في العدّ.

قالها وعلامات الكآبة على وجهه، أما أنا فلم أستطع كتم ضحكتي، وإن كانت خفية، وأنا أقول في نفسي: لن تحصلوا على العدد الصحيح حتى يحلب التيس ويبيض الديك.

كانت عملية العدّ متعبة جدًّا لهم، وكلَّفتهم وقتًا طويلًا وهو أمرٌ لا بُدَّ منه، وأعاد الوكيل يوسف العدّ، لكنَّه ايضًا لم يفلح.

فأعاده مرة ثالثة بإشراف مسؤول النوبة مصطفى حيدر غلام، واستقروا على 1009 سجين، أي ثلاث سجناء إضافيين في العدّ. يئس الوكيل يوسف ومن معه من العدّ، وخرجوا من الساحة يجرّون أذيال الخيبة، وخصوصًا أنَّ الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

لحظات وعاد الوكيل يوسف مسرعًا كمن وجد ضالّته، ووقف في منتصف الساحة صارخًا: يا شباب، إن كان هناك أيّ شخص من مبنى (3) موجود هنا فليخرج، وأنا أضمن له أنه لن يمسّه أحد أو يُعتدى عليه بالضرب.

يا لسخرية القدر من أثخن رقابنا بالضرب أصبح الآن الصادق الأمين! وهو لا زال واثقًا من نفسه بأنَّه عدّ بشكل

صحيح، وأنَّ الخطأ ليس منه؛ بل إنَّه يوجد دخلاء بين سجناء المبنى! لربما انتقل أحد من مبنى (3).

لكنني واثق أنَّ هؤلاء لن يضبطوا العدّ ولو بزغ الفجر علينا .

صرخ في غضب وخيبة: إن لم يخرج الآن، وأتينا بكشف الأسماء، وتعرفنا عليه لاحقًا فسيلقى عقابًا ينسيه حليب أمه. ثم انسحب من الساحة مجددًا.

في هذه الأثناء أعاد مسؤول النوبة مصطفى حيدر غلام ترتيب الصفوف وتوزيعها بالتساوي في العدد، وعدَّ السجناء بنفسه من دون مساعدة أحد، والنتيجة كانت أنَّ العدد صحيح! تكلَّل وجه مسؤول النوبة بالفرحة بعد ساعات طويلة من العد، وارتحنا بدورنا نحن من عملية العد المذلة وتعبها، ونجح (مصطفى حيدر غلام) في ذلك بسبب خبرته الطويلة في السجن، التي تتعدّى العشرين عامًا.

نعم كان العدد صحيحًا، لكنَّنا لم نرتح، ولم يكن ظننا في محله، فما إن انتهى العد حتى بدأ فصل جديد من فصول الإمعان في الإذلال والإهانة.

تقدم الوكيل يوسف إلى منتصف الساحة، تعلو وجهه ابتسامة خبيثة، ممسكًا هراوته السوداء بيده اليمنى، ملوحًا بها للفت انتباهنا قائلًا: الآن أريد أن أسمع منكم صوتًا

يهزُّ المكان بترديد شعار (عاش عاش بو سلمان) عاش عاش من؟! ردَّ بعض الذين كانوا قربه بصوت منخفض: بو سلمان.

صرخ الوكيل: ما هذا الصوت! أريد أن أسمع الجميع يُردِّد، وإلَّا سألقنه درسًا لن ينساه، راقبوهم. وهو يشير لأفراد قواته المرتزقة.

ضجَّ الناس خوفًا من إرهابه بترديد الشعار، والوكيل يصرخ فيهم: أعلى أعلى! هم أرادوا من ترديد الشعار كسر عزيمة المعتقلين السياسيين وإذلالهم لمعارضتهم النظام والملك، ولكن الشعار تحول إلى مناسبة للسخرية والضحك، فبعض السجناء كانوا يقولون بصوت منخفض جدًّا: مات.. مات. وثم يرفعون صوتهم بقول: بو سلمان.

والبعض الآخر كان يقول: عاش عاش علي سلمان. قاصدين بذلك زعيم المعارضة وأمين عام جمعية الوفاق.

كانت هذه الأصوات لا تُسمع مختلفة عن الأخرى بسبب الصوت العالي والمساحة الكبيرة والصدى، وقد تعمَّد السجناء فعل ذلك، لأنَّه لا بُدَّ أن تردّد شيئًا أو تحرك شفتيك، فالصمت هنا سيجرّك إلى الوقوع تحت سطوة إرهابهم وعدم إنسانيتهم.

بينما يجوب قائد كتيبة قوات الشغب المرتزقة الصفوف بهراوته السوداء باحثًا عن ضحية لا تردّد الشعار، إذ وقعت

عيناه على رجل متقدم في العمر، ضعيف البنية ومتوسط القامة، جالسًا في هدوء، فأسرع إليه كمن رأى كنزًا، وسحبه إلى مقدمة الساحة من ثيابه راجيًا أن يكون ضحية يعتبر بها باقي السجناء في حال عدم ترديدهم لشعار (عاش عاش بو سلمان) والمفاجأة أنَّ ذلك السجين كان (أبو محمد) نفسه، الذي كان جالسًا مع المعلّم قبل دقائق من هجوم قوات الشغب المرتزقة.

سحبه قائد الكتيبة بعنف إلى مقدمة الساحة، ثم حاول الإطاحة به أرضًا، إلَّا أنَّ قائد الكتيبة سقط هو الآخر أيضًا على أبي محمد، ممَّا جعل مرتزقة الكتيبة يستنفرون ويسرعون إلى قائدهم، ظنًّا منهم أنَّ سقوطه كان بسبب مقاومة أبي محمد، فاجتمعوا عليه كالكلاب الشاردة يوسعونه لكمًا وركلًا وضربًا بالهراوات.

وقف قائد الكتيبة في موقف خسيس دنيء، ووضع حذاءه على خد أبي محمد، وقال له: ردّد شعار عاش عاش بو سلمان يا كلب الآن.

فأجابه أبو محمد إجابة مباشرة أثارت الضحك بين السجناء: وهل نحن في حضانة الأطفال لكي نردّد هذا الشعار؟!.

أجابه قائد الكتيبة: اخرس، تريد أن تسخر منَّا يا حيوان!! ستردّده رغمًا عن أنفك خذ!!. وقد استشاط غضبًا وغدا

يركل أبا محمد في وجهه، وهو يحاول حماية وجهه بيديه دون فائدة، حتى سالت الدماء من وجهه، هذا والسجناء الذين كانوا قرب أبي محمد يخاطبونه: ردّده، إنَّه ليس أكثر من لقلقة لسان. ويتوسلون لقائد الكتيبة: ارحموه إنَّ جسده ضعيف، سيموت بين أيديكم.

قائد الكتيبة: فليمت ليكون عبرة لمن يخالف الأوامر، ولا ضير إن مات فلدينا الضوء الأخضر في ذلك.

لم ينثني عزم وصمود وثبات (أبي محمد) عن موقفه؛ بل إنَّه رغم كل هذا الضرب الوحشي لم يصرخ أو يئن متألمًا، حتى تدخل أحد شرطة الإدارة، وأوقف قوات المرتزقة وقائدهم عن ضرب أبي محمد، فرموه وسط الجموع جثة هامدة مكسرة الأضلاع مهدّدين إيَّاه بالمزيد من العذاب والضرب.

هذا الموقف كان أول بذرة معارضة لتجبّر هؤلاء المرتزقة وإرهابهم ووحشيتهم، ورغم كونه فرديًّا إلَّا أنَّه هزّ كيانهم وهيبتهم، وأشعرهم بأنَّ هناك ردّة فعل قد تحدث.

بعد أن تحول ترديد شعار (عاش عاش بو سلمان) إلى سخرية واستهزاء وضحك، أوقف الوكيل السجناء من ترديده، فهدفه كان إذلال السجناء، ولم يصل إلى مبتغاه.

وانتقامًا وتشفِّيًا أمر أفراد قواته المرتزقة بتضييق الخناق

علينـا، فـلا عيـن تغـطّ للنـوم، ولا يـد تنزل عـن الرأس، ثـم هـمَّ بالانصراف للاستراحة.

قـرب البـاب استوقفه أحـد كبـار السـن قائـلًا: حضـرة الوكيـل، لـو سـمحت رحـم اللـه والديـك، أريـد بعضًـا مـن المـاء، لقـد جفّ ريقـي، وأنهكنـي العطـش، ولـم أذق طعـم المـاء منـذ سـاعات، وأنـا مريـض بالسـكري.

ردَّ عليـه الوكيـل: مـاء؟ لـم تطلـب شـيئًا، سـآمر أحـد الأفـراد بـأن يأتيـك بالمـاء. قالهـا بهـدوء مبتسـمًا ابتسـامة خبيثـة، هامسًـا فـي أذن أحـد المرتزقـة، منصرفًـا معـه لحظـات، وعـاد المرتـزق وبيـده ثـلاث قنـانٍ مـن المـاء الـذي تجمعـت قطـرات النـداوة والرطوبـة حولـه لشـدّة برودتـه، أعطـى المرتـزق أحـد زملائـه قنينـة، وجـاء للكهـل وبيـده قنّينتـان، فتهلـل وجـه السـجين فرحًـا لرؤيـة المـاء ظنًّـا بأنَّهـم قـد وفـوا بوعدهـم، إلَّا أنَّ المرتـزق مـا إن وصـل إلـى الكهـل حتـى سـكب المـاء علـى رأسـه ضاحـكًا وهـو يقـول: اشـرب يـا لعيـن، اشـرب يـا كلـب، هـذا المـاء الـذي طلبتـه منَّـا، أو تظـن أنَّـا نعمـل لديـك لنأتيـك بالمـاء؟!

نكَّـس الكهـل رأسـه مـن عظـم المذلَّـة والإهانـة، وصـار يرتجـف مـن شـدَّة بـرودة المـاء المسـكوب عليـه، وسـط هـذا الجـو البـارد جـدًّا وهـو يقـول: إنَّـا للـه وإنَّـا إليـه راجعـون، لا حـول ولا قـوَّة إلَّا باللـه العلـي العظيـم، حسـبنا اللـه ونعـم الوكيـل.

ثم صرخ المرتزق في الجمع قائلًا: مَنْ منكم عطشان أيضًا؟ لديَّ ماء بارد، من منكم عطشان؟!. فرفع أحد المساجين قربي يده واقعًا في فخّه، فتح المرتزق القنّينة ورشها عليه وعلى الأشخاص الذين حوله فأصابني معه، والمرتزق يضحك بشكل هستيري ويقول: أما الآن، من يريد النوم؟ لديَّ ماء بارد سيجعل من تغفو عينه يصحو بشدَّة.

كنَّا نرى في الماء البارد في يده حاجة ماسَّة تروي عطشنا، فتحول إلى عذاب نازل على رأسنا كالصاعقة وسط هذا الجو البارد، حارمًا إيَّانا من النوم الذي اشتاقت إليه أجفاننا بعد يوم متعب مأساوي أنهك أبداننا وعذَّب أجسادنا، يومٌ رحت أتأمل فصوله مستذكرًا ما حدث، متأملًا عواقبه، والناس كيف كانوا فيه، رحت أعاين الجموع وقلت في نفسي: يمكنني تقسيم الناس فيه إلى عشرة أصناف:

الأول: أشعل شرارة الحدث بشكل عفوي بحت لغضبه على ما حدث في مبنى الزيارات مع عائلة أبو هاجوس، دون أن تتبيَّن حقيقة الأمر له، إنَّهم الشبَّان الثلاثة الذين هجموا على الكونتر.

والثاني: كان مخابراتيًّا عميلًا للإدارة، استغلَّ الظروف ووجوده في الكونتر، وصبَّ الزيت على النار، وساهم في ازدياد لهيبها لهدف واضح أرادته إدارة السجن منذ وقت طويل، وهو الذي بدأ بإغلاق الباب والتكسير.

والثالـث: انجرَّ وراء الصنف الأول والثاني لمصالح وغايات شخصية مريضـة، لا لغيـرة أو غضـب؛ بـل لحصـد الغنائـم مـن أقراص دواء الأعصاب وغيرهـا مـن الأمـور.

والرابـع: كان ذو تاريـخ جهـادي نضالـي فـي السـاحة الميدانيـة، إلَّا أنَّـه كان حطبًـا لاسـتمرار اشـتغال النـاس بتأثيـره السـلبي علـى الأوضـاع والدفـع نحـو المشـاركة فـي الحـدث باسـم الثـورة والحقـوق.

والخامـس: لـم يـرَ صحـة مـا يحـدث، وحـاول ثنـي الصنـف الرابـع عـن قناعتـه، والسـعي معـه لتهدئـة الوضـع واحتوائـه قبـل انفلاتـه، لكنَّـه بـاء بالفشـل.

والسـادس: انجـرَّ وراء المـوج، وأخذتـه الريـاح، وكـان حشـرًا مـع النـاس، مسـوغًا لنفسـه أنَّنـا سـنلقى المصيـر نفسـه فـي النهايـة، فـلا ضيـر إن كنَّـا أحـد فصـول الحـدث، وإن كـان للمـرح فقـط!

والسـابع: ظـلَّ يراقـب الحـدث عـن كثـب دون أن يشـارك فيـه.

والثامـن: كان يوثـق الحـدث بدقـة عبـر كاميـرات الهواتـف المهرَّبـة، ويرسـل الصـور والمقاطـع المرئيـة إلـى وسـائل التواصـل الاجتماعـي.

والتاسـع: لـم يشـارك أو يـرَ شـيئًا حتـى؛ بـل جلـس فـي

الغرفة متهيئًا لمصيره، ومعظم هذا الصنف قد لبسوا ثيابًا خشنة نتيجة توقعهم لما سيحدث.

العاشر: وهو الأخير لم يكن في المبنى؛ بل كان في التحركات الداخلية (ورش، زيارات، إدارة) أو خارجية (مستشفيات، محاكم، نيابة) وجيء بهم ليلًا إلى الساحة في النهاية.

ولا صنف من هذه الأصناف العشرة سلم من العذاب والتعذيب والذلّ والإهانة، لأنَّ (خليفة بن أحمد) رئيس مديرية شرطة المحافظة الجنوبية، ومن خلفه وزير الداخلية أصرّ أنَّ: (الشرّ يعمُّ، والخير يخص).

وقد عمَّ الشرّ الأبرياء قبل المدنيين، لكن ما هي حصيلة هذا الحدث يا جهاد؟! لا أقصد الخسائر المادية لأنَّها تعوّض، والنظام سيبالغ فيها، بل أقصد هؤلاء الممدّدين حولي من العصر يئنّون ويتألمون ولا يجدون أيّ علاج لهم، إنَّها الخسائر البشرية.

تصفحت وجوه وحالات المصابين لدقائق، كان عددهم حسب ما سمعته من (الوكيل يوسف) أثناء العدّ مرارًا 84 شخصًا، فوجدت أنَّ 17 منهم قد أصيبوا إصابات بليغة في الرأس، صُبغت إثرها وجوههم بدمائهم الحمراء.

و37 منهم يئنون من ضلوع وعظام مكسورة في الأرجل والأيدي والصدر والظهر.

و28 منهـم أصيبـوا بجـروح عميقـة فـي أجسـادهم بسـبب استعمال قوات المرتزقـة الهمجية أعمدة مـن حديد، متعرِّجة السـطح، وألواحًـا خشـبية فيها مسـامير.

وأربعـة أشـخاص منهم قـد أصيبوا بالرصاص الانشـطاري (الشـوزن) الأول فـي كلتـا يديـه، والثانـي في ظهـره، والثالث في أعضائـه التناسـلية، والرابـع فـي فخـذه، وهـو الجالـس بجانبـي وأصبـح عاجـزًا عـن المشـي.

وأمـا مـن يعانـي مـن الرضـوض والكدمـات والإصابـات البسـيطة والمتوسـطة، فيجلـس فـي الصفـوف أمامـي المئـات مـن هـؤلاء فـي منتصـف السـاحة، دون أن يتلقّى أحـد منهـم أي علاج.

قطـع تفكيـري كلام أحـد الشـباب بالقـرب منـي، إنـه أبـو غايـب الـذي شـاهدته سـابقًا فـوق المبنـى، وهـو يرتجـف مـن البـرد: متـى يتنفـس الصبـح ونتخلَّـص مـن هـذا البـرد القاسـي وتعذيـب هـؤلاء الوحـوش؟

أجبتـه: عذاب البرد سـنتخلص منه بطلوع الشـمس، ولكن عذاب هـؤلاء الوحوش لـن ينتهي غدًا.

ردَّ علـيَّ: لمـاذا؟! ربمـا سـيعيدوننا إلـى داخـل المبنـى صبـاحًـا.

قلت: لا أتوقع ذلك أبدًا، فربما أنَّهم سيبقون علينا أيامًا هنا.

أجابني: لا، لا تقل ذلك، إنَّ ذلك غير ممكن، كيف سنعيش أيامًا في هذه الساحة؟! لا يمكن ذلك، تفاءل يا جهاد، إنَّ الرسول الأكرم (ص) يقول: «تفاءلوا بالخير تجدوه».

أجبته: أتمنى ذلك، ولكن الوضع ينبئ بأنَّ الأسوأ قادم.

الله أكبر، الله أكبر. إنَّه صوت أذان الفجر قاطعًا كلامي، وسط تعجبنا أنا وأبو غايب، «كيف مرت 12 ساعة في العراء بلمح البصر»، بثقل هائل جدًّا، قلتها لأبي غائب.

فأجابني: نعم لقد مرَّت ثقيلة سريعة!! أتمنى أن يكون الغد أفضل من الأمس.

فأجبته: إنَّه لناظره ليس ببعيد، أليس الصبح بقريب؟!

- 17 -

الوحش يبتكر عذاباته

11 مارس/آذار 2015

وهل هناك ما يتبدَّل بين ليلة وضحاها؟ الشروق لا يأتي بغتة ولا الغروب! لكنَّنا سمعنا أذان الفجر بغتة، يا إلهي كيف مرَّت اثنتا عشرة ساعة من العذاب! اجترح فيها هؤلاء الوحوش المآسي بلا رادع ولا مبالاة، وها هم يسمعون نداء الحق (الأذان) ولا يتّعظون من محتواه.

الله أكبر يا أُناس استيقظوا من سكرتكم يا ظلَّام، لكنَّهم كانوا كالأصنام، لا يسمعون ولا يعقلون، مصطفّين أمامنا حاملين دروعهم بيسراهم وهراواتهم بيمناهم، مرتدين خوذهم البيضاء على رؤوسهم وقد أمست خاوية من العقول، كآلات تتحرك حسب الأوامر، بلا ضمير ولا مشاعر ولا أحاسيس.

رُفع الأذان وخاف السجناء من الصلاة بحضرة

الوحش، فالجزاء سيكون جحيمًا وعذابًا، بل إن الكثير منهم لا يستطيعون القيام للصلاة بسبب حدث أو خبث لم يستطيعوا رفعه لحرمانهم من الماء، فلم يتطهَّروا ولم يتوضؤوا، فكيف يحرزون الطهارة، فقد قامت الصلاة، لكن القليل منهم كان يعلم أنَّ كل ذلك لا يسقط الصلاة، فوقفوا متحدّين صنم السلطان، وشرعوا في مناجاة الرحمن، وكانوا بعدد الأصابع، لكنَّهم في موقفهم شكَّلوا جيشًا جرارًا من الأحرار رغم الأخطار!

بزغ الفجر في الأُفق اللامتناهي، وأشرقت الشمس هاتكة ظلام الليل الدامس، طاردة برده القارس الذي فتك بأجسادنا، لكنّ لم تلبث سعادتنا بقدوم الشمس سوى ساعات، حتى تحولت إلى جحيم لا يطاق وحميم يحرق الأبدان. كان هذا هو حال الطقس في شهر مارس/ آذار، صقيع قارس في الليل وجحيم حارق في النهار، ولا عزاء لمن يقضي ليله ونهاره في العراء.

كان السجين (أبو غايب)، يجلس بعيدًا عن الجموع منكسًا رأسه، والأرض مبللة حوله، لم تكن الرطوبة ماء، ولا أظنه تبول في ثيابه، فهو مبلل من شعر رأسه إلى أخمص قدميه، تساءلت في داخلي: ماذا حدث يا ترى؟! اقتربت منه وسألته هامسًا فأجابني: ألم تسمع الصراخ وقت الأذان؟!

لـم أكـن ملتفتًـا حينهـا، لقـد جعلوه يتدحـرج في المسـتنقع الـذي تكـون فـي الجـزء الخلفي للسـاحة مـن البـول والغائط!

صرخـت مسـتنكرًا: يـا إلهي، مـن أيّ جنسٍ هـؤلاء، من أيّ ديـن هـم؟! لـم يحترمـوا نـداء الخالـق، ولا ضعـف المخلوق. آه، آه قلتهـا بانكسـار وحرقـة، لهـذا جلس أبو غايـب بعيدًا عن السـجناء لئلَّا يتقزّزوا مـن رائحته، منكسًـا رأسـه إلـى الأرض مـن عظـم المذلّـة، وكأنَّـه يخاطبها قائـلًا: انشـقّي وابلعيني!!

فجـأة، وعلـى حيـن غـرّة أفزعنـا ارتطـام شـيء قريـب جـدًّا منًّـا بـالأرض! إنَّـه صـوت هـراوة أحـد المرتزقـة!

(اخرسـوا.. الحديـث ممنـوع يـا أبنـاء الــ....، مـن يتحدث أو يهمـس بكلمـة سـأجعله يعـضّ أصابعـه ندمًـا.. ولا نفس!) قالهـا أحـد المرتزقـة الباكسـتانيين، وقـد تسـلَّل قربنـا بعـد أن لمح تهامسـنا.

بعدهـا احتجنـا عـدّة دقائـق ليهـدأ خفقـان قلوبنا، ونسـتعيد أنفاسـنا المخطوفـة إثـر تلك الصدمـة، كنَّا نترنّـح تعبًا من الألم الناتـج عـن وضـع أيدينـا علـى رؤوسـنا، مـا أفقدنـا الإحسـاس بفقـرات ظهورنـا، وصرنا نلتهـب من فرط حرارة سـوط لهيب الشـمس الحارقـة علـى الإسـفلت الـذي كان بمثابـة المقـلاة التي تشـوي أجسـادنا.

سـقط الكثيـر مـن السـجناء مغمًـى عليهـم بسـبب أشـعة الشـمس الحارقـة، وكان أحدهـم (سـيِّد هاشـم) أحـد معتقلي

(المنامة) مصاب بمرض تكسر الدم (السكلر)، ممَّا زاد معاناته بشكل فظيع، كان ينتفض ألمًا ويئن أنينًا يقطّع القلوب صارخًا: أغيثوني قبل أن أموت، خاطبوهم لا أستطيع التحمُّل سأموت.

كان أفراد قوات الشغب المرتزقة يسمعون صراخه دون أن يحركوا ساكنًا؛ بل كانوا عندما نتوسل إليهم لمساعدته يجيبونا: هل نصّبك أحد محاميًا عنه؟ اهتم لحالك فقط! سيموت؟ دعه يموت!

عند مدخل الساحة، حضر شخص بثياب مدنية، طويل القامة وقوي البنية، شديد السمرة وأصلع الرأس، يدخن سيجارة بعصبية واضحة! إنَّه الملازم الأول عبدالله عيسى -أحد ضباط الإدارة- حضر ومعه عدد من شرطة الإدارة من المبنى الآخر، لم يدخل الساحة؛ بل اكتفى بمعاينة الوضع من بعيد، حتى لا يسمع سؤالًا من أحد! تكلم مع شرطة المبنى وانصرف وحده، ليدخل باقي الشرطة للبحث عن السجناء المسؤولين عن توزيع الطعام! لم يجدوا إلَّا شخصين، وأما الباقين فقد أخذوهم مع قائمة الموت والانتقام.

نخج وحليب! إنَّها أول وجبة بعد يوم كامل كانت فيه أمعاء السجناء خاوية، لكن لم يبال معظمهم بقدوم الطعام، ليس لأنَّهم ليسوا جائعين، فالمعاناة ليست في الأكل؛ بل في التخلص من الفضلات والحاجة إلى الحمام لاحقًا!

الكل كان يقول: هل هو عذاب آخر؟! نأكل ثم ماذا؟ ونحن نعلم أنَّهم لن يسمحوا لنا بالذهاب إلى الحمام! اكتفى معظم السجناء بشرب الحليب فقط عوضًا عن الماء الذي لم يذوقوا طعمه طوال يوم كامل.

ليس السجناء وحدهم الذين كانوا يعانون من الحرّ الشديد؛ بل حتى قوات المرتزقة، فقد كانوا يتناوبون في الاستظلال تحت أحد الأسوار، هاربين من أشعة الشمس الحارقة.

بعد إلحاح السجناء، وبعد وجبة الفطور، سمح أحد ضباط الدرك الأردني بنقل بعض المرضى الذين أغمي عليهم وكبار السن للجلوس تحت ظل أحد الأسوار، وأخذ عددًا من الشباب إلى داخل المبنى، وعادوا بمجموعة من قناني الماء التي تمّ أخذها من الغرف، وقال الضابط مهددًا: كل أربعة أشخاص قنينة ماء واحدة، ولا داعي للصراخ والإزعاج، وإلَّا سأسحب الماء! فبعد افتقادنا للماء يومًا كاملًا، كنَّا نشعر بلذة شديدة في طعمه، طعم آخر كأنَّنا لأول مرة نشربه!

اقترب أحد الشباب الذين يوزّعون الماء منِّي فهمست له: كيف المبنى؟

أجابني إجابة قصيرة دون أن يحرك رأسه: محطم كأنَّه خربة! قالها ومضى ليكمل توزيعه للماء. وفي الحقيقة

كنت قد توقعت ذلك، أن يتمّ تخريب المكان بالكامل واتهام السجناء بذلك.

فيما يشبه صمت المقابر، مرَّ نهار الأربعاء طويلًا قاسيًا، يتخلله صراخ وأنين وبكاء أشبه بالنواح خلف الجنائز. غابت شمسه بعد عملية عدّ مذلّة للسجناء لا أفهم سببها، فنحن منذ أكثر من يوم لم نتحرك من مكاننا؛ بل إنَّنا لم نغيِّر هيئة جلوسنا، حتى أعيننا قد حفظت تضاريس الإسفلت من كثرة النظر إليه، وأيدينا قد التحمت برقابنا من طول أمد وضعها عليها.

أسدل الليل ظلامه، وكان برده علامة الوحشة والقسوة، عذابٍ لا يعلم مُرامه، لا زال الحديث ممنوعًا والحمام، والنوم أيضًا، ثم بدؤوا معنا جلسات تحقيق حول الهوية! (سنّي أم شيعي؟!) وأخرى حسب القضية، فجعلوا يستهدفون السجناء السياسيين، ويتركون غيرهم ممن سرق أو اغتصب أو احتال على الناس؛ بل نصّبوا محكمة عنجهية وتقمّصوا دور القاضي بلا محامٍ، وأصدروا أحكامًا فورية بربرية، كان أحدهم ضابطًا بحرينيًّا يرتدي قناعًا؛ طويل القامة وقوي البنية، يجوب الساحة كالذئب الجائع بحثًا عن ضحية.

استوقفه (أبو غايب) الجالس بجانبي مناديًا إيَّاه: حضرة الضابط تكاد أمعائي تنفجر، أريد الذهاب إلى الحمام.

أجابه الضابط بهدوء: لا بأس قم معي!

استبشر (أبو غايب) كمن جاءه خبر الإفراج فجأة! ذهب مع الضابط ماشيًا، لكنَّه عاد متألمًا بخطوات متعثرة، يعرج في مشيه، فسألته بمجرد وصوله: ماذا حدث يا أبا غايب؟ هل ذهبت إلى الحمام؟

أجابني بحسرة وألم: لا، لقد خدعني اللعين، في الطريق سألني عن حكمي، فأجبته من فرحتي إنَّ حكمي 20 سنة، فابتسم بنشوة المنتصر، لكنَّه لم يأخذني إلى الحمام؛ بل أخذني إلى المكتبة قرب الحلاق الشمالي، وطلب منِّي الانتظار هناك، وكانت خالية من الكتب، وجدرانها ملطخة بالدماء، هيأتها لا تنبئ بخير قادم، دقائق وعاد الضابط ومعه ثلاثة من المرتزقة، كل واحد منهم أطول من الآخر، فانقبض قلبي، وأشار بيده إليَّ وقال لهم: هذا من كسَّر المبنى.

كلمات كانت كالصاعقة التي نزلت على رأسي، وهم يسألونه: كيف؟! أأنت متأكد؟!

أجابهم: نعم، لو لم يكن هو لما حكموا عليه بالسجن لمدة 20 سنة؟!

هزّوا رؤوسهم مقتنعين بكلامه، وانقضّوا عليَّ يضربونني بهراواتهم بوحشية وقسوة على ظهري وقدميّ، حتى ركلوني خارجًا، وجعلوني أهرول إلى هنا، آه يا جهاد، إنَّ رجليَّ تؤلمني بشدّة! قالها وهو يمسح على رجليه المتورمتين.

دنوت منه قائلًا: حسبي الله ونعم الوكيل، تصبّر يا أبا غايب، للباطل جولة وللحق دولة.

وبينما كنَّا نتحدّث سمعنا ضوضاء وضجة قرب الباب الفاصل بين الساحتين! والمفاجأة كانت البطانيات، جلبها عدد من الشباب بأمر من أحد ضباط قوات الشغب المرتزقة، قال له الوكيل يوسف: كل ثلاثة أشخاص في بطانية واحدة، إن رأيت أحدًا بلا بطانية سأسحبها كلها منكم.

قسّمت البطانيات بين السجناء بشكل عشوائي، حصل البعض على بطانية لوحده، وبقي البعض دون أيّ بطانية، كان الكل يهفو إلى ذلك الغطاء ذي اللون الترابي المائل إلى البني ليحتمي مع صاحبه من البرد القارس.

كان الكل متلهفًا لتغفو عينه تحتها، فالجميع منهك ومتعب، محروم من النوم لأكثر من 30 ساعة، لكن العقليات الوحشية عند ضباط الدرك الأردني حالت دون ذلك، فلقد ابتكروا عذابًا خبيثًا حقيرًا فريدًا من نوعه، وأجبرونا على النوم في وضعية الجلوس، وانتظروا أعيننا لتغفو ليصرخ ضابط الدرك الأردني ذو النجمتين بأعلى صوته:

(اصحوووووو) آمرًا المرتزقة بإرعاب وإفزاع السجناء عبر ضرب هراواتهم بالدروع، تزامنًا مع صرخاته، ليس ذلك فقط.

الضابط الأردني: عندما أصرخ اصحوووو تردّون: صاحين صاحين.

فردَّ الناس بذلك، وكان الضرب يطال كل من غرق في أحلامه، مالت عيني للنوم وشعرت بالنعاس، لكنني حاربت استسلام جفوني للتعب، فالنوم هنا قد يوقعني في فخهم!

فجأة، دخلت الساحة كلاب ضخمة، يقودها عدد من الشرطة، تنبح بشراسة، تكاد تنهش كل من حولها، تهجم على كل من ينظر إليها، لها زفير كزفير جهنم، كانت مرعبة حقًّا، جعلتني أحبو مبتعدًا عنها على ركبتي لئلَّا يراني المرتزقة خائفًا منها، لكن انقطع رباط أحدها، وراحت تعدو باتجاهي بسرعة البرق، حتى هجمت عليَّ تنهش لحمي! وتشرب من دمي، وتقطّع أوصالي إربًا إربًا، وأنا أشهق شهقات الموت وأصرخ في ذروة من الأنين والألم.

- 18 -

مجزرة الحلاقة!

12 مارس/آذار **2015**

«آه، آه، أبعدوها قبل أن تقتلني» قلتها صارخًا.

فناداني أبو غايب: جهاد جهاد استيقظ قبل أن يسمعوا صراخك، ويكتشفوا أنَّك كنت نائمًا.

استيقظت وأنا أتصبب عرقًا، وأدركت أنني في حلم: «آسف يا أخي، كان كابوسًا مرعبًا». كانت أنفاسي لا زالت تلهث وتتسابق، وقلبي يرتجف رعبًا من هول ما رأيت، كان إنذارًا وتحذيرًا لمصيبة قادمة يخبّئها لنا القدر، مصيبة لاحت مع شروق شمس بلا شعاع، برتقالية، تبتلع الظلام بصعوبة بالغة، وكأنَّ شيئًا يجرّها من المجهول حتى لا تبزغ، معلنة بداية اليوم.

بدأ اليوم بدخول وكيل أردني عبوس الوجه، أفطس الأنف، كثيف الشعر، متوسط القامة، معتدل الجسم

اسمه (مِحْجِم) إنَّه اسم بدوي ويتحدث بلهجة بدوية، دخل الساحة من الباب الفاصل بين الساحتين تعلو وجهه ابتسامة خبيثة قائلًا: «بأمر من الإدارة الكل على الصفر». قاصدًا بذلك حلق شعر رؤوس السجناء تمامًا.

استدعى (الوكيل محجم) السجين المسؤول عن صالون الحلاقة، واسمه أسامة مع شخص آخر لتنفيذ الأمر مباشرة، لكن كانت هناك مؤامرة تُحاك.

فبينما يختار الوكيل محجم عددًا من السجناء بشكل عشوائي، كان رئيس عرفاء (صفة يضع صاحبها سيفًا على الكتف) أبيض البشرة وأشقر الشعر، جالسًا على كرسي بعيدًا عن المخرج المؤدي إلى الساحة قرب المسجد، ينتظر إشارة الوكيل محجم، لاستدعاء قوات الشغب المرتزقة.

لحظات وسمعنا دويّ صراخ إخواننا السجناء من ممر صالون الحلاقة، صرخات وآهات مرعبة تخترق القلوب بصدى مرتفع. ذلك الممر الذي كنت أستحسنه قبل أيام، أصبح شبحًا مرعبًا الآن.

خرج من ممر صالون الحلاقة أحد المرتزقة يلتفت يمنة ويسرة، يبحث عن ضحية حسب الهوية والقضية، لن أنسى شكله ما حييت، كان طويل القامة، نحيف الجسم، معتدل البنية، ينظر شزرًا كأنَّه كلب جائع، ومن سوء حظي وقعت عيناه عليَّ، فأشار إليَّ وقال: أنت! قم!

كان لـديَّ بصيص أمل بأنِّي لـم أكـن المقصـود، فالتفـت إلـى مـن حولـي، فصرخ علـيَّ: يـا ابـن الــ.....، قـم أقصدك أنـت، لا تكـن أبلـهَ.

قمـت باسـم اللـه وحولـه، وقلبـي يشـمُّ رائحـة المـوت، لـم أصـل إلـى البـاب الفاصـل بيـن السـاحتين، حتـى غـدا يسـحبني مـن ثيابـي، ويدفعنـي إلـى الممـر، جدرانـه ملطخـة ببقـع الدمـاء، رائحتـه أشـبه برائحـة المسـلخ، فيـه اثنـا عشـر كلبًـا مـن الـكلاب البشـرية، يحملـون فـي أيديهـم الهـراوات منقسـمين إلـى صفيـن، 6 علـى اليميـن و6 علـى اليسـار، علـى امتـداد الــ 30 متـرًا المؤديـة إلـى الحـلاق، رأيـت مشـهدًا ذكرنـي مباشـرة بالكابـوس الـذي رأيتـه البارحـة، شـاب يزحـف علـى ركبتيـه والمرتزقـة الاثنـا عشـر يوسـعونه ضربًـا، نعـم هـذه هـي الـكلاب التـي رأيتهـا فـي الكابـوس، هـذه هـي الـكلاب التـي سـوف تنهـش لحمـي وتشـرب مـن دمـي الآن.

طلـب منـي مرتـزق الـدرك الأردنـي الـذي سـحبني إلـى الممـر الاسـتلقاء علـى بطنـي، فلـم أسـتجب لـه، إلَّا أنَّـه ركلنـي بقـوة علـى رجلـي، فسـقطت أرضًـا علـى وجهـي، أتبعهـا بـركلات علـى مؤخرتـي وهـو يصـرخ: ازحـف يـا لعيـن، ازحـف يـا كلـب. وأنـا أتلـوَّى مـن شـدّة الألـم.

زحفـت مكرهًـا مـن عـذاب ركلاتـه لعـذاب الـكلاب الأخـرى التـي أمامـي، فواحـد رفـع هراوتـه كمـن رفـع فأسًـا لتقطيـع الخشـب، وأنزلهـا علـيَّ قاصمًـا ظهـري.

وآخر كان واقفًا كمن يستعدّ لركل كرة في ضربة ترجيحية راكلًا وجهي بحذائه الخشن، وهو يقول: خذ يا خائن، خذ يا إرهابي.

وثالث يمشي على ظهري، وأنا أحاول الوصول إلى نهاية الممر للتخلص من هذا الجحيم، رأيت الموت بعيني ولم أمت.

وصلت إلى نهاية الممر وأنا كالجثة الهامدة، لكن ذلك لم يرحمني، كان هناك صف للانتظار عند نهاية الممر، يقف عنده أحد المرتزقة، ولم يكفه كل العذاب الذي جرى علينا؛ بل راح يوسعنا لكمًا وركلًا بوحشية وهمجية، حتى جاء دوري للحلاقة، وسحبني الوكيل محجم من شعري، ضاربًا إياي على رقبتي قائلًا للحلاق أسامة: لا تنسَ أن تحلق لحيته أيضًا، على الصفر.

كانت يد (أسامة) ترتجف وهو يحلق رأسي، وأنا أرتجف من وطأة العذاب الذي وقع عليَّ، أتمَّ (أسامة) حلاقة شعر رأسي تمامًا، وحلق لحيتي، ثم همس لي: سامحني يا أخي.

أجبت: لا عليك.

في الممر استعدَّ المرتزقة لخروجي من الحلاق، ماسكين هراواتهم بهيئة تشبه هيئة استعداد لاعبي البيسبول لاستقبال الكرة، وقفت عند الباب حائرًا لا حيلة لي للنجاة

من هذا الجحيم؛ إلَّا أنَّ (الوكيل محجم) ركلني وقال ضاحكًا: اركض ركضًا.

فعدوت بينهم أتلقى ضربات سريعة خاطفة، كانت قاسية ملتهبة، وأنا أصرخ متألمًا وسط ضحكاتهم، خرجت من الممر إلى الساحة في حالة يرثى لها، أصلع الرأس، ممزق الثياب، والدماء تسيل منِّي.

رميت بنفسي وسط الشباب، وأنا أئن أنين الثكلى على ولدها من شدّة الألم، بعد أن دبَّ الوجع في جميع أنحاء جسمي .

لقد ذاق العشرات من السجناء الويل نفسه الذي ذقته؛ بل تجرع البعض ما هو أقسى من ذلك، أحد السجناء خرج من ممر الحلاق في حالة نفسية مأساوية يُرثى لها، جعلته يتحدث بما لا يعيه، ويفعل ما لا يقبله أيّ عاقل! لقد فقد عقله للحظات! علمًا أنَّه قام للحلاقة بنفسه دون أن يختاروه، لأنَّ انتظار التعذيب كان عليه أقسى من التعذيب نفسه، فأن تسمع آهات واستغاثات أحد يتعذب، وتشعر أنَّ الدور سيأتي عليك يعذبك أكثر من ضرب الهراوات نفسها.

معتقل آخر (يوسف) من معتقلي المعامير، مزقت يده بشكل مروِّع بعد أن استقرت إحدى ضربات المرتزقة بين أصابع يده، أثناء زحفه في الممر.

حتى ذاك الذي كان يمشي طوال اليوم لحالته النفسية (خليل) لم يسلم من همجيتهم! لكن لا تستغربوا أنَّ البعض قد خرج رافعًا علامة النصر. أسميناها (مجزرة) لهول المشاهد التي عاينَّاها، يدخل السجين إلى ذلك الممر، ولا يخرج إلَّا وهو ملطخ بدمائه، أو مكسرة أعضاؤه، مشاهد بثَّت الرعب في قلوبنا؛ إنَّها مجزرة الحلاق.

لم تنته (مجزرة الحلاق) رأفةً بنا أو رحمةً وشفقة علينا، ولا بأمر من أحد المسؤولين من جهات عليا؛ بل توقفت بسبب تعب المرتزقة من عملية التعذيب والإرهاب، حيث كان المرتزقة يلهثون من حرارة الجو بسبب عددنا الكبير وقوة ضرباتهم المبرحة.

كمثال على شدَّة التعذيب الجسدي والنفسي الذي تعرضنا له، مرَّ أحد المرتزقة علينا سائلًا: من الذي كسّر الجامع؟!

سكت الجميع وسط تبادلنا نظرات الاستغراب، وكأنَّنا نقول: وهل كُسّر المسجد أيضًا؟

فأعاد السؤال، فلم يجبه أحد، فقال وهو يهمّ بالانسحاب: نحن نعرفه، فليخرج الآن أفضل له.

فأجاب أحدهم: أنا!!. فالتفتت إليه متعجبًا وعيناي تكاد تخرج من مكانهما لهول الصدمة مخاطبًا نفسي: هل جُنَّ هذا؟ سيقتلونه الآن!!

- 19 -

متشابهون حد ثخن الجراح

12 مارس/آذار 2015

(أنا حسن الكلب، أنا الذي كسرت الجامة) قالها السجين معترفًا بعد سؤال أحد المرتزقة عن هوية من كسر الجامع.

قالها وهو واقف في منتصف الساحة بصوت عالٍ: (اصرخ بصوت أعلى) قالها أحد المرتزقة.

إنَّه هو الذي انتفض قبل الحادثة بأيام لإهمال حالة أخيه في الكونتر، وقام بتكسير الزجاج الذي نسمّيه باللهجة البحرانية الدارجة (جامة)، فهو قد سمع كلمة الجامع (جامة) ودفعه الخوف والإرهاب الذي سيطر على الأجواء للاعتراف بشيء لم يقم به، وذاق بسبب اعترافه الضرب والإهانة والمذلّة.

وصلت وجبة الفطور، والسجناء لم تبرد حرارة

كدماتهـم، هنـا حاولوا إرغام الناس على الاصطفاف لاسـتلام الفطـور، لكنَّهـم فشـلوا، موقف انسـحبت بعده قوات الشـغب المرتزقـة خلـف مدخـل السـاحة الشـمالية قرب الحـلاق، هذا الانسـحاب تزامـن مـع حضـور وكيـل أول بـزيّ مخصـص للمكاتـب الإداريـة محـاولًا التكلـم مـع السـجناء وإقناعهـم بتنـاول الطعـام، طالبًـا منهم تعيين أحد يتكلم باسـمهم جميعًا، لكـن السـجناء رفضـوا ذلـك، لأنَّ كل مـن خـرج وتكلم باسـم الجميـع، وكان صمَّـام أمـان للمبنـى؛ اعتبـر محرّضًـا، واقتيـد إلـى مـا وراء الشـمس، إلـى (المجهـول).

عـاد الوكيـل الأول الإداري خائبًـا، لكنَّنـا لأول مـرة منـذ ثلاثـة أيـام نستنشـق الهـواء، نـرى السـماء، ونتحـرك مـن موضعنـا الذي كرهنـاه، ونعاين الإخوان والأصدقـاء، رغم أنَّ السير كان صعبًـا علـيَّ؛ إلَّا أنَّنـي قمـت أتفقـد باقـي الشـباب، عاينـت مصائـبَ هوَّنـت علـيَّ مصيبتـي.

فبعـض الشـباب النشـيط الحيـوي صـار مقعـدًا مـن شـدَّة مـا نـزل بـه مـن العقـاب، وأصبـح لا يتحـرك إلَّا بمسـاعدة الآخريـن، والبعـض الآخـر قـد تعفـن جرحـه، ولـم يتلقَّ العلاج الـلازم لـه، والبعـض الآخـر أصيـب بحالـة نفسـية وجـنَّ!

(أبـو هاجـوس) الـذي ضُربـت عائلتـه فـي الزيـارة، كان جسـمه مثخنًـا بالجـراح، وقـد حُلـق شـعر رأسـه بشـكلٍ مهيـن متقطـع، بإزالـة الشـعر مـن مواضـع دون أخـرى.

(الأسد في القفص ماذا يقول؟!) عبارة من العبارات التي يردّدها أبو هاجوس بين الحين والآخر، ولكن فجأة وقف على قدميه، وغدا يهرول خلف أحد الشباب بلا سبب، والشاب يهرب منه مستغيثًا: أمسكوووه، لقد جنَّ الرجل!

لهول ما حدث، أصبح السجناء متشابهين، وكأنَّ السجن أعاد رسم ملامحهم، وقد أسهم في ذلك حلق شعر رؤوسهم. لكنني لمحت شخصًا قد تجمع حوله الناس للاطمئنان عليه، إنَّه الشيخ جاسم الدمستاني، اقتادوه إلى الحلاق بعد أن سألوا عنه بالاسم: أين الشيخ الدمستاني؟ لقد انتقموا منه شرّ انتقام بضربه بقسوةٍ على ظهره، وحلق رأسه ولحيته إهانة وتعدٍّ على مكانته كعالم دين.

لكن الطامة العظمى أنَّ كل ذلك حدث أمام كاميرا تسجل ما يحدث فوق أحد الأبراج، كاشفة الساحة بأكملها مع جهاز بث، لم ألحظها سابقًا، لكن السجناء لاحظوا تركيبها من أول ليلة، لم توضع لحفظ القانون واحترام حقوق الإنسان، فكل شيء حدث سجلته وبثته مباشرة لجهة عليا تراه دون أن تحرك ساكنًا؛ بل ربما كان وجودها لغرض تشفِّي وتلذُّذ تلك الجهات العليا ذات النفسية المريضة بآهات الناس؛ بل ربما تكون تلك الجهات العليا هو وزير الداخلية نفسه!

بعد إلحاح السجناء، وتجمعهم عند مدخل الساحة

الشـمالية طلبًا للحمـام رغـم تهديد قـوات المرتزقـة بتفريقهم بالقـوة، سـمح ضابـط قـوات المرتزقـة لهـم بذلـك.

فُتحـت أربعـة حمامـات فقـط فـي عنبر (6) لأكثـر مـن ألـف شـخص حرمـوا مـن الحمـام لمـدة ثلاثـة أيـام متواصلة! اصطـف بعـض كبـار السـن والمرضـى أمـام الحمـام، وخلـد معظـم الشـباب للنـوم صانعيـن لأنفسـهم ظـلالًا مـن الكراتين التـي يأتـي الطعـام بهـا، لأول مـرة نسـتطيع اتقـاء حـرّ أشـعة الشـمس التـي شـوهت وجوهنـا، فلقـد كانـت قـوات المرتزقة تمنعنـا حتـى مـن اتقـاء الشـمس بكفوفنـا.

ولأول مـرة كنَّـا نـذوق طعـم النـوم بأمـان بعيـدًا عن سـطوة الجـلَّاد، فالرعـب الـذي بـثّ فـي قلوبنـا علـى مـدى 3 أيـام جعلنـا نشـعر أنَّـا فـي غابـة مليئـة بالوحـوش، قـد ينقـضّ علينا أحدهـا فـي أيِّ وقـتٍ بليـلٍ أو نهـار.

وكان أكبـر دليـل علـى ذلـك مـزاح الشـباب الذيـن أمامـي، يأتـي أحدهـم إلـى صديقـه مـن الخلـف ويصـرخ عليـه بلمحـة وبطريقـة تشـبه لهجـة وطريقة قـوات المرتزقة: ضـع يدك على رأسـك يا كنـدرة[1].

فيسـرع صديقـه بوضـع يـده على رأسـه بسـرعة البـرق دون إدراك وهـو يرتجـف خوفًـا، ناسـيًا أنَّ قـوات المرتزقـة قـد انسـحبت أصـلًا! لتعلـو الضحـكات التـي لـم تسـتطع قـوات

---

(1) الحذاء باللهجة الأردنية.

المرتزقة منع استمرارها رغم كل ذلك العذاب المروّع الذي نزل بساحتنا. خلدت للنوم لعدة ساعات وسط ضوضاء السجناء، إلَّا أنِّي صحوت على صمت قاتل وصوت أحد الشباب يوقظني: قم واصحُ يا جهاد، لقد عادوا.

- 20 -

من خيمة إلى أخرى!

12 مارس/آذار 2015

استنشقت رائحة المذلّة والهوان، وسرت في جسدي برودة الرعب من بطش الطغيان، وغابت الشمس معلنة قدوم الظلام، تزامنًا مع عودة قوات الشغب المرتزقة متعددة الجنسيات، كانوا يتولون مهمة ترتيبنا للعدّ في صفوف متساوية، ولكن بالركل والضرب والشتم.

كان هناك مرتزق أسمر البشرة، متوسط الطول، دميم الوجه، يمني الجنسية يمرُّ بين الشباب راكلًا كل من يجده في طريقه ليفتحوا له طريقًا للمرور بينهم، مشكّلًا صفوفًا للعدّ، ولكن حتى بعد العدّ استمر في ممارسة طغيانه وإرهابه بإصراره على جلوس السجناء في صفوف مرتبة.

اختار عددًا من الأشخاص للوقوف أمام السجناء، وأمرهم بترديد شعارات مذلّة ومهينة كـ: (عاش عاش وزير

الداخليـة) و (عـاش عاش بوسـلمان) مقابل عبارات التسـقيط فـي رمـوز المعارضـة كــ: (يسـقط يسـقط حسـن مشـيمع) و (المـوت لعلـي سـلمان). كان يجرُّ كل مـن يرفـض ترديـد الشـعارات مثـل الشـاة التـي تجرّ للذبـح، ويضربهـم بقسـوة بهراوتـه.

عندمـا أحضـرت وجبـة العشـاء، رفـض معظـم السـجناء استلامها لاسـتمرار التعذيـب والإرهـاب مـن قبـل قـوات المرتزقـة والـدرك الأردنـي، لكنَّهـم لـم يبـدوا أيّ اهتمـام لعدم أكل السـجناء فـي بـادئ الأمـر، إلَّا أنَّهـم بعـد وقـت قصيـر سـحبوا ذلـك المرتـزق اليمني، ثم سـمحوا باسـتخدام الحمام لتنتصـر إرادة السـجناء علـى سـوط الجـلَّاد رغـم كونهم تحت سـطوته.

بيـن قـوات المرتزقـة هنـاك شـرطي مجنَّـس مـن أصـل بلوشـي اسـمه عمـران، تعـرَّف عليـه بعـض معتقلـي قريـة الديّة لوقوعهـم بيـن يديـه سـابقًا وتعذيبه لهـم، إلَّا أنَّه بعـد أن مارس (الإعـلام الثـوري والحقوقـي) حملـة ضـده معنونـة بجرائمه، حـاول تغييـر معاملتـه خوفًـا من تعرضـه للمحاكمـة. كان ذلك مـن انتصـارات الإعـلام الثـوري، وها هـو الآن يوزع السـجائر علـى السـجناء، أحـسّ المدخنـون بالنشـوة بعـد انقطاعهم عن تلـك اللفافـة لأكثـر مـن ثلاثـة أيام.

كان عمـران وسـيم الوجـه، ممشـوق القامـة، وذا شـعر ناعـم، مـا جعـل بعـض الـوكلاء الأردنييـن وأفـراد الـدرك

الأردني يتودّدون إليه، لاحظنا من أول ليلة انجذابهم المنحرف واستمالتهم إلى السجناء أو الشرطة ذوي الوجوه الحسنة، وتلك ميزة وانحراف انتشرا بشكل ملحوظ لدى أفراد الدرك الأردني.

وبالعودة إلى وضعنا آنذاك، ظل السجناء يتساءلون: متى سوف نتخلّص من هذا العذاب، ونعود إلى داخل المبنى؟! وكانت إجابة الوكلاء الأردنيين وقوات المرتزقة هي السخرية، مؤكدين أنَّنا سنجلس في الساحة مدة طويلة، وستنصب لنا خيام!

خيام؟!! لم يصدق السجناء الأمر، وحسبوه تهويلًا ساخرًا، لكن لم يلبثوا أن شاهدوا شاحنة تابعة لمؤسسة متخصصة في نصب الخيام تمر قرب السياج، ما لبث أن أنزل عمَّالها المعدات في الساحة الجنوبية، وبدؤوا العمل بشكل عاجل، فانقطع بذلك أمل السجناء في العودة إلى داخل السجن قريبًا، لكنهم حاولوا التخفيف على أنفسهم أن الخيام مهما كان، ستحميهم من حرارة الشمس ولو قليلًا.

هنا حضر ضابط أردني بدين، شديد السمرة، متوسط القامة، دميم الوجه، يضع نجمتين على كتفه (ملازم أول)، ثم أعطى الأوامر لأحد الوكلاء الأردنيين الذين معه وانصرف، كان الوكيل طويل القامة، قوي البنية، أبيض البشرة، مع لحية مثلثة وشارب، واسمه (عمر)، أول أمر

صدح به وهو واقف في منتصف الساحة: الكل ينام، أمر نوم، لا أريد أن أرى أحدًا مستيقظًا.

تنفس السجناء الصعداء، كم كان النوم حينها لذيذًا، رغم أنَّ كل ثلاثة أشخاص كانوا ينامون تحت بطانية واحدة، ويتوسدون نعالهم بدلًا من الوسائد، لكن ليس جميعهم؛ بل المحظوظ منهم فقط الذي استطاع الخروج بنعليه وسط كركبة الحدث. وأما الفراش فكان الإسفلت البارد، إلَّا أنَّ ذلك لم يمنع الأجساد المتهالكة من التعب والتعذيب من الاستسلام للنوم.

ساد سكون في ليلة غاب قمرها، سكون لا تزعجه إلَّا أصوات الصراصير تغني في الخارج، وكلاب بشرية تدّعي أنَّها تحرسنا ولكنَّها جائعة، طعامها البشر، ومشربها الإذلال والتعذيب، حيث كانت بين فينة وأخرى تصطاد فريسة تختارها حسب الهوية والقضية.

بينما أنا مستسلم للنوم تحت البطانية، إذ سمعت صوت خطوات أحد المرتزقة تقترب وتتجه نحوي، حتى وقف وقال: أنت، لماذا لا تنام؟

«سـ سـ سأنام الآن» ردَّ عليه أحد الشباب خائفًا.

المرتزق: أخبرني ما هي قضيتك؟

سكت الشاب برهة من الزمن، ثم قال: تجمهر..

المرتـزق: تجمهـر؟ أهـلًا وسـهلًا، تعـال يـا حبيـب أمـك سـأجعلك تنـام جيـدًا!

ردَّ الشـاب: لا لا سـأنام هنـا الآن، المـكان مريـح، تصبـح علـى خيـر. قالهـا بخـوف وذعـر.

صرخ المرتزق: تعال إلى هنا قلت لك.

قـام الشـاب لمنصـة الذبح، وعاد بعـد دقائق يئـن أنينًا يقطّع القلـوب، والمرتزقـة يضحكـون عليـه، كان ممـزَّق الثيـاب، ملطخًـا بالدمـاء، وقـد حلـق بشـكل مـذل ومهيـن، نصـف مـن شـعر رأسـه، ونصـف مـن لحيتـه، مـع أحـد حاجبيـه.

دقائـق وعلت الضجة قـرب الباب الفاصل بين السـاحتين. «أنـت بـس تضـرب! حتى نحـن نعرف كيـف نضـرب! أعطني مـا بيـدك وسـأريك»، إنَّـه (عقيـل سـرحان) انتفض بعـد ضربه أحـد المرتزقـة مهـددًا. «لا تضـرب نحـن بشـر، حتـى متـى سـيتمّ ضربنـا؟» قالهـا (عقيـل) مشـتبكًا بالأيـدي مـع عـدد مـن المرتزقـة الذيـن تجمعـوا حولـه بسـبب صراخـه، وراحـوا يضربونـه. أمسـك عقيـل أحدهـم وعضَّـه، وهـو يسـتغيث: «أينكـم يـا أهـل قريتـي؟». هـذه الصرخـة جعلـت المرتزقـة في حالـة اسـتنفار. تدخـل أحـد أقربـاء عقيـل، وهدأ عقيـل وسـحبه مـن وسـطهم متفاهمًـا مـع المرتزقـة أن يتركـوه وقـال لهـم إنـه يعانـي مـن مـرض نفسـي مزمـن.

ساد الصمت مرة أخرى في الساحة، إلَّا أنَّه مزَّق بصراخ من نوع آخر! خطير جدًا: «قوموااا، انتفضوااااا، ثوروااااا»

صراخٌ جنَّ على أثره المرتزقة حتى غدوا يتهافتون على مصدره كالكلاب الضالة الجائعة.

- 21 -

لا تملك أكثر من قتلي

بعد أن مزَّق صمت الساحة صراخ ينادي للثورة، وللقيام والانتفاضة، استنفرت قوات المرتزقة استنفارًا شديدًا، كان مصدر ذلك الصراخ، هو (أبو هاجوس) وكان بسبب ضرب أحد المرتزقة له، ممَّا جعل قوات المرتزقة تركض نحوه.

إلَّا أنَّه هرب منهم إلى مستنقع البول ليأمن من شرّهم، وجلس فيه وهو يضرب بكلتا يديه على الإسفلت والبول، فوقفوا عند حافة ذلك المستنقع يأمرونه بالخروج منه، ولكن ما إن تجمعوا كلهم عند حافة ذلك المستنقع حتى أخذ يقذف البول عليهم، ففروا منه هاربين وهو يسخر منهم ويقول: السمكة الكبيرة أكلت السمكة الصغيرة.

ظلَّ أبو هاجوس جالسًا هناك حتى مطلع الفجر ليأمن من سطوتهم.

في صباح غائم وحار، وبعد العدّ الصباحي تحت أشعة

الشمس القاسية، وأثناء تناولنا لوجبة الفطور، فُتح الباب الفاصل بين الساحتين، وجاء النداء للانتقال إلى الخيمة في الساحة الأخرى، تهافت السجناء مسرعين إلى الباب لحجز مكانٍ لهم داخل الخيمة للاتقاء من أشعة الشمس الملتهبة.

خيمة ذات أعمدة حديدية، أسدل عليها غطاء مرن من البلاستيك الأبيض ورُبط جوانبها، طولها 24 مترًا وعرضها 10 أمتار تقريبًا، مساحة لم تستوعب أكثر من 30٪ من السجناء فقط، وبقي الآخرون خارج الخيمة يستظلون بظلها، لكن ذلك أراح الكثير من السجناء، فمنذ ثلاثة أيام لم نستطع حماية وجوهنا من أشعة الشمس، ولا حتى بأكفنا، بسبب منع قوات المرتزقة ذلك، ممَّا غيَّر ملامح وجوهنا وقشّرها كما تقشّر البصلة.

دخل (الوكيل محجم) الخيمة، ومعه وكيل آخر وقال: يا شباب تعاونوا فيما بينكم، دعوا أكبر عدد يدخل الخيمة إلى أن تعدّ الخيمة الأخرى في الساحة المجاورة.

فأجابه الشباب: إنَّا نجلس على بعضنا البعض، ولا يوجد مكان.

لكنَّه كان مصرًّا: تعاونوا معنا وأدخلوا بعض السجناء إلى داخل الخيمة، وسنتعاون معكم سنعطيكم حقوقكم بالتقسيط، الذي يريد الذهاب إلى الحمام فليصطف في الطابور وينتظر دوره.

انصب علينا هذا الخبر مثل الماء البارد على رؤوسنا المحروقة، هبّ معظم السجناء مسرعين للاصطفاف في الطابور، كنت من بينهم، طابور طويل يتحرّك ببطء تحت أشعة الشمس الحارقة، كان أوله عند مدخل الساحة وآخره عند نهايتها، لكن ذلك لم يمنع السجناء من الاصطفاف والانتظار، فأمعاؤنا تكاد تنفجر من مقاومة قضاء الحاجة.

تنفست الصعداء، وصلت إلى بداية الصف، ولكن انصدمت بصف آخر يقف فيه الذين كانوا أمامي بالطابور الأول عند مدخل الساحة الشمالية التي تركناها صباحًا، حيث يتمّ نصب الخيمة الأخرى.

أيضًا كان هناك طابور آخر عند الحلاق، حيث قوات المرتزقة قد أحالوا المكان إلى مسرح ضحك، فلقد كانوا يأمرون كل من بالطابور بأداء حركات مهينة كالمشي مثل البطة أو تقليد أصوات الحيوانات أو الغناء والرقص، إضافة إلى إجبارهم على الوقوف برجل واحدة ووجوههم إلى الجدار، انتهيت من هذا الطابور أيضًا بعد أن طلب منّي أحد المرتزقة الغناء، فقلت له: إنّي أتقن قراءة القرآن، ما أنجاني من شرّه بعد الوقوف على رجلٍ واحدة.

دخلت المبنى و قد ارتسمت الدهشة على ملامح وجهي، التفت يمينًا وشمالًا وأنا مصدوم من الوضع الذي حولي، كان يشبه أنقاض بناء قد سقطت عليه قذائف أو صواريخ، علامات صفراء تنتشر في ممراته، كتلك التي توضع في

مسرح الجريمة، لكن الممرات بلا سقف ديكوري، قد بانت كل الأنابيب التي تختفي من ورائه، ومسارات التهوية والتبريد، عنابرهُ كمكب للنفايات المزدحم بشتى أنواع المقتنيات من ملابس وطعام وشراب، كانت مقتنيات السجناء قد كونت جبلًا وصل إلى سقف الممر من تراكمها فوق بعضها البعض.

اقتادونا إلى العنبر (6) الذي تمّ الانتهاء من تفتيش أربع غرف منه، الغرف تحولت كأرض قاحلة بلا زرع، كانت بلا وسائد ولا ملابس، ولا خزائن، فقط الجدران وهياكل الأسرَّة الحديدية. وما اشتريناه بأموالنا، وما جلبه لنا أهالينا من مقتنيات، قد أصبح خبرًا ماضيًا، والأمانات أضحت على عربة ثلاثية العجلات أخذها العمَّال غنائم لهم.

«دقيقتان فقط، وإلَّا سأفتح الباب عليكم، الاستحمام ممنوع» قالها المرتزق قبل دخولي الحمام. لكن ما إن دخلت حتى نزعت ملابسي وغسلتها ببعض الصابون المتناثر في الحمام، قضيت حاجتي واستحممت بسرعة البرق رغم التهديد، ثم ارتديت بعض الثياب المعلقة داخل الحمام، يبدو أنها نجت من حرب التفتيش، لم تكن لي بالطبع وليست على مقاسي. «طاااخ، طاااخ، اخرج وإلَّا كسرت الباب، لقد انتهى الوقت»، قالها المرتزق وهو يحاول فتح الباب بقوة.

فأجبته بفتح الباب قائلًا له: «لقد انتهيت». أجابني: «إذًا

قف للتفتيش. مرّر يديه على يدي ورجليّ، وغدا يتلمَّس الأماكن الحساسة»، فقلت له: «ماذا تفعل يا رجل؟»، المرتزق صارخًا: «اصمت!! دعني أفتشك، لربما خبأت هاتفًا وجدته في مكانٍ ما». كان تفتيشًا مذلًّا مهينًا وبحجة واهية، فقد كان يضع يده على الأماكن الحساسة دون خجل أو احترام.

أثناء عودتي، رأيت تربة حسينية رُميت على الأرض وقربها نسخة من القرآن الكريم قد رميت أرضًا أيضًا، آلمني أن يهتك كل مقدّس بكل هذا القدر من الدنس، انتشلتهما وخبأتهما تحت الثياب بشكل خاطف دون أن يراني أحد..

عدت إلى الساحة وأنا أشعر بنفسي هشًّا خفيفًا، وأنَّ وزني قد نقص، شعرت براحة بالغة وغامرة، كمن فوقه جبل من هم وقد انزاح، عدت إلى الساحة أحمل ثيابي التي غسلتها، علقتها على السياج الأخضر، واستأذنت من أصحاب الغرف ليسامحوني على الثياب التي لبستها، وكنت أحمل معي أثمن ما قد يحتاجه السجناء الآن، ولا أقصد بذلك فضة أو ذهبًا أو هاتفًا؛ بل التربة الحسينية ونسخة القرآن الكريم وهذه الأقمشة.

دخلت الخيمة، وكان معظم السجناء نيامًا، إلَّا القليل الذي استغل الفرصة لتبادل الحديث أو إقامة الصلاة، تأملت بعض المعتقلين الذين نالهم النصيب الأشد والأقسى من عذاب المرتزقة بسبب توجهاتهم السياسية، ورغم ذلك كانوا يتبادلون الحديث بمرح وضحك، كأن شيئًا لم يحدث.

فكم حاول أفراد قوات المرتزقة كسر إرادة السجناء ليبتعدوا بعد خروجهم من السجن عن ساحة السياسة والثورة، ويندموا على المطالبة بحقوقهم، يريد النظام أن يجعلهم يخرجون أذلاء خانعين، إلَّا أنَّ السجناء رغم قسوة التعذيب هزموا الجلَّاد، وأثبتوا له أنَّ صاحب الحق لا يتنازل عن مبادئه بالضرب والتعذيب.

عصرًا أخذ اثنان من الأخوة (أبا هاجوس) إلى العيادة بعد إقناعهم أحد الضباط بأنَّ حالته مستعصية ويحتاج للعلاج، لكن قرب العيادة فوجئوا بعددٍ كبير من الضباط الموجودين هناك، فلمح أحد الضباط الإخوة فصرخ بهم: لماذا تمسكونه هكذا؟ اتركوه يمشي وحده، وثانيًا ماذا تفعلون هنا؟

ردَّ عليه أحد الإخوة: حضرة الضابط هذا السجين مجنون، وحالته مستعصية، لذلك نحن نمسكه هكذا، وقد جئنا إلى العيادة من أجله.

الضابط: كلكم أصبحتم مجانين الآن، اتركوه يمشي وحده، وعودوا أنتم إلى المبنى، الشرطي سيهتم بأمره.

ترك الإخوة (أبا هاجوس) وخطوا بعض خطوات، فهاج وركض نحو الضباط بطريقة جنونية، ففروا من بين يديه وهم يستغيثون بالإخوة: أمسكوووووه، أمسكووووه، إنَّه مجنون.

في ليلة مظلمة باردة غائمة، حضرت أعداد هائلة من شرطة الإدارة، مع عدد من أفراد الدرك الأردني لسبب لم نكن نعلمه، إلَّا أنَّنا علمنا بعدها أنَّ الخيمة الأخرى قد نُصبت، وأنَّه سينقل عدد من السجناء إلى هناك.

تقدَّم السجناء الذين يجلسون خارج الخيمة للذهاب إلى الخيمة الأخرى، وتبعهم البعض لتخفيف الضغط داخل الخيمة الأولى.

إلَّا أنَّ (الوكيل عمر) طلب من الجميع الانتقال إلى الجهة الأخرى للتفتيش، ثم العودة إلى مكاننا، مهددًا إيَّانا: إن لم تقوموا طوعًا فستقوموا مجبرين.

حملنا مقتنياتنا واستجبنا له مكرهين، والرياح تحمل رائحة مصيبة بكت لها السماء مطرًا.

عشرات من شرطة الإدارة يقودهم الشرطي (أحمد السمين) الذي طالما عُرف بقسوته في ضرب السجناء وتعذيبهم، عشرات من شرطة الإدارة يفتشون السجناء بالإزار فقط، تفتيشًا مذلًّا مهينًا وصولًا إلى لمس الأعضاء التناسلية مع مصادرة ملابس السجناء! ليس كلها بل كانوا يبقون لكل شخص قميصًا وبنطالًا، ويصادرون كل الملابس الداخلية والمعاطف التي يحتمي بها بعض الشباب من البرد القارس في الليل، حتى شكلوا كومة من الثياب التي جمعوها في أكياس النفايات السوداء.

انتهيت من التفتيش تحت زخات المطر وأدخلت إلى الخيمة، كانت موحشة مظلمة خانقة، والناس مكدّسين فوق بعضهم بعضًا، لم أجد بدًّا من الجلوس في وجه المدفع عند الباب، وكنت آخر شخص سُمح له بالدخول، فالباقون قد أجلسوا في طابور خارج الخيمة تحت سطوة المطر، وصاروا وجبة دسمة تلذَّذت بها الوحوش بإشباع غرائزها الحيوانية عبر تعذيبهم وإهانتهم، فأرغموا السجناء على المشي كالبطة، والركض حول الخيمة، مع لسعهم بضربات مهلكة عند الانتهاء من كل دورة للإسراع في الركض.

أما الخيمة فقد كانت مظلمة، وفيها سكون قاتل مرعب، وسط صرخات السجناء خارجها. كسر هذا الصمت صوت صدح في باب الخيمة، كان ذلك جنون أبي هاجوس.

«ليتقدم الذي أطلق الصوت، وإلَّا أذقنا الجميع العذاب حتى تعترفوا» قالها مرتزق قصير القامة يرتدي قناعًا أسودَ عند الباب.

تقدم أبو هاجوس من وسط الناس، فصدمت وذهلت لحالته التي يرثى لها، كان عاريًا من الملابس عدا ملابسه الداخلية، مقيَّد اليدين من الخلف بقيد بلاستيكي، قد سال من فمه زبد أبيض، تلون جسمه بعدة ألوان كالأحمر والأخضر والأزرق والأسود من شدّة الضرب.

ما إن وصل إلى باب الخيمة حتى وقف أمام المرتزق القصير المقنع وقال: «مبرقعة؟ بحرينية أم سعودية؟!» ثلاث كلمات أثارت غضب المرتزقة، وأثارت الضحك عليه من قبل السجناء وزملائه.

فرفع هراوته غاضبًا وضرب أبا هاجوس على رأسه، فسقط أرضًا، إلَّا أنَّه قام وكأن شيئًا لم يحدث وقال: «الهامووووور في القرقووور» ـ الهامور سمكة كبيرة الحجم تصطاد في المياه البحرينية بكثرة، والقرقور هو فخ يُستخدم لصيد الأسماك.

قال أحد المرتزقة: اتركه إنَّه مجنون.

«مجنون على نفسه، وإلَّا ستجعله هذه عاقلًا». قالها المرتزق القصير المقنع لزميله وهو يلوِّح بالهراوة.

أخذ السجناء من خارج الخيمة إلى الساحة الأخرى، بعد أن شبع المرتزقة من إذلالهم، وانتهت شرطة الإدارة من تفتيش الخيمة الأخرى في الساحة الجنوبية، وبقيت أنا في الخيمة الشمالية، عندها جاء (الوكيل عمر) وأمرنا بالنوم، فتمدَّد السجناء بشكلٍ خانق ضيق، وبقي البعض جالسًا والآخر واقفًا لضيق المكان.

فصرخ (الوكيل عمر) بنبرة إرهاب على أحدهم قائلًا: نَمْ يا كلب، نَمْ يا كلب.

«الكلب ما بينام، الكلب يحرس» إجابة أثارت السخرية والضحك على (الوكيل عمر) كان صاحبها أبو هاجوس، فسحبه من وسط الجموع إلى خارج الخيمة، وعاد يسأل الباقين عن سبب عدم نومهم، فأخبروه أنَّ المكان ضيق ولا نستطيع النوم.

عندها أمر الوكيل عمر عددًا من السجناء بالانتقال إلى الخيمة الأخرى وكنت أنا بينهم، دخلت الخيمة الجنوبية، وكان جوّها مرعبًا ملتهبًا، قد قسَّم السجناء إلى قسمين، قسم إلى يمين الباب وقسم إلى يساره، مكتظين بعضهم قرب بعض، واضعين أيديهم على رؤوسهم، جلست في الصف الأول في وجه المدفع.

وبين الحين والآخر يدخل الخيمة أحد مرتزقة الدرك الأردني مستعرضًا عضلاته، شاتمًا إيانا ومحتقرًا، فأحدهم يقول: «أهلًا بالكلاب، أهلًا بالأرانب، أتعلم ما هو معنى الأرانب في لغتنا الدارجة، يعني الحشرات، نعم أنتم حشرات، ومن يتكلم منكم سأدوسه بكلتا قدمي»

جاء أحد المرتزقة داخلًا الخيمة، فرمى بشخص داخلها كما تلقى النفاية وهو يلهث ويقول: هذا الشخص حاول إثارة الشغب، وعوقب على ذلك.

كان ذلك الشخص (هاني) أحد السجناء المنقولين إلى المبنى بعد قضاء فترة الانفرادي لمشكلة سابقة، كان

مثل الجثة الهامدة، خامد الأنفاس، مغمًى عليه، ما جعل السجناء يستغيثون المرتزقة لنقله إلى العيادة.

لكن الإجابة كانت: دعوه يموت.

حاول السجناء إيقاظه عبر سكب الماء على وجهه، حتى بكى أحد أصدقائه وقال: قتلتموه، قتلتموه.

خشي المرتزقة من التعرض للمحاسبة في حال كونه ميتًا بالفعل، فتقدم أحدهم وتحسَّس نبضه وقال: لم يمت، نبضه ضعيف، ليحمله اثنان إلى العيادة. حمله اثنان من أصدقائه إلى العيادة.

تزامنًا مع خروجهم دخل شرطي قصير، أسمر البشرة، ضعيف البنية وهو ينادي على عدد من السجناء، فتعرفت عليه من صوته الذي يشبه الصفارة، إنَّه الشرطي (عبد القوي) الذي كان موجودًا في الساحة أول ليلة، وهو الذي جرَّ (عباس السميع) وسحبه مهددًا إيَّاه وأخذه إلى الإدارة، خرج بعض من نودي على أسمائهم، وتخلَّف البعض الآخر.

فخرج وعاد وهو يقول: أين عبد الشهيد المسجل في العنبر رقم (2)؟

ساد الصمت، ثم أجابه أحدهم: ليس هنا لعلَّه في الخيمة الأخرى.

ردَّ الشرطي: مَنْ بالخيمة الأخرى يقولون إنَّه هنا! وأنتم تقولون إنَّه هناك، ليخرج قبل أن نخرجه بالقوة. لم يجبه أحد. فخرج وعاد مع عدد من أفراد قوات المرتزقة مهددين أنَّه إن لم يخرج عبد الشهيد سيذوق الكل العذاب الجماعي.

فوقف أحدهم وقال: أنا اسمي عبد الشهيد، ولكنِّي لست من عنبر رقم (2).

إلَّا أنَّهم تكالبوا عليه يسحبونه كالقراصنة الذين وجدوا كنزًا وهم يقولون: وجدناه، وجدناه.

سحب عبد الشهيد إلى ممر الحلاق، وضرب ضربًا عنيفًا قبل أن يُعثر على الشخص المقصود، ورغم إصابته في رجله، لم يسلم من العذاب، حيث أخذ المرتزقة يحققون معه عن المكان الذي تُخبّأ فيه الهواتف بالمبنى، مهددين إيَّاه بإدخال الهراوة في مناطقه الحساسة إن لم يعترف. أما عبد الشهيد المقصود فقد أخذ إلى داخل المبنى ولربما إلى الجحيم! حيث سمعنا صوت صرخاته وآهاته تصل إلى الساحة الخارجية.

أما داخل الخيمة فقد قام (عقيل سرحان) لأحد المرتزقة يطالبه بإحضار دوائه الذي يجب عليه تناوله عند الساعة العاشرة مساءً: «اذهب لجلب دوائي، هل تعلم أنا مريض، وأريد دوائي»..

بعد أن قال عقيل ذلك لأحد المرتزقة، تقدم نحو

الباب، والمرتزق يأمره بالعودة، حتى وصل إلى الباب، رفع المرتزق الهراوة في وجه (عقيل) قاصدًا ضربه، فأمسك عقيل الهراوة قبل أن تصل إلى وجهه وقال: «لا تضرب، هل معنى امتلاكك للهراوة أنَّك تستطيع أن تضرب الناس؟!» كان هذا الموقف كافيًا لإشعال شرارة غضب السجناء، سُحب (عقيل) على إثره من ثيابه إلى خارج الخيمة، واقتيد إلى مكان مجهول.

لم تمرّ سوى لحظات حتى انفجرت الشرارة، بعد أن اعتدى أحد المرتزقة على معتقل من (قرية الدراز) بالضرب بشكل مبرح، بسبب رفض الأخير وضع يده على رأسه، فانتفض السجناء رافضين همجية المرتزقة، وراحوا يصرخون: «لا تضربه، لا تضربه..»، خرج المرتزق يعدو خائفًا، وعاد بمعية العشرات من زملائه، الذين جاؤوا ينبحون بصوت مزلزل، مكشرين عن أنيابهم، رافعين هراواتهم في وجوهنا، مهددين بالويل والثبور، وقد أبرحوا ذلك المعتقل ضربًا.

وقف الأستاذ (علي محمد) وقال بصرامة وشدة: «لا تضربه، ليس لك الحق في ضربه، نحن بشر ولسنا حيوانات!»، توقف المرتزق عن ضرب المعتقل الدرازي، واستدعى الأستاذ علي محمد بهدوء وخبث قائلًا: «تعالَ إلى هنا»، فأجابه الأخير: «سآتي.. ستضربني؟ اضرب فأنت لا تملك أكثر من ذلك!!»

- 22 -

حين عجز الوحش عن هضمنا

14 مارس/آذار 2015

أُخذ الأستاذ (علي محمد) في ليلة السبت 13 مارس/ آذار 2015 بعد أن سجل موقف عزٍ وشموخٍ، وانضم إليه ثلاثة شبَّان آخرين، هذا الموقف جعل السجناء الآخرين يشعرون بالتقصير، ويلومون أنفسهم أنهم لو انضموا إليه ساعتها غير آبهين بإرهاب المرتزقة، لانقلبت الموازين، عاتب السجناء أنفسهم بشكل قاسٍ، وكان ذلك شاحذًا لهم لصباح اليوم التالي.

ففي صباح يوم السبت 14 مارس/ آذار 2015 دخل عدد من أفراد المرتزقة الساحة بتعجرفهم المعتاد، بينهم ذاك المرتزق اليمني الذي أمعن في ضربنا وإذلالنا ليلة الجمعة، وأجبرنا على الجلوس في صفوف متساوية بالركل والشتم، كان الشباب يلقبونه بالبطة، ومن بينهم أيضًا مرتزق يرتدي قناعًا، لكن شكله لم يكن غريبًا عليَّ! فهو قصير القامة،

سمين البدن أبيض البشرة، ويضع تقويمًا حديديًّا على أسنانه، وفوق صدره يضع وسامًا، اسمه محمد الزقري، إنَّه الذي حضر أثناء التفتيش بالأمس.

دخلوا الساحة وكان هناك عدد من السجناء المصطفين في طابور للذهاب إلى الحمام، فأمروا بقية السجناء بالخروج من الخيمة، وقاموا بصفّهم تحت أشعة الشمس للعد، على الرغم من أنَّ عملية العد قد أجريت فجرًا، إلَّا أنَّ تشفِّي هؤلاء بتعذيب السجناء لا يشبع!

وبينما يقف السجناء وسط صراخ المرتزقة وسبّهم، تقدم أحدهم نحو طابور الحمام آمرًا الجميع بمواجهة الحائط، فاستجاب البعض خوفًا، ورفض البعض الآخر، وكان من بينهم السيِّد مهدي الموسوي. لم يكرر المرتزق الطلب أو يسأله عن سبب رفضه؛ بل رفع الهراوة بوجهه قاصدًا ضربه، فانتفض السيِّد مهدي صارخًا: تشلّ يدك، لا أنت ولا الذي أعلى منك يمدّ يده عليَّ..

كلام ارتعدت منه فرائص المرتزق، وتراجع بعض الخطوات، وهو ينبح ويقول: اخرس، اخرس..

أكمل السيِّد مهدي: لقد تجاوزتم حدودكم كثيرًا، الضرب يجب أن يتوقف، وأستاذ علي محمد يجب أن يرجع.. بينما الشباب يحاولون تهدئة السيِّد مهدي.

كان هذا الموقف على بعد مسافة أمتار من طابور

العدّ الذي كان على صفيح ساخن هو الآخر، فقد أمر المرتزق اليمني بعض السجناء بنزع المناشف الصغيرة المبللة التي يحتمون بها من أشعة الشمس عن رؤوسهم، فتجاهله معظم السجناء، إلَّا أنَّه تقدم ورفع المناشف عن رأس البعض منهم صافعًا أحدهم على وجهه، فوقفنا على أرجلنا وانتفضنا كلنا دفعة واحدة كطوفان وموجة غضب عارمة، صارخين بصوت واحد: لا تضربه! إيَّاك أن تضربه، لقد تجاوزتم حدودكم، نحن بشر ولسنا حيوانات.

هرب المرتزق اليمني من الساحة خوفًا، وحضر بعده عدد من أفراد قوات المرتزقة، لابسين دروعهم، وقد أعدوا هراواتهم للضرب، وقد سبقهم وكيل أردني طويل القامة، قوي البنية، عريض الوجه، أبيض البشرة، اسمه (فارس الحفيظي) وطلب من السجناء الهدوء ليتمكن من التفاهم معهم، فوقف أحد كبار السن، وكان من معتقلي (قرية بني جمرة) واسمه (أبو يقين) وقال بلهجة حادة: لقد بلغ السيل الزبى، لن نقبل بهذه المعاملة، مرت أربعة أيام ونحن نضرب بلا سبب! وضرب هذا السجين شاهد على ذلك!

قالها وهو يشير إلى السجين الذي تمّ ضربه وأردف: هو لم يفعل شيئًا سوى أنَّه حاول أن يحمي نفسه من أشعة الشمس الحارقة، وسلامتنا هي مسؤوليتكم؛ بينما أنتم تمعنون في إيذائنا، لذا أنا عن نفسي أعلن عن إضرابي عن الطعام حتى تعاملونا كبشر وليس كحيوانات!

قالها منسحبًا من الساحة، وصرخ الجميع وراءه: كلنا مضربون أيضًا، هبّ الجميع ودخلوا الخيمة، والمرتزقة والوكيل فارس في حيرة من أمرهم.

بعد ساعة استدعى الوكيل فارس السجين (أبا يقين) واعدًا إياه بتغيير المعاملة ببعض الكلام المعسول لفك الإضراب، لكن الردّ كان: إنَّنا نريد شيئًا عمليًّا، وليس كلامًا فقط!

وصلت وجبة الفطور، لكنَّها لم تدخل الساحة، ولم توزع؛ بل بقيت بالقرب من الباب، فمن يريد وجبته يذهب بنفسه لاستلامها من قرب الباب!

لكن النفوس أبت أن تشبع بطنها على حساب كرامتها، فلم يتقدم أحد لاستلام الوجبات بتاتًا، لا عند الفطور ولا عند الغداء.

أما قوات الشغب فقد انسحبت كليًّا من الساحة، فبقينا نتحرك بحرية تامة دون أيّ مضايقات. استغل بعض المعتقلين الفرصة ونصبوا ظلالًا خلف الخيمة وشرعوا في تعليم القرآن الكريم، بالرغم من العدد القليل للمصاحف وانعدام الإمكانيات من أوراق وأقلام، لكن إرادتهم القوية كسرت جميع المعوّقات لبلوغ أعلى الدرجات في مقاومة تجهيل السجناء، وإضاعة وقتهم وحياتهم، وكسر طموحاتهم وتبديد آمالهم، وكان أول مدرسٍ شرع في ذلك الأستاذ عزيز العكراوي.

في الظهيرة كان معظم السجناء يجلسون داخل الخيمة لشدّة حرارة أشعة الشمس، إلَّا أنَّ الخيمة لم تعدُ كونها فرنًا حارًّا، وحتى بعد أن جاء عدد من العمَّال التابعين للداخلية، وقاموا بتركيب مروحتين في كل خيمة، ولكن ذلك لم يُجدِ نفعًا، وتمَّ تركيب مصابيح للإنارة أيضًا داخل الخيمة وكاميرا مراقبة تتميز بتصويرها الليلي، مع جهاز بث مباشر.

كان الكل يترقب عملية العدّ لأنَّها عادة تتمّ بحضور أفراد قوات المرتزقة، ويستغلها هؤلاء الوحوش لإهانة وإذلال وتعذيب السجناء، لكن هذه المرة لم يتولَّ عملية العد أحد غير الوكيل (فارس) مع عدد من شرطة السجن الأردنيين، وغابت قوات المرتزقة عن المشهد، وكان ذلك وحده انتصارًا لإرادة السجناء التي عجز الجلَّاد عن كسرها.

في ظلمة الليل والناس نيام، سمعت صوت خطوات بالقرب منِّي، فتحت عينيّ بحذر، لم تكن لأحد السجناء؛ بل شرطة الإدارة، وكان ذلك بالتحديد الشرطي (عبد القوي) قد حضر مع عدد من أفراد شرطة الإدارة وشرطة المبنى، يمشون على الأرض مثل اللص الذي يبحث عن كنز ثمين، وكانوا يتصفحون الوجوه بحثًا عن سجناء محددين، أو أي سجين مستيقظ يكون فريسة ووليمة دسمة للاستمتاع والتلذذ بالتعذيب.

تمّ أخذ عدد من الشباب خلسة، وافتقدهم أصدقاؤهم صباحًا، فأخبرتهم بما حدث، حتى الذين ذهبوا لقضاء

حاجتهم في الحمام اختفوا! كان ذلك أشبه باللغز، إلى أن حلّه عودة أحدهم وهو (علي قمبر) من (قرية النويدرات)؛ أخ الشهيد عيسى قمبر ـ أعدم في 25 مارس/ آذار 1996م بعد إدانته الظالمة بقتل (إبراهيم السعيدي) العريف في وزارة الداخلية في مارس/ آذار 1995م ـ عاد وهو يتصبّب عرقًا رغم برودة الطقس في الليل، وأنفاسه متقطعة، وقد احمرّ جسده من شدَّة الضرب، ووضع يده على خاصرته، ما إن دخل إلى الخيمة حتى تجمعنا حوله في حلقة لمعرفة سبب غيابه وما حلَّ به، فطلب بعض الدقائق ليستعيد أنفاسه المخطوفة، ثم قال:

ذهبت إلى الحمام قبل صلاة الفجر لأقضي حاجتي وأتوضأ، إلَّا أنَّ الشرطي (عبد القوي) رآني وجرّني من ثيابي إلى صالة الطعام الكبيرة دون أن يُبيِّن لي سبب فعله.

دخلت صالة الطعام الكبيرة، ورأيت عددًا كبيرًا من الضباط التابعين للتحقيقات الجنائية والدرك الأردني وإدارة السجن، جعلوا من الصالة وكرًا للتعذيب، وشاهدت عددًا من الشباب الذين معنا في الخيمة يعذّبون بشكلٍ وحشي وقاسٍ بضربهم بالعصي والهراوات والأسلاك الكهربائية الملتفة على بعضها البعض، مع إجبارهم على المشي بهيئة البطة، وتقبيل أحذية الضباط.

كان مشهدًا مرعبًا فاستلمني أحد الضباط بعد أن قال له الشرطي (عبد القوي) إنني قمت بتحريض السجناء على

الإضراب، وقام بتعذيبي بشكل قاسٍ بضربي بالهراوات، وضرب رأسي بالجدار قبل أن يسألني أيّ سؤال!

كان التحقيق بعض التعذيب، ولكنني أنكرت ما نسبه الشرطي عبد القوي لي. أما الشرطي فأصرّ على اتّهامي وكأنّي عدوّه اللدود، رغم أنني لا أعرفه إلَّا للتوّ، ولم يتركوني حتى أشربوني عصيرًا لأبرهن لهم أنني لست مضربًا عن الطعام، مكرهًا أخاك لا بطل!

ساد صمت حزين، وبانت الكآبة في وجه الحضور لهول ما سمعوا، حتى مزّق الصمت سؤال أحد الشباب: وهل كان العصير باردًا أم حارًّا؟

فانفجر الكل بالضحك، وقال (علي قمبر) ضاحكًا مستهزئًا بالجلَّاد: يا أخوة، لقد كان العصير حارًّا بحرارة وجبة التعذيب التي تلقيتها.

كان هذا الضحك وهذه السخرية تتجلَّى في أقسى لحظات الألم سرًّا من أسرار مقاومتنا لمصائبنا وهمومنا، فشرُّ البلية ما يضحك!

- 23 -

معركة الصوم

15 و16 مارس/آذار 2015

إنَّها معركة، سلاحها الإرادة، وجندها الإيمان بالقضية، وتحدّيها الجوع، وعدوّها الحاجة إلى الطعام.

إنَّها معركة الأمعاء الخاوية التي لا زلنا منتصرين فيها على الجلَّاد. جزء من معركة كبرى يقاتل فيها السجين للبقاء حيًّا في مقابل همجية العساكر وسط هذه المقبرة، حتى لا يدفن في أحد قبورها، معركة كبرى أسلحتها: الأمل والإيمان والعمل.

أمل زرعته داخلي كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكلها كل حينٍ بإذن ربّها. أملٌ وإيمانٌ انتشلني من بحر الهموم، وأنا في الحوض الجاف، بعد أن تحولت حياتي إلى رفات تناثرت أشلاؤها في عتمة السجن.

أمل وإيمان كانا سرّ صمودي وصبري وشدّ أزري،

ومنحاني الشجاعة والثقة في مواجهة الظالم، وأعادا إليَّ طعم الحياة، وهما اللذان سيجعلاني في سعادة طوال حياتي وفي مماتي.

قد ترى أحدهم إذا جلس وحيدًا تنتابه الهموم من كُلِّ مكان، وإذا نزلت بأحدهم مصيبة، شكّ في عدل الواحد القهَّار، ولكن لو عرف معنى الأمل والإيمان لابتسم رغم أقسى المآسي والأحزان، فقد قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (الشديد من صبر على البلاء، والبلاء للمؤمن دواء).

حقق الإضراب خلال يومين الكثير من المكاسب للسجناء، رغم أنَّه لم يكن إلَّا في الخيمة الجنوبية! تمّ وضع حنفية ماء حلو للشرب، وفتح باب حمامات السباحة للعنبر (4) بالقرب من مدخل الساحة الجنوبية، مع فتح ستة حمامات لقضاء الحاجة، لم تكن كافية لعدد السجناء الهائل، لكنَّها حسَّنت الوضع، وفتح محل الحلاق لمن يريد، فالسجناء الذين نجوا من مجزرة الحلاق تهافتوا للحلاقة طوعًا قبل أن يقادوا لها يومًا ما جبرًا تحت سطوة الجلَّاد.

أما المكسب الأكبر للإضراب فقد كان انسحاب قوات المرتزقة من الساحة، لكنَّها لا زالت تمعن في إذلال وضرب كل من يتوجه إلى الحمام من جانب، وشرطة الإدارة ما زالوا يستدعون ويخطفون بعض السجناء الذين

يتوجهـون إلـى الحمـام بيـن الحيـن والآخـر، ويقتادونهـم إلـى صالـة الطعـام الكبيـرة للتحقيـق والتعذيـب القاسـي الهمجي!

مكاسـب وأخطـار جعلـت الجـو العـام للخيمـة فـي دوامـة مـن الآراء! بيـن فـك الإضـراب والمحافظـة على المكاسـب، وبيـن الاسـتمرار فـي الإضـراب حتـى القضـاء علـى الأخطار.

لكـن بعـض المعتقليـن تحركـوا لاحتـواء الوضـع وإنقـاذ الإضـراب قبـل أن ينهـار كليًّـا، خصوصًا أنَّ عددًا من السـجناء سـقطوا مغشـيًا عليهـم، ونقلوا إلـى العيادة ولـم يتلقـوا العلاج!

لقـد اتخـذ قـرار الإضـراب بشـكل عفـوي وغيـر مخطـط، وقـد بـدا التعب واضحًا على السـجناء المنهكين أصلًا بسـبب الأحـداث الغليظـة التـي اسـتنزفت قوتهـم وأجسـادهم، مـا جعـل البعض ينسـحب بشـكل خفـي وخجل عبر أخـذ الطعام مـن الخيمـة الأخرى مـن خلال فتحة، أو الذهـاب إليها لتناول الطعـام. لذلـك تحـرك بعض المعتقليـن من باب عـدم تحميل السـجناء فوق طاقتهـم، والمحافظة على مكاسـب الإضراب، إلَّا أنَّهـم ووجهـوا بالرفـض مـن قبل بعـض الإخوان.

عصـرًا حضـر وكيـل قـوة النوبـة إلـى السـاحة، واسـمه (علـوي) وهـو يمنـي الجنسـية، واندهـش مـن كميـة الطعـام المتراكمـة قـرب البـاب، فحـاول بطريقـة خبيثـة جـرّ السـجناء المنهكيـن ممّـا تعرضـوا لـه والذيـن يعانـون مـن الجـوع لفـك الإضـراب، قـام وسـحب إحـدى كراتيـن وجبـة الغـداء إلـى

وسط الساحة، وأخرج وجبة منه، وفتح غطاءها لإغراء الشباب والدخان لا يزال ينبعث منها، وضعها أمام الشباب ظنًّا منه بأنَّنا حيوانات جائعة مجترَّة، قد تنقض على أي أكل أمامها.

إلَّا أنَّ كرامة السجناء غيَّرت المشهد؛ بل وقلبت الطاولة عليه بسخرية السجناء، وتمسكهم بالإضراب أكثر، حتى تقدم (أبو يقين) وأنهى المشهد بشجاعة بإغلاق الوجبة، وسحب الكراتين أمام أنظار وكيل قوة النوبة (علوي)، الذي انسحب من الساحة بعد أن هدَّد (أبو يقين) وتوعده بشرٍّ لا يخطر على باله.

تهديد ووعيد دقت أجراسه في اليوم التالي ظهرًا عندما حضر أحد أفراد شرطة الإدارة وطلب أبو يقين والسيد مهدي الموسوي، ظنّ البعض أنَّهم أخذوهما لمناقشة موضوع الإضراب؛ لكن ما إن اقترب قرص الشمس من الغروب حتى تيقن الجميع أنَّهما لن يعودا.

لم تكن حركة وكيل القوة (علوي) هي الوحيدة لمحاولة جرَّنا لفك الإضراب؛ بل حاول أحد أفراد الدرك الأردني استفزازنا وجرَّنا إلى افتعال الفوضى أو استخدام العنف، ليكون ذلك أول مسمار يُدق في نعش الإضراب، لكن كل محاولاته باءت بالفشل لحكمة المعتقلين، ومحافظة جميع السجناء على هدوئهم.

عند غروب شمس يوم الاثنين 16 مارس/ آذار 2015 تمَّ نقل جميع السجناء إلى الساحة الشمالية لصيانة وإصلاح السياج الأخضر للساحة الجنوبية.

كانت تلك حركة خبيثة من الإدارة لضعضعة الإضراب، حيث إنَّ السجناء في الساحة الشمالية غير مضربين، وسيختلط بهم السجناء المضربين، وسيسقط المنهك منهم في فخ فك الإضراب وتناول الطعام.

كانت حركة خبيثة، من جهتهم حاول الإخوة المؤيدون لاستمرار الإضراب استغلالها بإقناع السجناء غير المضربين بالمشاركة، لكنَّهم فشلوا بسبب الوضع المنهك الذي يعاني منه الجميع، وعلى العكس، تيقَّن الإخوة المؤيدون لفك الإضراب بضرورة فكّه الليلة، والحفاظ على المكاسب التي حصل عليها السجناء، والحفاظ على أنفسهم، فتقدَّم أحد الإخوة ووضع الجميع أمام الأمر الواقع، وأخبر الوكيل (فارس) بأنَّ السجناء سيفكون الإضراب، وسيستلمون وجبة العشاء.

أمر قطع نزاع السجناء، إلَّا أنّه أحدث بلبلة لبعض الوقت، لكن بدأ السجناء واحدًا تلو الآخر بالقبول به واستلام وجبة العشاء.

جعل الله في هطول المطر علامة الرحمة والخير، لكن هؤلاء الوحوش حوّلوه إلى علامة للعذاب والشرّ، حيث

تساقطت قطرات المطر ليلًا تزامنًا مع قدوم مجموعة من أفراد قوات المرتزقة مصحوبين بعدد من شرطة الإدارة والضباط، وقالوا: إنَّ هناك أمرًا بنقل عدد من السجناء الذين ينامون في العراء خارج الخيمة إلى صالة الطعام الكبيرة (اللنغر Langar).

استجاب السجناء الذين ينامون في الخارج، إلَّا أنَّ العدد لم يكن كافيًا، فدخل عددٌ من المرتزقة إلى الخيمة وطلبوا قيام 70 سجينًا للنقل، وتقدم 29 شخصًا طواعية، ورفض الباقون متذرعين بوجود الأهل والأصدقاء.

عندها دخل أحد أفراد المرتزقة الخيمة، وهو الذي سحبني إلى الحلاق قبل ثلاثة أيام، دخل يتخطى السجناء، وهو يجرّ عددًا منهم من ثيابهم بشكل عشوائي، حتى وصل إلى أحد المعتقلين من (مدينة المحرق) وكان الشرّ يتطاير من عينيه غضبًا، مدَّ المرتزق يده ليسحب (المعتقل المحرقي) من ثيابه، فردَّه نافضًا يده قائلًا له: أنزل يدك عنِّي يا وقح!

استشاط المرتزق غضبًا، وحاول جرّ المعتقل المحرقي بالقوة، إلَّا أنَّه اشتبك مع المرتزق بالأيادي، وسدَّد لكمة قوية على وجهه، وسط ضجة وضوضاء بثّت الرعب في قلوب المرتزقة الواقفين عند باب الخيمة، فتهور أحدهم بنزع فتيل قنبلة ما! لم أعلم ما نوعها ورماها وسط السجناء، فانفجرت مدوّية بصوتٍ رهيب، ما بثَّ الرعب والهلع في أرجاء الخيمة المكتظة والمضطربة!

- 24 -

الطوابير العسكرية

17 مارس/آذار 2015

إثر صوت دويّ انفجار القنبلة، صُمّت أسماعنا للحظات، وساد هدوء قاتل، دخل عندئذٍ قائد المجموعة صارخًا بلهجة بحرينية: ولا حركة، اقطع الصوت، ولا حركة اقطع الصوت، استمع للأوامر الجديدة.

لم يكن يخاطبنا؛ بل كان يخاطب أفراد مجموعته الذين خرجوا من الخيمة بعد إشارته، مؤنّبًا من رمى القنبلة وسط خيمة مكتظة، لم يلبثوا برهة حتى عادوا، وقال قائد المجموعة: كل من يلبس قميصًا أصفرَ فليقم ويخرج خارج الخيمة.

كنت أعلم أنَّ اللون الأصفر له دلالة على المرضى الذين يتعالجون في الطب النفسي، لكنِّي في هذه الحالة علمت مدى مرارته، ظنوا أنَّ من لكم المرتزق كان يلبس قميصًا

أصفرَ، فأخذوا كل من يلبس رداءً أصفر ولو بمقدار خيط، ثم جرّعوهم عذابًا قاسيًا عبر سحق أجسادهم بالهراوات بشكل وحشي انتقامًا من شخص واحد قد يكون بينهم، وهم يقسمون بالله أنَّ الشخص المطلوب ليس منهم. وفي الحقيقة لم يكن المعتقل المحرقي يرتدي قميصًا أصفر، ومن الواضح أنه محض توهم من قبل المرتزق بسبب تلك اللكمة القوية.

في صباح اليوم التالي الموافق 17 مارس/ آذار 2015م، استأنفت إدارة السجن التحركات الخارجية للسجناء (محكمة، نيابة، مستشفى، طبيب شرعي، إلخ)، لكن ليس التحركات الداخلية مثل الزيارات، لأنَّهم أرادوا قطع أي اتصال بنا عن العالم الخارجي كي لا يعلم أحد بجرائمهم التي يرتكبونها في حقنا، رغم قلق الأهالي الذين لا يعلمون عنا شيئًا منذ أسبوع كامل بسبب منع الاتصال والزيارات.

في هذا الصباح، تمّ نقلي إلى الخيمة الشمالية بشكل دائم بطلب مني، وذلك لوجود المعلّم هناك، وخصوصًا لشعوري أنني سأفتقد وجود هذا الإنسان العظيم، فكل الأنباء تتحدث عن جهوزية المباني الجديدة التي يقدّر عددها بأربعة، تقع شمالي مبنى الزيارات.

كان صباح يوم الثلاثاء مشرقًا وحارًّا، يسير بشكلٍ

طبيعي، طابور طويل عند مدخل الحمام، وحلقات نقاش هنا وهناك، ومعظم باقي السجناء نيام.

جاء إلى الساحة رئيس عرفاء أردني يضع على كتفه سيفًا، أشقر الشعر، أبيض البشرة، نحيف الجسم، طويل القامة، جهوري الصوت، يمشي على الأرض متبخترًا، رافعًا أنفه إلى السماء، وفي يده هراوة أخذها من أحد المرتزقة. إنه ذاته الذي اتفق مع الوكيل (محجم) لدخول المرتزقة في مجزرة الحلاق، ومن خلفه يمشي عريف بثلاثة خيوط على كتفه، قصير القامة، مربع الوجه، متوسط البنية، أبيض البشرة، نافخًا جسده وكأنَّه ديك. دخلا الساحة مستعرضين عضلاتهم على السجناء، وكأنَّهم في عرض لرياضة كمال الأجسام، أو مراسم تزاوج الطاووس.

دخلا وصرخا في الساحة: طاااابور، تجمعوا للطاااابور، تجمعوا بسرعة. ثم كررا صراخهما داخل الخيمة حتى أيقظا كل النائمين، وأجبراهم على الاصطفاف تحت حرارة أشعة الشمس (عشرة عشرة، اصطفوا عشرة عشرة يا حمقى) قالها رئيس العرفاء وهو يرتّب الصفوف.

الكل في حالة ترقب، ماذا يحدث؟ وماذا يريدون؟ سؤالان أثارا ضجة وبلبلة في صفوف السجناء، حتى صرخ رئيس العرفاء: اقطع الصوت، ياااا هي! (تعني حيوان) اقطع الصوت يا كندرة (تعني حذاء) اقطع الصوت يا صرمي (تعني مؤخرة الرجل).. يا أرانب (تعني حشرات).

قالها لإسكات السجناء ثم أكمل: من اليوم وصاعدًا، أنا المسؤول عنكم في هذه الخيمة، أنا (ردّاد) اسمي ماذا؟

ردَّ السجناء: رداد.

أجاب: لا يااااا هي، اسمي رداد أفندي، وهذا الذي بجانبي اسمه معاذ أفندي. مشيرًا إلى العريف الذي خلفه، ثم أكمل: من يناديني برداد بدون أفندي أو سيدي برئت الذمة منه، ولا يلومنَّ إلَّا نفسه، ومسؤول النوبة هنا هو فارس، اسمه ماذا؟

أجاب السجناء: فارس.

صرخ غاضبًا ملوحًا بهراوته: يا كلاب، يا أرانب، ما اسمه؟ صرخ بعض السجناء: فارس أفندي.

فقال رداد: أحسنتم، بدأتم بالتعلم، من اليوم وصاعدًا سيكون هناك طابور في كل صباح منذ استلامنا النوبة، وطابور في المساء للعدّ عند تسليمنا النوبة للنوبة القادمة، وطابور كلما أردت ذلك بسبب أو بدون سبب، مفهوم؟

صرخ بعض السجناء: مفهوم.

ثم أكمل رداد قائلًا: وبالنسبة للعيادة، تذهبون إلى العيادة حسب الدور، واليوم لا دور لنا.

رفع أحد السجناء يده مناديًا الشرطي رداد باسمه فقط:

رداد. وكان ذلك (أبو غايب) طالبًا منه الذهاب إلى عيادة السجن بسبب حالته الصحية الحرجة.

استدعى (رداد) أبو غايب بهدوء وابتسامة خبيثة ملؤها الحقد والضّغينة إلى مقدمة الطابور، ثم قال: على بطنك.

فردَّ عليه أبو غايب بتعجب واستغراب: ماذا؟. فاستشاط رداد غضبًا واحمرت أوداجه صارخًا: على بطنك يا صرمي! إلَّا أنَّ أبا غايب رفض ذلك الأمر، معتبرًا ذلك حطًّا من كرامته.

فرفع رداد الهراوة التي بيده ضاربًا أبا غايب على عاتقه ورأسه بوحشية غير مسبوقة، حتى سقط على الأرض على بطنه، ثم أمر رداد بدلو مملوء من الماء البارد من حنفية ماء الشرب، وسكبها على جسم أبي غايب وهو يرتجف من برودة الماء، ويتألم من قسوة ما جرى عليه.

فوجَّه رداد خطابه إلى السجناء بنبرة تهديد ووعيد: هذا جزاء كل من يناديني برداد من دون سيدي أو أفندي. معاذ أفندي، هل لديك ما تقوله؟ قالها مخاطبًا الرقيب الذي بجانبه.

فتقدم معاذ وأخذ الهراوة من يد رداد، وكأنَّها لاقطة صوت في مسرح، أو عصى يهشُّ بها على غنمه، وله فيها مآرب أخرى ليشبع بها غروره، ويخيف بها السجناء، ثم انبرى مخاطبًا السجناء بلهجة انتقام حادة قائلًا:

كنت أنتظر هذا اليوم منذ زمن طويل جدًّا لأشفي غليلي منكم، كنت في هذا البرج للمراقبة، وكنتم كلما قذفت الكرة خارج فناء الملعب بالقرب من البرج تصرخون عليَّ وكأنِّي أعمل لديكم (شرطي شرطي هات الكرة) فكنت أنزل من البرج أكثر من مرة لأعيدها لكم، وها قد أتى اليوم الذي أنتقم فيه منكم على هذا العمل، خرا عليكم خرا (شتيمة يكررها الأردنيون كثيرًا).

رداد: الآن أريدكم أن تجلسوا وأنتم تصرخون (الله) ثم تقفون مجددًا صارخين بكلمة (الله) وإن كان صوتكم مرتفعًا سأسمح لكم بالانصراف إلى الخيمة.

كان هذا هو الفصل الختامي للطابور العسكري بقيادة رداد ومعاذ، وظَّفه هؤلاء المجرمون في إذلالنا وإهانتنا. ولم نلبث أن نستريح منه لدقائق، حتى صرخ رداد بغضب مرة أخرى: طاااابور، طاااابور يا زبالة. تجمع الناس واصطفوا على إثر صراخه.

ثم قال: لماذا أنتم قذرون هكذا، ألا تشمّون رائحة الخيمة النتنة؟ لماذا لا تنظفونها؟

فرفع أحد السجناء المصريين يده، وقال بلهجته: يا باشا، دي مش ريحة الخيمة، دي ريحة صنانا (أي عرق أجسادنا)، أسبوع ما سبحنا يا باشا، وإحنا منشمّش (لا نشمّ) الريحة، لأنَّنا تعودنا عليها، صرنا يا باشا مدمنين صنان.

كلام انفجر على أثره السجناء ضحكًا، ولم يجد رداد أيّ رد له، فنحن لم نستحم منذ أكثر من أسبوع، ومن استحم وهو سعيد الحظ، استحم بدون الصابون والشامبو، ولبس الثياب نفسها بعد أن غسلها، وراح يمشي تحت أشعة الشمس لتجفيفها.

كان هذا هو وضعنا المأساوي، بلا صابون ولا شامبو ولا ثياب، وسط غياب كل هذه الأدوات والمنظفات الصحية، ورمي ما تبقى منها داخل المبنى في النفايات، بما فيها المقتنيات الشخصية، وسط هذا الوضع النتيجة ستكون كارثية لا يحمد عقباها.

- 25 -

بعض أسماء الوحش

17 مارس/آذار 2015 ليلًا

البومة رمز للشؤم والنحس، ونذير لوقوع المصائب، لها عينان ثاقبتان ووجه غريب عبوس، أشبه بالوجوه البشرية، لكنه بومة بشرية شكلًا وصفاتٍ، إنَّه الوكيل أحمد، المجرم الذي لا يتواجد إلَّا ليلًا كالبومة، منذ أول ليلة وحتى الآن.

كان أحد أفراد النوبة الليلية المسؤول عنها الوكيل عمر، وقد جسّدوا ظلام الليل بشرّهم وحقدهم وفقد استغلوا ظلام الليل الحالك لممارسة جرائمهم الوحشية، وسيستغلونه شرّ استغلال في الأيام القادمة.

مشهد الصباح يعيد نفسه في المساء، إنه البطش والإذلال والتعذيب ذاته، كل ذلك يحدث بأوامر الإدارة وكبار الضباط، وبالخطوط الخضراء المفتوحة على الموت. الكل يتنافس بمقدار ما يستعرضه من البطش والتركيع والإذلال،

يحدث هذا أمام أعين الضباط بمختلف رتبهم ودرجاتهم، وأمام كاميرات المراقبة التي تبثّ كل ما يحدث على مدار الساعة واليوم واللحظة. بل إن الكاميرا يتناوب عليها أحد أفراد الأمن كل ثلاث ساعات للتأكد من سلامة بثها.

جمع الوكيل عمر والوكيل أحمد السجناء في طابور عسكري مثل الذي أقامه (رداد) صباحًا مشفوعًا بالسب والشتم. بعدها قرأ الوكيل عمر الأسماء المدرجة في قائمة التحركات الخارجية، والتي ترسلها الإدارة لكل مبنى عند المساء، شدَّد على جميع من قُرئت أسماؤهم بالحضور مبكرًا غدًا.

ثم قال: انصرفوا لتناول وجبة العشاء، وبعد انتهائكم ارموها في القمامة، لا أريد أن أرى وجبة عند الفجر، فعند الفجر لدينا طابور للعد والكل عليه أن يكون مستيقظًا، ومن الآن وصاعدًا عندما أقول أمر نوم، على الكل أن ينام، تنامون وتستيقظون متى ما نريد، لقد ولى ذلك الزمان انسوه.

انصرفنا من الطابور لتناول وجبة العشاء، واصطف البعض سريعًا للذهاب إلى الحمام وكأنَّهم في سباق، لكن الصف بدأ يتلاشى! لا لأنَّهم قد تقدموا وذهبوا للحمام بسرعة؛ بل لأنَّهم تراجعوا عن قرارهم بالذهاب إلى الحمام بعد سماع صدى آهات إخوانهم السجناء في ممر الحلاق،

حيث كانت الإهانات والاعتداءات صك مرور لمن يريد الذهاب إلى الحمام.

امتنعت أنا أيضًا عن الذهاب إلى الحمام، لكن السجناء الجدد الذين دخلوا المبنى للتو لم يسلموا من طغيان المرتزقة، كان الوكيلان عمر وأحمد بمعيَّة قوات المرتزقة ينكّلون بأيّ معتقل على خلفية سياسية، ويجرّعونه وجبة دسمة من التعذيب، ثم يقومون بحلاقة شعر رأسه.

ما إن انتهينا من وجبة العشاء حتى أُطفئت أنوار الخيمة، وعلا صراخ الوكيل عمر في الساحة: ما بديش أشوف واحد برا الخيمة، أمر نوم، الكل ينام.

قالها وهو يلوح بيده التي يمسك بها جهاز النداء (البرقية)، فتوافد السجناء الذين ينامون داخل الخيمة إلى مواضعهم، وتوجَّه آخرون إلى خارجها، فمساحة الخيمة لا تستوعب الجميع.

دقائق وعاد الوكيل (عمر) إلى الساحة بصراخه حتى دخل الخيمة ليتأكد من نوم الجميع، وصرخ على عدد من السجناء: ليش؟ ليش مو نايم؟ ليش تصلِّي؟ ليش صاحي؟ ليش تقرأ قرآن؟ سكّر قرآنك، يااااهي، أمر نوم، الكل ينام.

كان الأمر محط السخرية، فالنوم ليس زرًّا نضغطه متى نشاء فننام مباشرة.

في المرة الثالثة جاء الوكيل أحمد مع الوكيل عمر ليمارسا إجرامهما على من لم تغفُ عيناه بعد، سحبوا خلسة أربعة شبَّان، كان أحدهم مستلقيًا بقربي، إنَّه صديقي أبو محمد، لم تمرّ لحظات حتى دوَّى صراخهم وآهاتهم في المكان، صراخ تقشعر له الأبدان، يتبعه نحيب وبكاء يدمي القلوب. لقد جعل ذلك السجناء يتجمّدون في مكانهم، ويتظاهرون بالنوم بعد هذا التعذيب النفسي القاسي، تمدّدت على الإسفلت الذي قصم ظهري، ووضعت بعض حافظات الطعام البيضاء المصنوعة من الفلين تحت رأسي، وتغطّيت ببطانية لوحدي لغياب صديقي الذي أشترك معه وهو أبو محمد.

لم يلبث طويلًا حتى عاد وتمدّد بجانبي دون أن ينطق بكلمة واحدة؛ بل غرق في التفكير إلى أن انهمرت دموعه، فهمست له: أبا محمد، ما بك؟ لم أعهدك ضعيفًا يكسرك إرهاب هؤلاء الوحوش.

ردَّ عليَّ: اعذرني يا جهاد، لست باكيًا لجور وظلم هؤلاء الوحوش وإذلالهم لي، وإجباري على تقبيل أحذيتهم فحسب؛ بل أبكي لما اقترفت أيدينا بعدم سماعنا للأساتذة والمشايخ، ورمينا إخواننا في التهلكة، لقد أسدينا للإدارة خدمة على طبق من ذهب كانوا ينتظرونها ويتلهفون إليها منذ وقت طويل، أسدينا إليهم خدمة أفضت إلى سحقنا وإهانتنا بانتهاكات لم تكن في الحسبان.

قاطعته قائلًا: لا عليك يا أبا محمد، هوِّن عليك، ولا تلم نفسك، واترك الأمر لله سبحانه وتعالى، فهو كفيل بإخراجنا من هذا الجبّ وهذه الورطة، وأفوِّض أمري إلى الله.

أبو محمد: إنَّ الله بصير بالعباد.

تصبح على خير يا أبا محمد ـ قلتها كي أنهي الحديث.

ردَّ: وأنت من أهل الخير يا جهاد.

نام أبو محمد، وبقيت مستيقظًا غارقًا في التفكير، وانهال عليَّ الماضي كالسيل الجارف يقلِّب أوجاعي وآلامي، تخرّج كل زملائي في الجامعة، وتوظّفوا، والبعض قد تزوج، وأنا حياتي معطَّلة في غمرة حزني، كنت أسمع صوتًا خفيًّا يهمس لي: ابتسم ولا تندم على ما فاتك، فلسوف يعطيك ربك فترضى، ما زال أمامك درب شائك طويل من الصبر والتحدّي، وأنا معك ولن أتركك. إنَّه صوت الأمل الذي يعيد إليَّ ابتسامتي دائمًا.

غفت عيناي على سكون وهدوء، وصحوت على اضطراب أمعائي وأوجاعها، فأنا لم أذهب لقضاء حاجتي قبل النوم بسبب ما يحدث من إذلال واعتداء على كل من يتوجه إلى الحمام، قلت لنفسي: لربما نامت الذئاب، وأصبح الطريق سالكًا.

خرجت من الخيمة وكانت الساحة هادئة، فتقدمت نحو مدخل الساحة القريب من ممر الحلاق وخطوت خطوة ثقيلة لم أستطع رفعها، وكأنَّ الأرض مغناطيس لمن يخطوها من هول وصدمة ما رأيت، في الممر المؤدي للفنس. كان هناك ثلاثة شبَّان قد أرغمهم الوكيل أحمد على المشي كالبطة، وهو يسوقهم ويضربهم بالهراوة كما يهشّ الراعي غنمه بعصاه.

وعند المدخل أربعة من أفراد قوات المرتزقة قد رموا أحد السجناء أرضًا على بطنه، وراحوا يمشون على ظهره.

وفي ممر الحلاق أجبر ثلاثة شبَّان على الوقوف على رجل واحدة، رافعين أيديهم ووجوههم لجهة الحائط، قد جرّد أحدهم من ملابسه كلها عدا لباسه الداخلي.

«أهلًا وسهلًا، يا شباب هناك ضيف جديد، اذهب بسرعة إلى الحمام وعد لنقوم بواجبات الضيافة، ولا تتأخر، فإن تأخرت سنخرجك من الحمام عنوة ولو كنت عاريًا كالبطل الواقف في الممر»، قالها لي المرتزق محمد الزقري (يمني الجنسية) مشيرًا إلى الشاب العاري الواقف في ممر الحمام، وأردف قائلًا: هيا اركض.

نظرت إليه بوجه صارم لا يحمل الخوف ولو أنَّ الخوف قد قطّع قلبي، لكنِّي لن أكون الفريسة التي ترتعد منه وتبكي أمامه، دخلت الحمام وأنا بين نارين، نار التأخر في الحمام

وإخراجي عنوة منه، وبين الذهاب بقدميّ إلى الجحيم، لكنِّي لم أتأخر، وخرجت من الحمام مفوضًا أمري إلى الله.

«فتشه أولًا» قالها المرتزق محمد الزقري لأحد أفراد الشرطة. كان تفتيشًا مهينًا عبر تمرير يده على كل جسمي بما فيها الأعضاء التناسلية، ولكن فجأة وقف جميع المرتزقة على أقدامهم بوضعية عسكرية، بعد أن لبسوا القبعات الرسمية للزي العسكري، كانت أنظارهم تتجه إلى شيء خلفي، التفتّ وإذ بعدد هائل من شرطة الإدارة بينهم الشرطي عبد القوي، ترافقهم قوات المرتزقة، يقودهم الضابط البحريني عيسى إلياسي (ملازم أول) ومن خلفه الضابط الأردني شاهد (ملازم أول) كان أفراد قوات المرتزقة مرتبكين، وكأنَّ ملك الموت حلَّ بساحتهم.

رأى الضابط البحريني عيسى إلياسي الطريقة التي يُعذّب بها السجناء، إلَّا أنَّه لم يحرك ساكنًا؛ بل اكتفى بإصدار أمر بعودتنا إلى الخيمة ليبدؤوا عملهم. ما هو هذا العمل؟ إنَّه مجهول، ولكنَّه بالتأكيد ليس خيرًا؛ بل شرٌّ محض، عدت إلى الخيمة التي أُضيئت أنوارها، فاستيقظ البعض وبقي الآخرون نيامًا، حتى دخل الشرطي عبد القوي وبدأ بالصراخ: استيقظوا، استيقظوا يا كلاب، استيقظوا لدينا تفتيش.

- 26 -

وباكستاني أيضًا!!

18 مارس/آذار 2015

استيقظ السجناء مذعورين على صوت صراخ الشرطي عبد القوي مناديًا بالتفتيش في وقت قريب من الفجر، تزامنًا مع تكدس الغيوم السوداء وهطول المطر.

«كل خمسة يحملون بطانياتهم، ويخرجون إلى خارج الخيمة، فقط البطانية، سنبدأ بهذه الجهة»، قالها الشرطي عبد القوي للسجناء مشيرًا إلى يسار الخيمة، وكنت أنا على يمينها .

بدأ السجناء بالخروج من الخيمة، وتعالت أصوات صرخاتهم بين الحين والآخر، لم ينتظر الشرطي عبد القوي وباقي شرطة الإدارة خروج كل السجناء من الخيمة ليبدأ التفتيش؛ بل بمجرد خروج سجناء الجهة اليسرى للخيمة بدأت عملية البعثرة والتخريب أمام أعيننا بشكلٍ همجي

وبلا مبالاة. أفراد قوات المرتزقة تدخل الخيمة بين الحين والآخر لاستجواب عدد من الشباب عن قضاياهم وأحكامهم ومناطق سكنهم. والسجناء الذين ينتمون إلى قرى ومدن شيعية مشهورة بمعارضتها للنظام يتعرّضون لتعذيب قاسٍ انتقامًا لقوة احتجاجات تلك المنطقة.

عندما حان دوري أخذت بطانيتي التي أشترك فيها مع أبي محمد وخرجت إلى الساحة على ضوء برق قد أضاء السماء في مشهد أكثر رعبًا من ذلك البرق، صفوف مرتبة للسجناء الجالسين في منتصف الساحة وهم عراة! لا يلبسون شيئًا سوى السروال الداخلي الذي أصبح لا يستر شيئًا بعد أن تبلل بمياه الأمطار!

في يسار الساحة ستة من أفراد شرطة الإدارة يفتشون السجناء بعد إجبارهم على نزع كل ملابسهم، بما فيها الملابس الداخلية، وفي مقدمة الساحة يقف الضابط البحريني عيسى إلياسي والضابط الأردني شاهد ينظرون إلى السجناء بنظرة استعلاء وتشفٍّ.

تقدمت للتفتيش، وكان من يقوم بذلك شرطيٌّ باكستانيٌّ اسمه أيوب من شرطة المبنى سابقًا، كان عابس الوجه مقطبًا حاجبيه، مرتديًا قفازات بيضاء، وكأنَّه مستعد لعملية جراحية! وبجانبه عدد من أفراد المرتزقة يلوّحون بهراواتهم في الهواء، ثم يحكونها بالإسفلت بقوة كالجزار الذي يسنّ سكينًا.

«يا لله، شيل الثياب، والبس الإزار» قالها الشرطي أيوب بلغة عربية مكسرة، ممسكًا بالإزار يناولني إياه، فقد كان كالحيوان الأليف، وتحول الآن إلى وحشٍ كاسرٍ يريد استغلال الوضع للانتقام والثأر من كل السجناء، سواء كان الشخص يعامله بأسلوب محترم أم فظ. لبست الإزار مرغمًا ونزعت ملابسي للتفتيش.

«قم واجلس ثلاث مرات، يااااهي» قالها آمرًا إياي، ففعلت ذلك، ثم تقدم يمرّر يده على كل جسمي حتى وصل إلى الأعضاء التناسلية، فاقشعر بدني، ونفضت يده وقلت له غاضبًا: هي!! ما الأمر؟

ردَّ صارخًا: تعال، ما هذا، تلفون؟!. ما إن سمع المرتزقة كلمة (تلفون) حتى تجمعوا حولي كالكلاب الشاردة التي تريد أن تنهشني، إلَّا أنَّ الشرطي أيوب أكمل تفتيشي وتفتيش البطانية، وأخبرهم أنني لا أخبئ شيئًا.

«خذ ثيابك، والبس لباسك الداخلي، هناك تفتيش بالجهاز اذهب اجلس هناك»، قالها أيوب حاملًا لباسي الداخلي، مشيرًا إليّ لارتدائه فقط، والجلوس في الصف.

جلست ببطانيتي في الصف عاريًا من الملابس حاملًا إياها في يدي، كان من الصعب جدًّا أن أرفع رأسي لأرى إخواني عراة، وقد آلمني أن أرى «المعلّم» في ذلك الحال

أيضًا، نكّست رأسي إلى الأرض، وقطرات المطر تسقط على جلدي كالسكاكين من شدّة برودتها التي جعلتنا نرتجف، فهم لم يسمحوا لنا بتغطية أجسادنا ببطانياتنا، ولم يستثنوا من ذلك أحدًا، لا مريضًا ولا كبيرًا في السن.

انتهت شرطة الإدارة من تعرية وتفتيش وإذلال وتعذيب كل السجناء، وبدؤوا التفتيش بجهازٍ لكشف المعادن عبر تمريره على أجسادنا صفًّا صفًّا، ثم سمحوا لنا بلبس ثيابنا.

لم ينتهِ الأمر عند ذلك؛ بل قاموا باقتياد كل من لم يحلق رأسه إلى ممر الحلاق للضرب والحلاقة، لكن عددهم كان قليلًا لأن معظم السجناء تنبؤوا بحدوث ذلك وحلقوا طوعًا.

أمرونا بالانصراف بعد أن قاموا بعملية العدّ، فدخلنا الخيمة، لكنَّها لم تكن كما تركناها أبدًا! لقد نهبوا كل شيء نستفيد منه، حتى الصابون والشامبو، بعثروا كل شيء حتى المصاحف الشريفة وكتب الأدعية، حطموا حتى تلك التربة الحسينية التي كنت أسجد عليها، واستطعت تمريرها عند عودتي من الحمام قبل أربعة أيام، أخذت أجمع ما تبقى منها.

خنقتني العبرة، وأنا أسأل نفسي: لماذا كل هذ الإمعان في الإذلال والتعدِّي على مقدساتنا؟! بماذا فكَّر المرتزق

عبـد القـوي عندمـا مزَّق كتـب الأدعية، وداس القـرآن، وحطم التربـة الحسـينية؟ هـل ظـن أنَّـه سـيجد هاتفًـا فـي داخلهـا، يـا لسـخرية القـدر، فلئـن فعلهـا فقـد فعلهـا أقرانـه فـي فتـرة السـلامة الوطنيـة حيـن حرقـوا القـرآن، وهدمـوا المسـاجد ودور العبـادة، وداسـوا كل المقدسـات، لا لشـيء إلَّا لإشـباع أنفسـهم المريضـة بنـار الحقـد الذي سـيطر عليهـم، لينتقم الله منـك يـا عبـد القـوي، فاسـمك لا يطابـق فعلـك أيُّهـا القصيـر الأحمـق، سـمّوك عبـد القـوي وأنـت عبـد الطاغـوت.

- 27 -

الوحش للسجناء: هل تُصَلّون؟!

18 ـ 24 مارس/آذار 2015

اسمها (حبوبة) يحبها الكل ويشتاق إليها، ويستأنس بوجودها، والقليل يخاف منها، جميلة طيبة وذكية، ممشوقة القوام، صوتها يطرب القلوب، تأكل من طعامنا، تنام معنا، وتعيش معنا، كانت معنا عندما كنا داخل المبنى، وها هي تآزرنا وتخرج إلى الساحة معنا، لست أتحدث عن امرأة في سجن الرجال؛ بل إنّي أتحدث عن الحمامة (حبوبة) التي يميزها الشباب بحلقة دائرية وضعوها على إحدى قدميها، وتربت على أيديهم منذ أن كانت فرخًا صغيرًا، تطير من يد إلى كتف، تجوب أرجاء المبنى الذي عاشت وتربَّت فيه، لكنَّها قد هجرته بعد أن أخرجنا منه عنوة كما أخرجها منه عنوة الغاز الفتَّاك الذي سمّموا به الأجواء.

مرَّ أسبوع ونحن في حالٍ مأساوي، نصبح على طابور عسكري ونمسي على آخر، الطوابير كانت وسيلة للإهانة

والإذلال والاعتداء والتعذيب والسخرية لشعب البحرين بمختلف الألفاظ والتعابير التي لم نعتد عليها، كانت الطوابير تقام لأتفه الأسباب.

فذات صباح سمع (ردّاد) نداءً مجهول المصدر من أحد السجناء بكلمة (شرطي) قاصدًا إياه، تحول إثره إلى ثور هائج باحث عن لون أحمر لينطح صاحبه أرضًا، مهددًا إيانا بإيقافنا في الساحة تحت السماء المكشوفة تحت سطوة أشعة الشمس الحارقة حتى المغيب، ما جعل السجناء يعاتبون بعضهم لعدم اعتراف من نطق بكلمة (شرطي) وكأنَّه ارتكب جريمة محرَّمة بحق الجميع، متناسين أنَّ ما يقوم به (ردّاد) هو الإجرام بعينه لتعامله مع السجناء بطريقة حيوانية.

بقينا هكذا حتى خرج أحد الأبرياء، واعترف بجرم لم يقم به، في بادرة إنسانية، ليخلِّص الجميع من هذا العقاب الجماعي، فعوقب بحلق كل شعرة في وجهه بما فيها حاجبيه، رغم علم (ردّاد) بأنَّه لم يفعل شيئًا.

لم يكن (ردّاد) الممثل الوحيد في كافة مشاهد الطابور، بل كان لمجرم آخر مشاهد أخرى، إنَّه المجرم (الوكيل محجم) الذي أمعن في ممارسة العذاب النفسي والجسدي على جميع السجناء، كان يقف في مقدمة الطابور مهددًا الكل بالويل والثبور وعظائم الأمور، وكان من شرّه عندما يستدعي أيّ سجين يبادره السجين ببراءة وعفوية جبل

عليها بالابتسام، إلَّا أنَّه يبادره صارخًا في وجهه بغضب لمسح ابتسامته قائلًا: لِمَ تبتسم؟ لماذا تضحك؟ هل تضحك عليَّ؟ مقابلًا إياه بصفعة في وجهه.

كان هذا الموقف أحد أساليبه القذرة للعب بنفسيات السجناء، وقطع الطريق عليهم لنسيان المآسي الماضية، ولم يكن هذا الموقف هو الوحيد، فبعد أن وصلته وشايات بعض السجناء ضعاف النفوس، الذين دسّهم (الوكيل محجم) وغيره للتجسس على إخوانهم، ونقل الأخبار للوكلاء أولًا بأول، علم (الوكيل محجم) نيَّة بعض السجناء التحرك والاستعداد لفعل أيّ شيء لإنهاء هذه المهزلة.

فوقف مخاطبًا الطابور بنبرة تهديد ووعيد، بأنَّ هناك بعض النفسيات المريضة لا تستحق الاحترام، وتستحق الدهس، مهددًا بنقلهم لمبنى 10 وهو مبنى جمعت فيه الإدارة كل من ألصقت به تهمة التحريض والتخريب والشغب، فكانت فرصة الإدارة لتصفية الحسابات القديمة مع كل من تختلف معه من ذوي الأنشطة الفعَّالة داخل المبنى والشخصيات ذات التأثير، قائلًا: هل تعلمون ما هو مبنى 10؟ هو المكان الذي لا يذوقون فيه لذة الطعام والشراب والنوم، إنَّه المكان الذي يأكلون فيه التراب، وهو المكان الذي تسحق فيه الأجساد، إنَّه الجحيم الذي نقل إليه كل من خرّب وأحدث الفوضى والشغب، من منكم يريد الذهاب إلى مبنى 10؟ فليتقدَّم ليعرف طعم الجحيم،

فالإدارة ما زالت تطالب بالمزيد لمبنى 10. لقد حوّلوا هذا المبنى إلى فزّاعة يخيفون بها السجناء، أو وادٍ من أودية جهنم.

أسبوع مرَّ، تلذّذ خلاله بتعذيبنا كل من (رداد) و (معاذ) و (فارس) وانضم إليهم العريف رامي -عريف قصير القامة، ذو عينان كسولتان، بدين الجسم، مربع الوجه، مع جبهة عريضة وشارب-، ورئيس العرفاء عبد المطلب -لون شعره أسود، مائلًا للبني-، والوكيل عبد الله -متوسط القامة، قوي البنية، مربع الوجه، مع لحية، وكانت يده مكسورة في ذلك الوقت-.

تلذّذوا جميعًا بتعذيب السجناء وإذلالهم في النوبة الصباحية مستغلّين أشعة الشمس الحارقة، فيومًا ما أقام (معاذ) طابورًا استمرَّ لساعات كإجراء عقابي للسجناء رافضًا إنهائه حتى سقط أحد السجناء مغشيًا عليه من حرارة الشمس، فدبَّ الخوف في قلبه وأنهى الطابور.

أما المجرم (رداد) فقد دأب على أن لا يمرّ يوم من هذا الأسبوع دون أن يرغم عشرة أشخاص على الأقل على الاستلقاء على بطونهم، وسكب ماء الشرب البارد عليهم، لأتفه الأسباب رغم صعوبة الاستحمام. لم يشفع لبعض السجناء أن موعد الإفراج عنهم قد اقترب ليخفف عنهم ألوان العذاب، فقد كان هناك معتقل من (قرية الماحوز) لم يبقَ من محكوميته سوى أسبوع واحد، لكن ردّاد ومعاذ

تلذذا بإذاقته كل أشكال التعذيب، لقد كانا يقومان بسكب الماء يوميًّا عليه، وجعله يركض حول الخيمة عشرات المرات، مع بعض التمارين الرياضية، لم يكن رداد ومعاذ يقومان بكل هذا بأنفسهما؛ بل كانا يتّبعان سياسة هتلر مع اليهود، حيث كانوا يرغمون أحد السجناء على سكب الماء على الضحية دون إعطائه أي فرصة للرفض، وإلَّا سيصبح هو الآخر ضحية للماء البارد مستلقٍ قرب أخيه السجين الأول.

كان ذلك أحد فصول الإمعان في الإذلال والإهانة والتعذيب، لم يكن للسجناء مفر منه، ولكن هناك شيئًا آخر أوقع بعض السجناء في إذلال اختياري. إنهم أولئك الذين لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام سلطة السجائر التي سيطرت عليهم. فقد تهافتوا لينضموا إلى مجموعة النظافة ليس حبًّا فيها، بل كانوا ينظفون الأرض من بقايا السجائر المسحوقة بأحذية المرتزقة، لكي يجمعوها ويضعوها في مخروط بلاستيكي من صنعهم يسمونه (مشرب). حتى إن البعض قد صار عينًا لهؤلاء المجرمين مقابل الحصول على سيجارة. الأمر الذي لم يغفل عنه شرذمة المجرمين عبد الله وفارس ورداد ومعاذ، واستغلوه شرّ استغلال، بإقامة مهرجان للمواهب من أهل السيجارة، فجلسوا على كراسٍ تحت ظلّ أحد الجدران، وأخرجوا علبة سجائر فتحت للتو، أسالت لعاب المدخنين، وشغفت قلوبهم، حتى تقدَّم رداد صارخًا: من لديه موهبة فليتقدم وسيحصل على سيجارة.

وللأسف، تقدم البعض ليقوم بحركات بهلوانية لم يقم بها سابقًا، أو يقلد أصوات الحيوانات بما فيها الحمار، أو يقرأ القرآن بصوت جميل، من أجل الحصول على سيجارة! هذا الوضع أساء غير المدخنين وراحوا يوبّخون المدخنين ضعاف النفوس، فيما اتجه بعض المدخنين عزيزو النفوس إلى الإقلاع عن التدخين نهائيًّا.

بعيدًا عن السجائر، لم تكن نشوة التدخين الأمر الوحيد الذي اقتنص هؤلاء المجرمون الفرصة منه لإذلال السجناء؛ بل حتى الحاجة الإنسانية للحمام، فقد جعلوا طريق الذهاب إلى الحمام شائكًا بالإهانات، ملغَّمًا بالاعتداءات، إلى أن أصبحنا نسأل العائدين من الحمام: هل الطريق سالك؟ فإن كان الجواب: لا، امتنعنا عن الذهاب، وإن كانت الحاجة ضرورية وملحَّة جازفنا بأنفسنا وقضينا حاجتنا خلف الخيمة في قنينات بلاستيكية، ولكن حتى ذلك اعتبروه جرمًا وراحوا يعاقبون عليه. ذات مرة كمنوا لأحد السجناء وانقضّوا عليه خلسة بالجرم المشهود، فأوسعوه ضربًا بشكل وحشي، وسكبوا عليه الماء البارد وأذلوه، وأرغموه على الذهاب إلى الخيمة ومخاطبة كل من يراه في طريقه بالقول: «أنا وسخ، أنا بوّلت وراء الخيمة». كان ذلك تحت تهديد ووعيد بعد اعتداءٍ قاسٍ أفقده بعض حواسه وإدراكه.

الإهانات التي جعلت السجناء يمنعون أنفسهم قدر المستطاع من الذهاب إلى الحمام، لم تقتصر على الرقص

والغناء والمشي بهيئة بطة، وتقليد أصوات الحيوانات، بل ثمة طرق لا تخطر على بال بشر. كان رئيس العرفاء عبد المطلب (يضع سيف على كتفه) يمعن في إذلال السجناء بطرق غير مسبوقة، فذات مرة أوقف شابًا في ممر الحلاق بقرب سرب من النمل، وقال له: أريدك أن تعرف ماذا تقول هذه النملة، وإلَّا ستضرب بشكلٍ قاسٍ. وبالطبع لاقى السجين ضربًا موجعًا. ومن طرق الإذلال الأخرى، إرغام السجين على وضع إصبعه على الأرض والدوران حول نفسه مثل فرجار هندسي، حتى يصاب بالدوار، ثم يجبره على الركض وهو في تلك الحالة، ليصطدم بالجدران، ويضحك عليه. وكان يأمر السجناء أحيانًا بالرفرفة بأيديهم مثل الحمام، كل تلك كانت أفخاخ قد تقع فيها عند ذهابك إلى الحمام، وحتى لو سلمت منها كلها، فصك المرور لك أن تنطق بكلمة (حاحا) تشبّهًا بالحمار ونعيقه، مع تفتيش مهين بلمس الأماكن الحساسة، كل هذا، وليس مسموحًا لك الاعتراض أو الامتعاض من أفعالهم.

فذات مرة ردَّ أحد السجناء على عبد المطلب بثلاث كلمات: «سأوقفك يوم القيامة»، وكانت هذه الكلمات كفيلة بجعله يستشيط غضبًا، وينقضّ على الشاب لكمًا وركلًا على كل أنحاء جسده بشكلٍ وحشي.

يتعامل هؤلاء مع السجناء لا بكراهية شديدة وحقد طافح وحسب، بل إنهم ينظرون إلينا على أننا كفار ودمنا

وأموالنا وأعراضنا حلال عليهم، وهذا ما صرَّح به كثير منهم عندما كانوا يخاطبون بعض السجناء من طوائف أخرى، وأن جلبهم إلى البحرين هو لهذا السبب بالذات. فيما لا يتردد عدد آخر من الشرطة من ذوي الأصل الأردني (برتب متوسطة وعالية) بالقول بأنَّهم استقدموا من بلادهم لمواجهة أعتى وأشرس أنواع المجرمين والإرهابيين في العالم.

وقد كانوا يستنكرون علينا التزامنا بالصلاة وتأديتنا لها، يبدون استغرابهم بشكلٍ شديدٍ، وتبدو على وجوههم الدهشة، فيبادرون السجناء بالسؤال: هل أنتم تصلّون؟

لم يتوقف المشهد عند هذا الحد؛ بل منع رفع صوت الأذان وقراءة الأدعية بشكل جماعي، وتعمّد الأردنيون: ردّاد ومعاذ وعمر وأحمد إقامة الطوابير في أوقات صلاة الفجر والظهر والمغرب، لقطع الطريق على أيّ سجينٍ من أداء الصلاة في وقتها.

فذات يوم أقام (رداد) طابورًا وقت صلاة الظهر، ومنع الجميع من أداء الصلاة، فطلب أحد السجناء إذنًا لإقامة الصلاة، وهو الحلاق (أسامة) إلَّا أنَّ (رداد) نهره بشدّة طالبًا منه الجلوس، وأنَّ الصلاة ممنوعة عليكم.

عندما غادر (رداد) للصلاة، وكان بديله أحد الوكلاء الأردنيين واسمه (ناصر أبو عجرم)، استغل الحلاق أسامة

الفرصة، وطلب منه السماح له بأداء الصلاة، فسمح له بذلك. وفي أثناء إقامته للصلاة، رجع رداد وشاهده قائمًا يصلي، فبدا الشرّ على وجهه، واحمرّت أوداجه، وصرخ في وجه أسامة وهو يصلي: من سمح لك بالصلاة أيُّها الوغد؟! فأجابه الوكيل ناصر بلا مبالاة: أنا سمحت له بذلك.

أخذ (رداد) نفسًا عميقًا، وقال بنبرة شيطانية: سأريك لاحقًا. وما إن انقضى الطابور حتى دخل عدد من أفراد الدرك الأردني يسألون عن (أسامة) بغضب كبير، وكأنَّه ارتكب جرمًا لا يُغتفر، وقادوه إلى ممر الحلاق بإمرة (رداد) وانهالوا عليه ضربًا مبرحًا بالهراوات والأحذية القاسية، حتى سمعنا دويّ صرخاته ترافقها أصوات ارتطام الهراوات على جسده، إلى أن خرج والدماء قد لطخت ثيابه الممزقة، وانتشرت على نواحي جسمه، من رأسه حتى أخمص قدميه، لم تسكن آهات (أسامة) حتى جاءته الوحوش طالبة إياه مرة أخرى، الجريمة هذه المرة هي: لماذا تأخرت؟ عندما نناديك تأتي بسرعة البرق وإلَّا ستضرب بشكلٍ قاسٍ، فهمت؟!

هذا التهديد جعل (أسامة) جالسًا على باب الخيمة مترقبًا نداء الوحوش في أي ثانية ليقفز من مكانه راكضًا إليهم، وضع لم يتحمَّله أسامة جسديًّا ونفسيًّا، فدخل الخيمة ودموعه على خديه، وهو يُحدِّث نفسه بنبرة

منكسرة: سأنتحر وأريح نفسي من هذا العذاب، سأنتحر، سأنتحر.

قالها وهو يبحث عن شيء حادٍّ يقطع به وريده، أو حبال يعلِّق نفسه بها، إلَّا أنَّ بعض السجناء هرعوا سريعًا إلى الوكيل فارس وأخبروه بذلك، فهو يتظاهر في كل مواقفه على أنَّه حبل النجاة للسجناء، لكنَّه في الحقيقة لا يعدو كونه أكثر من غطاء لحجب أخطاء زملائه كالثعلب الماكر، أو كالقاتل الذي يمشي وراء جنازة القتيل، وهو نفسه المنحرف الذي يتلمس المواضع الحساسة للسجناء الذين يقتربون منه، فقد شكا أعضاء مجموعة النظافة من فعله ذاك في مرات عدة، جعلت البعض ينسحب من المجموعة.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[1] جاءنا بظلام تستتر خلفه المصائب وعمليات اغتيال لكرامتنا وإنسانيتنا، كان مخيفًا مرعبًا ينبئ بحدوث أيّ شيء في أيّ لحظة، فاستدعاءات الإدارة للتحقيق والتعذيب لم تتوقف، ومداهمات الشرطي عبد القوي واختطافه للسجناء وتعذيبهم لم يتوقف، حتى وصل عدد المرات التي أخذ فيها (علي قمبر) من قبل هذا المجرم أكثر من عشر مرات، وفي كل مرة كان يعتدي عليه بشكل وحشي أكثر من المرة السابقة.

وكان هناك شيء ثقيل يمرُّ على السجناء كل ليلة ويتكرر،

---

(1) سورة التكوير، الآية:17.

إنَّـه طابـور العـدّ عنـد الفجر حيث منـع الوكيل عمـر وأحمد أيًّا مـن السـجناء مـن الجلـوس داخـل الخيمـة أثنـاء طابـور العـد، غيـر آبـه بمريـض أو كهـل، (عجـوز، مريـض، عيَّـان، مكسَّـر، كلّـو عالطابـور)، جملـة شـهيرة يُردِّدهـا الوكيـل عمـر بشـكل ليلـي، مؤكـدًا أنَّـه لا يعـدّ أحـدًا وهـو نائـم، وأنَّ ذلـك الزمـان قـد ولَّـى.

لـم يكتـف الوكيـل عمـر بذلـك، ففـي ذلـك البـرد القـارس منـع كل السـجناء مـن اتقـاء البـرد ببطانياتهـم، وأرغمهـم علـى إبقائهـا داخـل الخيمـة.

كان طابـور العـدّ يتزامـن مـع صـلاة الفجـر، والصـلاة ممنوعـة حتـى الانتهـاء من طابـور العدّ، عـدٌّ قد أجبر السـجناء علـى القيـام بـه بأنفسـهم عبـر وقـوف الجميـع، ثـم جلوسـهم واحـدًا تلـو الآخـر، ذاكريـن العـدد التسلسـلي فـي الصفـوف لـكل واحـد منهـم: واحـد اثنـان، ثلاثـة. ومـن يغفـل عـن ذكـر عـدده لنعاسـه أو ينخفـض صوتـه يجعلونـه عبـرة للباقيـن بتعذيبـه أمـام مرآهـم.

سـيكون الذهـاب إلـى الحمـام بعد السـاعة الثامنـة، الوقت الإجبـاري الـذي فرضـه الوكيـلان عمـر وأحمـد للنـوم، أمـرًا خطـرًا، حتـى لـو كنـت محتلمًـا. ذات مـرة اسـتيقظ أحـد المعتقليـن مـن النـوم، وهـمَّ بالذهـاب إلـى الحمـام حامـلًا منشـفته، فأوقفـه أحـد أفـراد قـوات المرتزقـة سـائلًا إيـاه عـن السـبب، فقـال لـه: إنَّـه قـد احتلـم. فقالـوا لـه: إن أردت

الاغتسال يجب عليك أن تمثل لنا ما رأيته في الحلم من مشاهد شهوانية بالتفصيل الممل. أبى المعتقل ذلك، فأوسعوه ضربًا مبرحًا بهراواتهم، وسحقوه بأحذيتهم الجلدية القاسية، مركزين ضرباتهم على أعضائه التناسلية.

لم يكتف الوحوش بذلك؛ بل سكبوا عليه الماء البارد، وأوقفوه في ذلك الطقس القارس تحت السماء المكشوفة، وهو عارٍ من الملابس، عدا سرواله الداخلي من منتصف الليل وحتى طلوع الفجر.

لم يتوقف الانحلال والانحراف الأخلاقي لدى المرتزقة عند هذا الحد؛ بل تجاوزه إلى أمور بشعة ودنيئة لا يقبلها أي بشر!!

- 28 -

بعد أسبوعين من الانقطاع عن العالم

23مارس/آذار2015

في إحدى الليالي، استغلَّ مرتزق بدين من الدرك الأردني نوم جميع السجناء، وخروج أحدهم للذهاب إلى الحمام (لم يكن شابًّا صغيرًا، بل إن الشيب قد ملأ شعره وشاربه، والأسوأ أنَّه مصاب بأمراض جلدية)، لكن المرتزق أوقفه عند إحدى الزوايا، وغدا يتحدث معه في عدة مواضيع، ويتودَّد إليه، ويلصق جسده البدين بجسد السجين الضعيف، ويضيق الخناق عليه حاصرًا إياه في الزاوية، حتى أخبره أنه يريد أن يقيم معه علاقة جنسية بشكل مباشر، إلَّا أنَّ السجين تهرب منه متعذرًا بعدم تناسب الظروف المكانية والزمانية، وطلب منه تأجيل ذلك ليتخلص من هذا المأزق. الانحراف الجنسي عند قوات الدرك الاردني ومرتزقته لم يكن شيئًا غريبًا.

مرَّ على وجودنا في هذه الساحة أسبوعان، صهرت

فيه شمس النهار وجوهنا وغيَّرت ملامحنا، وأما الليل فقد أكل برده أجسادنا، أسبوعان لا يعلم أهلنا شيئًا عنَّا! أحياء نحن أم ميّتون؟! خصوصًا أنَّ الإشاعات والأخبار تتناقل أنَّ هناك جرحى وإصابات بليغة لم تعالج؛ بل وشهداء قد سقطوا. كل هذا جعل أهالينا في قلق دائم على مصيرنا، كان هذا لإخفاء جرائمهم وفضائحهم ليتسنَّى لهم الاستمرار فيها.

يوم الاثنين الموافق 23 مارس/ آذار 2015 دخل الساحة شرطي شاب اسمه (معن) أسمر البشرة، قصير القامة، حليق اللحية والشارب، يتمايل في مشيته مثل النساء، يمسك في يده ورقة وقلمًا، ووضع كرسيًّا تحت أحد الظلال وجلس عليه واضعًا رجلًا فوق أخرى، وقال بنبرة صبي لم يبلغ الحلم: من يريد بطاقة اتصال يا شباب؟!

أمرٌ فرح به السجناء لأول مرة منذ أسبوعين، ولكن دائمًا كان هناك شيء يكدّر الفرحة، فأوَّل سؤال طرح: كم مدة الاتصال؟

أجاب الشرطي معن: دقيقة لتطمئن أهلك أنَّك بخير.

ذكرني هذا الجواب بأول دقيقة اتصلت فيها بأهلي بعد اختفاء قسري لمدة أسبوع في مبنى التحقيقات الجنائية لأقول لهم كلامًا محددًا قد أملاه عليَّ المحقق قبل رفع السماعة، فلا فرق بين تلك الدقيقة وهذه، ولا أدري هل

ستنفعنا هذه الدقيقة بتطمين أهلنا علينا، أم ستجعلهم قلقين أكثر؟!

كان الأمر بالنسبة لي محسومًا، فأُمِّي الحبيبة قادرة على تحمُّل ما سأقوله لها، لأنَّ مجرد سماع صوتي سيدخل الفرحة إلى قلبها، ويشعرها بطعم الحياة، ويرسم على شفاهها الابتسامة، لكن الأمر اختلف فيه السجناء بين مؤيد ومعارض، وكلّ له أسبابه المقنعة، وكل يدفع باتّجاه رأيه، سجال لم أدخل فيه؛ بل دفعت باتّجاه استغلال الفرصة، بطلب السماح لنا بشراء الحاجيات والملابس من الدكان (الكانتين) مع بطاقات الاتصال.

طلبٌ نقله السجناء للوكيل فارس، فنقله هو بدوره إلى الإدارة؛ لكنَّه قوبل بالرفض من الإدارة، ووصلت البطاقات وحدها في اليوم التالي 24 مارس/ آذار 2015م. تسابق السجناء في الاصطفاف للاتصال تحت أشعة الشمس، وأسماعهم تتلهف لسماع صوت أحبائهم، لم يكن مصير ذلك الصف أفضل من مصير صف الحمام، فالإهانات نفسها، لكن الأمر مختلف.

دخلت غرفة الاتصالات وكان بها ثلاثة أفراد من الشرطة، الأول يمني الجنسية واسمه القرشي، وهو من شرطة الاتصالات، والثاني يمني أيضًا واسمه سيف الدين ومن شرطة الاتصالات أيضًا، وهو الذي تمَّ طرده من المبنى يوم الحادثة 10 مارس/ آذار 2015م، والثالث

باكستاني الجنسية، لا أعرف اسمه. كان الشرطي (سيف الدين) يصبّ جام غضبه على السجناء، وينتقم لنفسه ممَّا حدث له ذلك اليوم، يصرخ على السجناء حتى قبل انتهاء تلك الدقيقة؛ بل يقطع الخط على من يتأخر بشكل مفاجئ، ويعتدي على السجين بالضرب. أما القرشي والشرطي الثالث فكانا جالسين عند باب الكبينة المفتوح يتنصّتون بشكل معلن على ما يقوله السجين المتصل، لئلَّا يتحدث عن الجرائم التي تعرّض لها.

دخلت الكبينة لأتصل وغدت أصابعي تختار تسلسل أرقام هاتف أُمِّي الحبيبة دون شعور، وكما توقعت، أحسست أنَّها طارت من الفرحة بعد سماعها نبرة صوتي فقط؛ إلَّا أنّ الفرحة لم تدم أكثر من دقيقة!

«انتهى وقتك، اقطع الخط!» قالها (سيف الدين) بنبرة حادة، دقيقة قالت لي أُمِّي الحبيبة فيها أنَّها تعلم كل ما يحصل لي، فقط من خلال كلامي ونبرة صوتي، وقالت لي: إنَّ هناك شرطيًّا واقفًا بجانبي كأنَّها واقفة أمامي، ولا عجب في ذلك فإنَّ قلبها سكن في جوفي.

رغم أنَّ وقت الاتصال هو دقيقة واحدة فقط، إلَّا أنَّ شرطة الاتصالات لم يسمحوا لأكثر من مائة شخص بالاتصال خلال ساعتين تقريبًا، ثم أقفلوا الباب في وجه السجناء، وغادروا رغم أنَّ فترة دوامهم هي 12 ساعة!

ليلًا، كان السجناء يستغلّون الوقت بين وجبة العشاء ووقت النوم الإجباري في المشي بشكل دائري حول الخيمة، وكأنَّهم في طواف حول الكعبة، وكلٌّ يتحدث في اهتماماته أو ما ينفّس به همّه، بين متحدث ومنظّر.

البعض يتحدث عن المستجدات الإقليمية والمحلية في ضوء الأخبار التي تصلنا بصعوبة كبيرة، مثل بدء السعودية شنّ حربٍ ضد الحوثيين في اليمن تحت عنوان: (عاصفة الحزم) وصفها السجناء بالخاسرة. وأنباء أخرى عن دعوة الرئيس الأمريكي أوباما حكَّام الخليج للاجتماع في منتجع (كامب ديفيد) لتناول مستجدات الملف النووي. وبعض آخر يتحدث عن المآسي التي مرَّ بها في الأيام الماضية مستعرضًا إياها بسخرية وتهكم. وبعض يتحدث عن اتصاله بأهله.

ومن بين كل هؤلاء كان المعلّم مثل النحلة التي تتنقل بين الأزهار وبين مجاميع الشباب ليصبّرهم ويؤازرهم، ويتبادل أطراف الحديث معهم في كثير من المواضيع ليخفف عنهم وطأة الحدث.

بين كل هؤلاء لمحت أستاذي ومعلمي (محمد سهوان) يمشي وحيدًا، فانضممت إليه، ويومها قال لي كلامًا لا زال راسخًا في ذهني: «السجن يا جهاد هو جبٌّ للمخاطر والصعاب، فلا تتوقع فيه الراحة والاسترخاء. بعض الشباب أصابهم التذمّر واليأس في هذه الظروف الصعبة.

التذمّر لن يغيّر شيئًا. الأمر الذي يجب أن تفكر فيه هو حسن استغلال هذه الظروف الصعبة، وتحويلها إلى قوة تقاوم بها أية محاولة لكسرنا، فالسجن وسيلة يستخدمها النظام لقتلنا، لكننا يجب أن نستغلّه لتنميتنا داخليًّا لننتصر على الظلام والجدران والسجَّان، فكر كيف تكسر طغيانهم بدلًا من التفكير فيما فعله طغيانهم». لم أمشِ معه طويلًا، لأنِّي كنت متعبًا تلك الليلة.

دخلت الخيمة وكانت هادئة وباردة، فيها عدد قليل من السجناء المنهكين النائمين، ولكن كان هناك في إحدى زوايا الخيمة، ثمة نقاش ساخن مضطرب، كان (أبو غايب) وصديقي (أبو محمد) و(قاسم) و(علي جمال) أحد المعتقلين السياسيين البارزين، جالسين في حلقة نقاش حادة، وجدت نفسي مجبرًا أن أكون واحدًا منهم، تقدمت نحوهم وقلت: السلام عليكم يا شباب، هل تأذنون لي بالجلوس والانضمام إليكم؟

أبو محمد: وعليكم السلام يا جهاد، طبعًا طبعًا تفضل، لقد جئت في الوقت المناسب كنَّا نتحدث عن ما حدث يوم الثلاثاء 10 مارس/ آذار 2015م قبل أسبوعين من الآن.

قاطعته قائلًا: نعم، الفخ الأكبر الذي أوقعنا النظام فيه.

ردَّ قاسم: لا بل الثورة التي هزَّت عروش الطغاة.

أجبته موبخًا: عن أيّ ثورة تتحدث يا قاسم، كفاك مكابرة، لا تأخذك العزّة بالإثم، اعترف أنَّ ما حصل كان خطأً.

أجابني: بل ما حدث هو عين الصواب، وكان الأمر يستحق ذلك، فقد هُتكت الأعراض.

أجبته: لا أستطيع أن أتحدث عن هذا الأمر، لأنّي لا أعلم مدى صحته، فالأخوة الذين عادوا من مبنى الزيارات أكدوا أنَّ هناك شيئًا ما حدث في قاعة استقبال الأهالي، وسمعوا صراخ نساء وعويل وبكاء بعد أن أخرجت عائلة أبي هاجوس إلى قاعة الاستقبال لإلغاء زيارتهم بسبب ضرب أبي هاجوس ووالده.

أبو محمد: كل ما يجري علينا هو في ذمة ورقبة أبي هاجوس.

ردَّ (علي جمال) محاولًا تهدئة النقاش: لحظة، لحظة يا إخوة، دعنا نتناقش بشكل هادئ ومنظم حتى نصل إلى نتيجة، وحتى لا يسمعنا أحد المخبرين، وأنت يا أبا محمد لا تلقي اللوم على الرجل، فهو لا يعلم ما حلَّ بأهله، ونقل من مبنى الزيارات مضروبًا إلى الإدارة مباشرة دون أن يلتقي بأحد وينقل إليه ما حدث.

أبو محمد: إذًا من أوصل خبر ضرب النساء إلى المبنى؟!

علي جمال: هناك أيادٍ خفية استغلت ما حدث لتحقيق أهدافها ومآربها، إنَّه الفرع السياسي الذي يدير الأزمات في جهاز الأمن الوطني، وهو الذي طالما حاك المؤامرات، ودبَّر المكائد والدسائس، وأثار الفتن في المجتمع ليحرف بوصلته عن طريق الصواب إلى الفخاخ والأخطاء لتحقيق مخططاته، وحلّ الأزمات التي كان أبرزها أزمة سجن جو والاكتظاظ.

وأكمل: كان مصدر الخبر جهاز الأمن الوطني، ووسيلة إيصال الخبر كان الإعلام العشوائي في وسائل التواصل الاجتماعي، والذي تسابق في نقله لنيل السبق الصحفي وجعله من المسلّمات دون وعي وإدراك بالعواقب، فرمى النظام حجرًا بهذا الخبر، وأصاب عصفورين:

الأول: تصفية الحسابات الماضية مع السجناء وتلقينهم درسًا لن ينسوه، والقضاء على الحراك داخل السجن.

والثاني: صيانة المبنى ووضع الفاتورة على السجناء بعد اتهامهم بتكسير المبنى رغم افتعالهم أضرارًا إضافية بأيديهم، والدليل كلام أحد مرتزقة الدرك الأردني عندما قال: «لقد قدمتم لنا خدمة على طبق من ذهب، عندما عجلتم الأمر على أنفسكم، لو انتظرتم حتى شهر مايو/ أيار لأخرجتم من المبنى بشكل طوعي للصيانة إلى المباني الجديدة، ثم عدتم، ولكنَّكم أردتم دفع فاتورة الصيانة وفاتورة حماقتكم».

كلام لم يعجب (قاسم) فعلَّق قائلًا: دع عنك التنظير والافتراضات يا علي جمال، الأعراض هُتكت في مبنى الزيارات، والناس ثارت على إثر ذلك.

ردَّ علي جمال: أنت ترى المشهد بهذه الكيفية، لأنَّك كنت متلقيًا للخبر، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «بين الحق والباطل أربعة أصابع، فالحق ما رأيت والباطل ما سمعت»، وأنا رأيت الحدث بأم عيني.

ماذا؟! كيف؟! ماذا تقول؟! ماذا تقصد يا علي جمال؟!.

صرخات دهشة قد علت بشكل عفوي منَّا جميعًا.

- 29 -

حقيقة ما حدث في مبنى الزيارات

علي جمال: يوم الثلاثاء 10 مارس/ آذار 2015م كان لدي زيارة عند الساعة 11 صباحًا، تزامنًا مع زيارة (أبي هاجوس) ووالده المسجون في مبنى رقم (1) ورأيت ما حدث بأمِّ عيني، فعندما كنت جالسًا في الكبينة أتحدث مع أهلي كان بجانبي والد أبي هاجوس، وقد حضر عنده كهل متقدم في السن، ورجل آخر مع ابنه الصغير، كان الوضع يسير بشكل طبيعي، حتى سمعت صراخ والد أبي هاجوس بشكلٍ هستيري مع أحد أفراد الشرطة الأردنية مطالبًا بدخول ابنه للزيارة، وتبيَّن لي من خلال الحديث بينه وبين الشرطة أنَّه لا يحمل إثباتًا للهوية، لكنَّه رغم ذلك كان في كل مرة يدخل للزيارة.

حينها تجمع أفراد الشرطة حوله للإمساك به وتهدئته، لكنَّه كان مندفعًا وقد رفع صوته لإسماع الضابط المسؤول عن الزيارات لعله يحلّ المشكلة له، لم تمرّ

لحظات حتى حضر أحد المسؤولين عن قسم الزيارات بلباس عسكري أبيض مخصص للمكاتب، وهدأ (علي) الوالد، وغدا يتحدث معه وهو يمشي راجعًا للكبينة، لكن لم تمرّ برهة من الزمن حتى انفعل (علي) الوالد مرة أخرى صارخًا: إنَّها ليست المرة الأولى، يجب أن يدخل، لا بُدَّ أن يدخل.

في هذه الأثناء دخل (أبو هاجوس) الابن القاعة مسرعًا قادمًا من التفتيش، دون أن ينزع الأصفاد عن يديه لسماعه صراخ والده، واللهجة الحادة للعسكري ذي اللباس الأبيض، فتوجه أبو هاجوس إلى الشرطي ذي الزي الأبيض الواقف أمام أبيه ودفعه بقوة وهو يقول: إياك أن ترفع صوتك على والدي.

ما إن رأى الشرطة الموجودون في القاعة المشهد، حتى انقضوا على أبي هاجوس ووالده انقضاض الصقر على فريسته، وراحوا يوسعونه ضربًا أمام الأهالي، وكأنَّهم كانوا ينتظرون هذه الهفوة منذ زمن.

حاول أبو هاجوس ووالده النهوض وصدّ ضرباتهم، ولكنَّهم فشلوا وتمّ إخراجهما عنوة من القاعة، وأقفل الشرطة باب القاعة وراءهم، هنا دبَّ الخوف والفزع في قلوب الأهالي والسجناء، فتدخلت الشرطة النسائية لتهدئة الوضع، وأمروا عائلة أبي هاجوس بالانصراف فالزيارة قد ألغيت.

لكـن الوضـع لـم يعـد إلـى طبيعتـه، فلم تمـرُّ لحظات على خـروج العائلـة حتـى سـمعنا صراخًا عاليًا جـدًّا لامـرأة يتخلَّله ضجيـج وارتطـام أشـياء كثيـرة قادمًـا مـن قاعـة الاسـتقبال وانتظـار الأهالـي، ممَّـا جعـل الشـرطة يندفعـون بسـرعة إلـى القاعـة، ولكـن سـرعان مـا عـاد الوضـع هادئًـا مـرة أخـرى.

صدفـة كان أحـد أفـراد عائلتـي وهـو أخـي موجـودًا فـي قاعـة الاسـتقبال، وشـاهد المنظـر بـأمِّ عينيـه، ومـا إن جلـس أمامـي حتـى بـاح بمـا فـي جعبتـه، وروى لـي المشـهد بأكملـه، حيـث قـال لـي: بـأنَّ الرجـل الـذي كان يـزور (علـي) والـد أبـي هاجـوس خـرج مـن قاعـة الزيـارات غاضبًـا، بعـد أن رأى عائلتـه قـد تـمَّ استـهدافها باسـتهتار واضـح، وهـو ما بـثَّ روح الدفـاع عـن عرضـه وعائلتـه، فمـا إن خـرج ورأى إحدى نسـاء عائلتـه تهـمّ بالدخـول إلـى مبنـى الزيـارات حتـى حـاول دفعها للخـروج مـن المبنـى لئـلَّا تُصـاب بمكـروه.

عندهـا تدخل أحد أفراد الشـرطة من خـارج القاعة صارخًا فـي وجهـه باحتقـار، مطالبًـا إيـاه بالتزام الهـدوء، فاشـتبك معه بالأيـدي وهـو يحاول الخروج مـن القاعة وإخـراج أقاربه، إلَّا أنَّ الشـرطي قـام بطرحـه أرضًا بعنف، واسـتدعى شـرطي آخر لمسـاعدته فـي تكبيل شـخص أعـزل لا حول لـه ولا قوَّة.

عندهـا تدخلـت امرأة مـن العائلـة محاولة تخليـص الرجل مـن بيـن يـدي الشـرطة، إلَّا أنَّ الشـرطي طلـب عـون الشـرطة النسـائية وتدخلـت فـورًا، ولكـن كانـت ردَّة فعـل المـرأة

-بسبب هول المنظر الذي شاهدته- عنيفة، حيث صفعت الشرطية.

وفي هذه الأثناء قام الشرطي بسحب الرجل وهو مقيّد من معصميه على البلاط، أمام أعين العوائل التي انتابها الخوف والفزع بما هو آتٍ.

لم يكن مصير المرأة أفضل من مصير الرجل، فقد تقدم عدد من أفراد الشرطة النسائية، وطرحوا المرأة أرضًا، وقيدوها بالأصفاد، في مشهد لا يقل عن المشاهد التي نراها في فلسطين المحتلة مع القوات الصهيونية -تمَّ توثيق هذه الرواية من أبي هاجوس نفسه، وأحد الإخوة الذين كانوا معه في الزيارة-.

فعلَّقت قائلًا: إذًا كلامك يا علي جمال صحيح، يفيد أنَّه تمَّ التنكيل بالعائلة بشكلٍ فظيعٍ دون مراعاةٍ لمشاعرهم المتأججة، إثر ما تعرَّض له ذووهم السجناء من ضربٍ وحشي ومعاملةٍ لا إنسانيةٍ أمام أعينهم وأعين الناس، ولكن لم تكن طريقة الاحتجاج من قِبل السجناء في المبنى حسب تقديري صائبة لنواحٍ عدة:

أولها: انجرار بعض الشباب وراء خبر لم يتحققوا من صحته، رغم كون بعض جزئياته صحيحة، أدَّى إلى انسياقهم خلف غضبهم دون التفكير في العواقب.

ثانيًا: تقديم خدمة على طبق من ذهب للنظام الذي كان

يتحيّـن الفرصـة السـانحة للانقضـاض علـى السـجناء كالسـبع الضـاري، فـكان له مـا أراد.

وثالثًـا: طريقـة اسـتغلال الحـدث وضعنـا فـي حلقة ضعف بعـد أن كنَّـا فـي موقع قـوَّة، فبسـبب اختلاف مكونـات مجتمع السـجن، وتقاطـع المصالـح والأهـداف، لـم يتـمّ اسـتغلال الحـدث بصـورة صحيحـة تحقـق المكاسـب التـي لطالمـا سـلبت مـن السـجناء؛ بـل حصـل العكـس نزعـت منَّـا كلّ الحقـوق، ونزلـت علينـا كل الويـلات والمآسـي مـن نظامٍ مجرمٍ كان ينتظـر ذلـك منـذ زمـن طويـل.

قاسـم: اسـمحوا لـي أن أقـول لكـم: إنَّكـم تنظـرون إلـى الأمـور مـن زاويـة ضيقـة، وأنا لا أتفـق معكم فيمـا ذكرتم، فما حـدث فـي السـجن ثـورة بسـبب تراكمـات التضييـق وسـلب الحقـوق والعـذاب.

أبـو غايـب: أمـا أنـا فأتفـق مـع رأي علـي جمـال وجهـاد، وأنَّنـا يجـب أن نراجـع الحـدث، ونتعلـم منـه درسًـا، رغـم قناعتـي السـابقة.

أبو محمد: وأنا أتفق معكم حول هذه النتيجة.

فقلت متعجبًا: نعم؟! وأين هو أبو علي؟!

أبـو محمـد: لقـد أُخـذ عنـوة فـي الليلـة الأولـى إلـى مبنـى (10) والأخبـار التـي تصلنـا عنهـم علـى لسـان الشـرطة الأردنييـن ليسـت جيـدة.

علي جمال: ليكن الله في عونه، إنَّها ضريبة نشاطه الحقوقي.

فجأة رأينا السجناء يتوافدون أفواجًا إلى الخيمة، تبعها صراخ المتعجرف (عمر): نوم، أمر نوووووم، مبديش أشوف حدا صاحي (لا أريد رؤية أحد مستيقظ) أمر نوووم الكل ينام. أنهينا النقاش كي لا نقع في فخ العملاء المندسّين.

في هذه الليلة انضم وكلاء أردنيون جدد إلى النوبة إلى جانب الوكيل عمر والوكيل أحمد، أحدهم يشبه عمر كثيرًا، وهو أخوه واسمه محمد. والثاني متوسط الطول، قوي البنية، أشقر الشعر، بشرته بيضاء، مائلة إلى الحمرة، لا يُرى ضاحكًا، صارم وعنيف، وقال عنه أحد أقرانه بأنَّه يجيد فنون القتال، وذو خبرة في هذا المجال واسمه (أشرف).

لم أنم تلك الليلة مبكرًا؛ بل سرحت أفكر في النقاش الذي دار بين الإخوة، والتفاصيل التي انكشفت من الحدث، وخاطبت نفسي قائلًا: لو تعاملت الشرطة بحكمة وروِيَّة في قسم الزيارات لما حدث ما حدث، ففي الوقت الذي يفترض أن يلتزم من يسمّون أنفسهم برجال الأمن أقصى درجات ضبط النفس والحكمة وعدم الانجرار وراء الانفعالات، تعاملوا بشكل لا إنساني مع السجناء والأهالي رغم أنَّ وزارة الداخلية تصدح ليل نهار وتتشدّق بأنَّ منتسبيها يتلقّون أفضل أنواع التدريب، ويلتزمون أقصى

أنـواع الانضبـاط وضبـط النفـس؛ إلَّا أنَّنـا لا نرى تطبيقًـا عمليًّا لهـذا الأمـر.

فطـوال فتـرة سـجني التـي قاربـت السـنوات الخمـس ومنذ يـوم اعتقالـي حتـى الآن لـم أرَ سـوى حبرٍ علـى ورق، وصراخ إلـى عنـان السـماء، وتشـدّق يتبعـه مصيبة بعد أخـرى، وحدث بعـد آخـر، ونازلـة تلـوَ نازلـة، فلـم يكـن يمـرّ يـوم دون وجـود مشـكلة أو أزمـة أو مصيبـة أو محاكمـات لرجـال الشـرطة، ولكنهـم يدخلـون السـجن لفتـرة قصيـرة، ثـم يبـرّؤون وينالـون التكريـم والتبجيـل ووضـع الأوسـمة والرتـب، مكافـأة لهـم علـى التنكيـل بشـعبٍ أعـزل.

«فيـمَ تفكـر يـا جهـاد، نـم أو تظاهر بالنـوم قبـل أن تقتنصك أعيـن أحـد المرتزقـة، ويوسـعونك ضربًـا بتهمـة عـدم النـوم» قالهـا صديقـي أبـو محمـد المسـتلقي بجانبـي.

أجبتـه: صدقـت يـا أبـا محمـد، لننـم قبـل أن نصبـح وجبـة يتلـذَّذ بهـا هـؤلاء الوحـوش، تصبـح علـى خيـر.

فـي تلـك الليلـة غرقنـا في نـوم عميـق، لكنَّه لم يـدم طويلًا، إذ اسـتيقظنا علـى صـراخ الوكيـل عمـر عنـد بـاب الخيمـة: اسـتيقظوا يـا كلاب، طابـوور، الـكل يصحـى، كلّـو علـى الطابـور، ولا واحـد يظـل جـوّا الخيمـة.

رغـم أنَّنـا لا نمتلـك سـاعة، ولكـن الجميـع كان يشـعر بالتعـب، لأنَّنـا لـم ننـم طويـلًا. فقـد أقيـم الطابـور فـي وقـت

مبكر، كان الجو باردًا جدًّا! ممَّا جعل أحد السجناء يطلب من الوكيل عمر السماح لنا بحمل البطانيات، واستجاب لذلك لأول مرة، وفسّر البعض ذلك أنَّنا سنتأخر في الطابور.

فجأة حضر الغراب الذي تأتي معه المصائب (الضابط شاهد) مع عدد من أفراد شرطة الإدارة، وعدد من أفراد المرتزقة، وتوجهوا إلى الخيمة، وراحوا يفتشونها من الداخل والخارج حيث استغرقوا في ذلك وقتًا طويلًا حتى رُفع أذان الفجر، والوكيل عمر يقوم بعملية العدّ ويهدّد الشباب الذين يسترقون النظر إلى الخيمة بالتعذيب والضرب، واستمر بمنع السجناء من الوضوء والصلاة صارخًا: الصلاة بعد الطابور.

وفجأة جاء أحد أفراد شرطة الإدارة يهروّل باتجاه الوكيل عمر والضابط شاهد حاملًا في يديه كيسًا بلاستيكيًّا يمسكه بقوة، كمن وجد كنزًا، وهو يصرح: نعارات سيدي!! نعارات.

كلمة لم يفهمها أحد من الحاضرين؛ بل تبادلوا نظرات الاستغراب والتعجب، وهم يستفسرون من بعضهم عن معنى تلك الكلمة، والوكيل عمر والضابط شاهد يتفحصون محتويات الكيس بعيدًا عن أعين السجناء، حيث كانوا يقفون مستدبرين السجناء بظهورهم؛ لكن المفاجأة الأعظم هي أنَّ شرطيًّا آخر من شرطة إدارة الساحة الشمالية جاء قادمًا من الساحة الجنوبية حاملًا في يده كيسًا آخر، ووجهه يتهلل فرحًا، وهو يصرخ: سيدي، سيدي، تلفون!

- 30 -

نعارات! هاتف! ومجزرة ماء

25 مارس/آذار 2015 فجرًا

(نعارات! تلفون! واضح أنَّ الاحترام الزايد مش كويس معاكم، لمين النعارات؟ لمين النعارات؟ محّد بدو يعترف؟ معاكم دقيقتين إذا ما حدا اعترف راح تذوقوا كلكم الويل) قالها الوكيل عمر بغضب، وقد احمرَّت أوداجه، وكأنَّه بركان سينفجر، كان يخطو خطوات سريعة ابتداءً من بداية الصفوف حتى نهايتها كالثور الهائج.

وقف أحد السجناء، وقال له: يا عمر أفندي، نحن لا نعلم أصلًا ما هي النعارات، ولم نرَ ما بالكيس الذي وجدتموه، فكيف تحاسبنا على شيء لا نعلم ما هو!

صرخ الوكيل عمر بفظاظة وعنجهية: لا تعمل عليَّ زيّ الأبله، نعارات، سكاكين، موسى، لشو عاملينها؟ لمين النعارات اعترفوا؟

لم يجبه أحد؛ بل استولى الصمت علينا بأنيابه، ينهش قلوبنا برعبه من نعيق غراب بشري يتوعدنا بالويل والثبور، وهو الضابط شاهد.

كنت أنظر إلى الأُفق أفتش عن شعاع الشمس تطرد الظلام وتنبئني بانتهاء وقت نوبة هؤلاء الوحوش، إلَّا أنَّ السماء كانت غائمة، على الرغم من ذلك انتهى وقت نوبتهم، ولكنَّهم أبوا أن يغادروا دون إكمال جريمتهم.

وهل أرجو خيرًا من النوبة القادمة، وقد دخل أحد أفرادها الساحة وهو الوكيل عبد الله، وراح يصرخ: نعارات؟! تلفوون؟ شو يا إخوان بدكم تهاجمونا.

هبَّت رياح الموت البارد، ودقت ساعة الصفر، وصرخ الوكيل عمر بانفعال شديد: عم تتستروا على بعض؟ طيب يا كلاب، راح تشوفوا يوم أسود ما راح تنسوه.

قالها الوكيل عمر، ثم أرغم السجناء على إرجاع بطانياتهم إلى داخل الخيمة، واستدعى شرطة المبنى حاملين في أيديهم جهازًا لكشف المعادن من أجل التفتيش، يرافقهم الوكيل أحمد، البومة التي دخلت الساحة، كان يحمل خرطوم ماء أخضر نزعه من أحد الحمامات، وراح يلوح به في الهواء، وكأنَّه سيف الثأر وصرخ: اليوم راح نعمل لكم حفلة، هذا الصف، الكل يشلح أواعيه.

قالها الوكيل أحمد مشيرًا إلى أول صف على يسار

الساحة، آمرًا إياهم بخلع ثيابهم، فتباطأ البعض، وامتنع الآخر، فتقدم الوكيل أحمد، وراح يجلد بوحشية وعنف كل من لم يخلع ثيابه، فاستجابوا تحت سطوة إرهابه وتعذيبه.

خلع كل من بالصف ثيابهم وأبقوا السراويل الداخلية، تقدم أول سجين بالصف إلى مقدمة الطابور ليتمّ تفتيشه من قبل شرطة المبنى بالجهاز، والكآبة على وجوههم، والوكيل عمر مع عدد من أفراد الدرك الأردني واقفون عند حنفية ماء الشرب البارد الواقعة قرب مدخل الساحة الشمالية يسار الساحة، والوكيل عمر يملأ دلوًا من الماء.

ترى ما الذي ينوي هذا المجرم فعله بهذا الماء البارد في هذا الجو القارس؟ قلتها في نفسي.

ما إن انتهى السجين من التفتيش، حتى صرخ عليه الوكيل عمر آمرًا إياه بالتوجه نحوه: «على بطنك» صرخ، كان السجين ينظر إليه بدهشة! «على بطنك بسرعة!!» أعاد قوله، لم يجد السجين بُدًّا من ذلك، واستلقى على بطنه على الإسفلت البارد، ثم قام الوكيل عمر بسكب دلو ماء بارد على جسد السجين العاري، فانتفض وارتجف مثل سمكة تحتضر أُخرجت للتوّ من الماء!

كان مشهدًا وحشيًّا لا يمتُّ إلى الإنسانية بصلة؛ بل حتى الحيوانات لا تتعامل هكذا، كان الوكيل عمر يحرص على أن لا تسقط قطرة واحدة بعيدًا عن ذلك الجسد، وقد أصبح

سرواله الداخلي لا يستر حتى عورته بعد أن تبلل بالماء، مشهد لم يتحمل رؤيته كثير من السجناء؛ بل أشاحوا ببصرهم بعيدًا عنه، بينما تلذّذ الوكيل عمر وأفراد الدرك الأردني به؛ بل وضحكوا عليه.

بعد ذلك أمر الوكيل عمر السجين بالتدحرج على الإسفلت والوحل مسافة عشرة أمتار تقريبًا إلى زاوية الخيمة، وأنا أسأل نفسي: هل هذا حلم، أم حقيقة؟! هل استيقظت من النوم أم لا أزال نائمًا؟ ماذا يفعل هؤلاء الوحوش بنا، ألسنا بشرًا؟

كرر الوكيل عمر الأمر نفسه مع كل من كانوا في الصف الأول، وبدأ بالصف الآخر، إلَّا أنَّه أمر أول سجين سكب الماء عليه بسكب الماء على زملائه السجناء، جاعلًا أحد أفراد الدرك الأردني حرسًا على رأسه، ثم التفت إلينا وقال: سأعد إلى الثلاثة، وأريد من الجميع أن يخلعوا ثيابهم، واحد. بدأ البعض بخلع ثيابه ببطء، والآخر يتبادل نظرات التعجب والدهشة وكأنَّهم يسألون أنفسهم: ألن يستثني أحدًا؟!

صرخ الوكيل عمر: اثنان. خلع معظم الناس ثيابهم، (ثلاثة) لم يبقَ أحد سواي مع عدد أقل من عدد أصابع اليد، كان بعضهم مرضى أو كبارًا في السن، إلَّا أنَّ الوكيل عمر لم يستثنهم، فاستجبنا له مجبرين حتى لا نقع في فخه .

كنت أسأل نفسي مقهورًا: لماذا نستجيب له؟ لماذا لا نعصي أوامره؟ لماذا القنوط؟ لماذا الاستسلام لهذا الطغيان؟؟! كنت أتمنى أن أرى بصيص أمل لعصيان أمره ولو صغيرًا ليكبر، ويقف أمام هذا الإرهاب، ولكن كيف يستطيع مجرد مستضعف أن يقف أمام جيش جرارٍ مدجج محتشد؟؟!

في أول الأمر، عندما بدأ الطابور، كنت منكمشًا على نفسي من البرد، وأنا ألبس ثيابي واضعًا بطانيتي على جسدي، أما الآن بعد أن خلعت ملابسي فالبرد يقطع قلبي ويفرم أعضائي، ويميت حواسي، وينزع روحي من جسدي العاري، كنت أضم ركبتيّ إلى صدري، وأضع يدي بينهما لعلي أنال بعض الدفء من اصطكاك أعضائي وتشرنقي على نفسي؛ لكن جسدي تحول إلى كرة ثلج لا تحمل أي ذرة من ذرات الحرارة، فكيف بي وقد حان دوري لأتقدم إلى منصة الذبح برجلي؟! لأذوق زمهرير الماء المتعطش لجلد يلسعه ببرودته القاسية، لكنني رفضت تلك المهزلة وذاك العذاب، رغم علمي أنَّ ذلك كان بمثابة الانتحار.

وقف السجين الذي أرغمه الوكيل عمر على سكب الماء حائرًا منكسًا رأسه خجلًا منِّي معتذرًا، فتقدم الوكيل أحمد نحوي رافعًا خرطومه الأخضر في الهواء، هاويًا به على جسدي العاري بضربة نهشت لحمي، وقطعت نفسي، وأسقطتني أرضًا، وجعلتني فريسة لضرباته اللاحقة، كان

الخرطوم يغوص في جسدي العاري، مغتالًا ما تبقى حيًّا من روحي التي كانت تحتضر، صرت أتلقاه بصمت، لأنَّ البرد أفقدني كل حواس الألم، أو ربما كان الألم أشدّ من أن تلحقه صيحة، أو تنقضه حركة، مثل نزع روح استسلمت لملك الموت.

كانت الضربات تستهدف وجهي، وأنا أطوق رأسي بذراعيَّ، وأستقبل الضربات بجسدي ويديّ، حتى صرت جثة هامدة، ودوَّى صفير في أذني، واجتاح الضباب عيني، وتذوقت طعم الموت، وشعرت أنَّ روحي تحاول التحرر من جسدي.

إلَّا أنَّ أمرًا عجيبًا حدث لا أفسره سوى باللطف الإلهي الذي انتشلني من نزعات الموت، ممَّا جعلني لا أحرّك ساكنًا عندما سكب ذلك السجين الماء البارد عليَّ، مثل ميت يغسل فوق المغتسل، وما جعلني أتحمَّل عذاب الضرب الذي رسم الخرائط على جسدي، وعذاب الماء البارد في هذا الجو القارس إنَّها الرحمة الإلهية.

تدحرجت وانضممت إلى باقي إخواني السجناء الذين نالهم العذاب عند زاوية الخيمة، وهنا أبى (المجرم أحمد) إلَّا أن يكمل إجرامه، فتقدم نحونا وأمرنا بالوقوف والجري في مكاننا، وهو يقول: بدي صوت يزلزل المكان، اصرخ واحد اثنان ثلاثة، الله!! في استهتار واضح بلفظ الجلالة، لم تعجبه أول صرخة، فلوّح بالخرطوم أمام ظهورنا الرطبة وهو يصرخ: أعلى، أعلى..

كان الوكيل أحمد وعمر والضابط شاهد يتلذذون بهذا المشهد بالتشفي بنا، فآلامنا كانت ترضي غرورهم وطغيانهم، ورؤية الدموع في أعيننا تسرّهم، لم نكن وحدنا نبكي؛ بل حتى السماء بكت علينا بانهمار المطر، وليس السماء فقط من بكت علينا، فقد شاهدنا الدموع في أعين بعض شرطة المبنى الذين لطالما عاشوا معنا، ورغم كونهم سجانين، إلَّا أنَّ الإنسانية لم تمت في قلوبهم كما ماتت في قلوب هؤلاء الوحوش.

كنَّا نصطك ببعضنا بعضًا لتنال أجسادنا بعض الدفء، إلَّا أنَّ ذلك لم يجدِ، فما إن يجف الماء عن أجسادنا العارية، حتى يقوم الوكيل أحمد برشنا به مرة أخرى، حتى إن بعض السجناء تبولوا على أنفسهم من فرط البرودة. لقد اجتمع علينا كل شيء: الماء البارد، المطر، الهواء، البحر القريب، الرياح التي فتكت بنا. عرفنا ماذا يعني أن يتجمّد الدم في العروق، ماذا يعني أن يموت أحد متجمّدًا من البرد. لقد أغشي على المعتقل السياسي والمصوِّر (حسين حبيل) بينما كان يُسكب عليه الماء البارد، جسده الضعيف، وقلبه المريض لم يتحمَّلا. انقطع نفسه وغاب عن الوعي.

- 31 -

عراة تحت الماء البارد

25 مارس/آذار 2015 صباحًا

بـانَ الخيط الأبيض من الخيط الأسـود مـن الفجر، وها هو الظـلام يسـحب بوهـنٍ أطـراف عباءتـه، والنـور يكمل انتشـاره متسـللًا مـن خلـف الظـلام يكشـف بخجـل عن أجسـادنا شـبه العاريـة، ونحـن فـي حالة يُرثـى لها.

لقـد قـرأ هـؤلاء الوحـوش فـي كتـاب اللـه الكريـم: ﴿لَيْسَ عَلَـى الْأَعْمَىٰ حَـرَجٌ﴾[1] لكنَّهم عـرّوا المعتقل (جعفـر معتوق) ـ معتقـل كفيـف لم يتجـاوز 24 عامًا، حكم لمدة عشـرة أعوام على خلفيـة قضايا سياسـيةـ.

وقـرؤوا: «ليس علـى المجنون حـرج» ولكنَّهم لم يسـتثنوا المعتقـل (خليـل) المصـاب بتهشـم فـي الجمجمـة، وأُجريت لـه عمليتـان في رأسـه نتيجـة للتعذيب.

(1) سـورة النور، الآية 61.

وقرؤوا: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1] لكنَّهم لم يرحموا المعتقل المصور حسين حبيل (23 عامًا) المريض قلبه. وبعد أن أغشي عليه صار الوكيل أحمد وعمر في قلق واضطراب، وأمرا سجينين أن يُلبسوا (حسين حبيل) ثيابه ويحملوه إلى العيادة.

لم يكن (حسين) كبش الفداء لتوقف هذه المجرزة؛ بل تمّ استبعاد بعض المرضى فقط، واستمر الوكيل المجرم في طغيانه. تحولت أجسادنا إلى اللون الأزرق تشوبها حمرة متورّمة من سياط الوكيل أحمد.

كان الصراخ والعويل يدوِّي في أرجاء الساحة مع صراخ لفظ الجلالة، لا يهدأ إلَّا ويسمع صوت اصطكاك أسناننا بشدّة من البرد القارس، وكأنَّ حربًا قد شبَّت بين الأسنان العلوية والسفلية.

لكن المفاجأة التي نزلت كالصاعقة على رؤوسنا، وجعلتنا نتيقن أنَّ كل ما يحدث ليس صدفة أو حدثًا مفاجئًا، ذلك الضابط البحريني الأسود الذي يصوّر كل ما يجري علينا بكاميرا هاتفه الخاص من فوق سطح المبنى، ووجهه يتهلل فرحًا، إنَّه الملازم الأول عبدالله عيسى المعروف بعنصريته وطائفيته، وحقده على السجناء عامة وعلى المعتقلين السياسيين خاصة، فهو لطالما تلذّذ باستهداف السجناء وعوائلهم بشتى الطرق والأساليب.

---

(1) سورة النور، الآية 61.

في الساحة الأخرى كان وطء التعذيب أشدّ وأقسى، فالذريعة الكاذبة هي اكتشاف جهاز هاتف، لكن نزع السجناء ثيابهم لم يكن لغرض التفتيش، فهم لم يفتشوا أصلاً؛ بل كانت تعريتهم لغرض التعذيب بإشراف الوكيل عمر، وعلى يد أخيه الوكيل محمد وأحمد وأشرف.

لم تكن طريقة التعذيب مغايرة لما حدث في الساحة الشمالية، لأنَّ التعذيب لم يكن تصرفًا شخصيًّا؛ بل تعذيبًا ممنهجًا بأمر من الإدارة بكل مكوناتها الإدارية، وأمام أنظار ضباطها. وبعد الانتهاء من صبّ الماء البارد على الأجساد العارية والتدحرج في الوحل، أرغم الجميع على المشي بهيئة البطة في حلقة مربعة الشكل، نقطة البداية كانت من السياج، وكان على الجميع أن يمرّوا من تحت الحنفية، حيث يقف أحد أفراد المرتزقة واضعًا عصاه بشكل أُفقي منخفض، مرغمًا السجناء على المشي تحت الماء أولًا ثم تحتها، وفي حال قام السجين بلمس العصا ولو قيد أنملة، ينهال عليه المرتزق ضربًا بعصاه على جسده الذي تبلّل للتو بالماء، كان المرتزق يركز ضرباته على الظهر والمؤخرة، ممَّا أدَّى إلى تمزّق السروال الداخلي لأحد السجناء من قوة ضرباته، فأصبحت مؤخرته عارية.

وفي نهاية الساحة تنتظر المساجين ضربة قاسية لمرتزق آخر واقف عند الحائط. بينما وقف رئيس عرفاء أردني

تعلو وجهه ابتسامة خبيثة، يحمل في يده خرطوم ماء، يلوّع به كل من يصل إليه بقسوة ووحشية قلَّ نظيرها.

الحلقة لا تنتهي هنا، فما إن تصل إلى نقطة البداية حتى تبدأ دورة جديدة من العذاب.

مرت الساعات بطيئة ثقيلة الخطى، حتى أشرقت الشمس، وآن الأوان لانسحاب النوبة الليلية من الساحة، فأجلسوا السجناء بشكل عشوائي في مساحة ضيقة، وكأنَّنا في حظيرة غنم، ثم صرخ الوكيل عمر: دقيقة واحدة، والكل يلبس أواعيه. آمرًا إيانا بلبس ثيابنا بسرعة تعجيزية، فتهافت السجناء بأقصى سرعة إلى كومة الثياب المنقعة بالماء، ولبسوا أي ثياب تستر عورتهم، وإن لم تكن ثيابهم الخاصة بهم، خوفًا من تجدد العقاب عليهم، وهكذا لم يلبس إلَّا القليل منهم ثيابه.

انسحبت النوبة الليلية بعدما لم يبقَ أثر للظلام، لكن لم ينسحب معهم الإجرام، حيث دخل أفراد النوبة الصباحية بعدما زادهم تحريض النوبة الليلية حقدًا فوق حقدهم وكراهيتهم للسجناء.

دخلوا الساحة مع عدد من أفراد المرتزقة، من بينهم الشرطي اليمني محمد الزقري، يتقدمهم الوكيل فارس ممسكًا بيده جهاز الإرسال، ومرتديًا نظارته الشمسية، وعلى وجهه علامات البلادة واللامبالاة، ومن خلفه

(الوكيل محجم) يحمل في يده اليمنى خرطوم الماء الأخضر، نفسه الذي تلطخ بدمائنا على يد الوكيل أحمد، وفي يده اليسرى ورقة ما.

أخذ يقرأ الأسماء، إنَّها التحركات الخارجية استأنفتها إدارة السجن (محكمة، نيابة، مستشفى). أحضرت وجبة الإفطار، وضعت أمام كل سجين، وسط تهديدات قوات المرتزقة لمن لا يمدّ يده ويأكل الطعام، أكل البعض وامتنع الآخر متعذرًا بالتعب أو الذهاب إلى الحمام، فوعد عدد من أفراد المرتزقة السجناء بأخذهم إلى الحمام إذا أكلوا. أوفوا بوعدهم بخصوص الحمام؛ لكنّهم غدروا بهم، فما إن دخل السجناء إلى مدخل الساحة المؤدي إلى الحمام حتى تعالت أصوات صرخاتهم وآهاتهم وعويلهم. عاد السجناء شبه عراة، ليس عليهم غير ملابسهم الداخلية، حاملين ثيابهم في أيديهم.

عندها خرج المرتزق اليمني محمد الزقري إلى الساحة صارخًا: والآن من يريد الذهاب إلى الحمام؟ رفع عدد من السجناء أيدهم غير آبهين، وكأن لسان حالهم يقول: ما الذي يمكنك أن تفعله أكثر مما فعلت من تعذيب وتهديد ووعيد، فاقضِ ما أنت قاضٍ إنَّما تقضي هذه الحياة الدنيا.

في هذه الأثناء خرج رئيس العرفاء عبد المطلب إلى الساحة واضعًا يده على رأسه، ماسحًا بها وجهه الذي تعلوه علامات الذهول، فبادره أحد السجناء بطلب الذهاب

إلى الحمام، تنهَّد عند ذلك عبد المطلب، وأخذ نفسًا عميقًا وقال: إن اردت الذهاب إلى الحمام فاذهب، ولكن أودّ إبلاغك بأنّي كنت عند مدخل الحمامات، فلم أتحمَّل رؤية ما يحدث هناك، وهربت من هول ما رأيت. قال ذلك مشيرًا إلى بشاعة ووحشية التعذيب للداخلين إلى الحمام والخارجين منه على يد قوات المرتزقة، وبإشراف مباشر من الضباط الأردنيين والبحرينيين.

كل التجاوزات حدثت أمام أعين الشرطة والضباط والسجناء، وهناك شهادات من الضباط وأفراد الشرطة وقوات الدرك الأردني، ومجموعة كبيرة من السجناء نحتفظ بها، وقد امتنعت عن نشرها بطلب منهم.

إلَّا أنَّ إصرار السجناء وعزيمتهم على الذهاب إلى الحمام غير آبهين بالضرب كسر إرادة المرتزقة وأتعبهم وأنهك قواهم، فقلَّت وتيرة التعذيب شيئًا فشيئًا، لكنَّهم بدؤوا باستدعاء عدد من السجناء بشكل بربري ووحشي، وتعذيبهم تعذيبًا قاسيًا في ممر الحلاق، وكان بين هؤلاء المعذبين المرتزق اليمني محمد الزقري.

كان أحد الضحايا أحد معتقلي العاصمة (المنامة). استدعاه الوكيل محجم والعريف رامي، وظلّ واحد يصفعه عن يمينه وآخر عن شماله، بصفعات قوية متتالية، يسمع دويّها من مسافة بعيدة، حتى خرج من الساحة إلى المدخل المؤدي إلى الحمامات وممر الحلاق.

تبعه الشيخ جاسم الدمستاني، حيث استدعاه الوكيل محجم بهدوء، وأدخله ممر الحلاق وقال للمرتزقة: يا شباب ضيفوه، هذا الزلمة يسبّ الصحابة. متّهمًا الشيخ بسبّ صحابة الرسول الأكرم محمد (ص) ولكن ذلك لم يكن إلّا ذريعة للانتقام من دوره كعالم دين يلقي المحاضرات، وكان ذلك الادعاء كاذبًا.

لكن المرتزقة ما إن سمعوا ذلك حتى انهالوا عليه بالضرب الوحشي بهراواتهم وأحذيتهم الجلدية القاسية دون احترام لمكانته كعالم دين، حتى سالت الدماء منه، وكسرت يده، وتعالى صوت صراخه واستغاثته بالله، إلى أن خرج من الممر محلوق الرأس واللحية، ممزق الثياب ممسكًا خاصرته، قد تورمت يده وتلون جسده بين الأحمر والأزرق، وهو يعرج في مشيته، ويتألم من شدة الضرب الذي وقع عليه. كان في حالة يُرثى لها.

كان الاعتداء على الشيخ جاسم الدمستاني وهو في نهاية العقد الخامس، وحلاقة شعر رأسه ولحيته بابًا لبدء حملة لحلاقة رؤوسنا رغم أن شعرنا قد نما للتو بعد حلاقته في مجزرة الحلاق قبل أسبوعين.

دخل مرتزق يمني، قصير القامة، حليق اللحية والشارب، واختار عددًا كبيرًا من السجناء للحلاقة، حتى تشكل صف طويل داخل ممر الحلاق، أرغم السجناء على الجثو

على ركبتيهم ووجوههم مقابل الجدار، مع تلذذ المرتزقة بتعذيبهم بين فترة وأخرى.

وقف خلفه صف طويل أمام المدخل تحت أشعة الشمس الحارقة، كان بينهم أبو غايب، وبينما هو واقف إذ جاءه العريف رامي ذو الخيوط الثلاثة وسأله: أنت! يبدو على وجهك الإجرام، ما هي قضيتك؟! تسمّر (أبو غايب) في مكانه كالخشبة اليابسة، وجفّ ريقه، فهو لا ينسى الليلة الثانية عندما وقع في فخ الضابط البحريني وأوسعه ضربًا، سكت لوهلة، فصرخ عليه (رامي) بأعلى صوته: أكلمك يا كلب! أجبني ما هي قضيتك؟!

ردَّ (أبو غايب) وهو يتمتم ببضع كلمات خرجت بصعوبة: مـ مـ مـ مالية.

العريف رامي: وما هي قضيتك المالية؟!

أبو غايب: شيكات بلا رصيد.

رامي: قم وتعال معي.

سار أبو غايب خلف العريف رامي متوجسًا قلقًا حتى وصل إلى الحلاق، وجلس على كرسي الحلاقة، عندها قال العريف لأبي غايب: إنَّ هذا الحلاق يقول: إنَّ لديك هاتفًا فأين تخبئه؟ قالها العريف رامي مشيرًا إلى السجين الذي يحلق شعر أبي غايب، محاولًا الإيقاع بين الاثنين، بينما علت الدهشة وجهيهما.

التفت أبو غايب إلى السجين الذي يحلق له، وقال له بنبرة خوف: هل قلت إنَّ لديَّ هاتفًا؟

حرّك الأخير نظراته بين العريف رامي الذي كان ينظر شزرًا، وبين أبي غايب، وقال بحشرجة شديدة: لـ لـ لا، لم أقل.

صفع العرّيف أبا غايب على أذنه صفعة قوية، أحدثت فيها رنينًا كرنين الأجراس، وجعلته يتألم بشدة من أذنه التي ضعف سمعها لاحقًا، وقال: احلق له على الصفر.

في هذه الأثناء استغلَّ المرتزق اليمني القصير الوضع، وحوَّل الطابور إلى برنامج ماراثون وتسابق بين السجناء، كانت جائزته للفائز الإعفاء من صف الحلاقة الطويل، أو العودة إلى داخل الخيمة، ولكن ليست تلك الطريقة الوحيدة التي ابتكرها للمتعة والسخرية من السجناء؛ بل حوّل الطابور إلى مسرح للتمثيل المذل لاستهداف نفسية السجناء تحت سطوة التهديد والوعيد والتعذيب.

استدعى هذا المرتزق أحد السجناء من معتقلي (البلاد القديم)، وطلب منه الاستلقاء على الأرض قائلًا له: عليك أن تموت الآن. فامتثل الشاب اليافع لطلبه، واستلقى على الأرض، وأغمض عينيه وأسبل يديه، ومدَّ رجليه كهيئة الميت، ثم سحب إحدى البطانيات القريبة منه وقام بتغطية جسده بالكامل كالميت.

عندها قام بالبحث بين الجموع عن شخص بمواصفات معيَّنة، فوقع نظره على معتقل آخر من (قرية الماحوز) ذي لحية كثيفة، واستدعاه وقال له: يبدو أنَّك شيخ، فقم وصلِّ على هذا الميت. فلم يجد المعتقل بُدًّا من الاستجابة له، فبادر بأداء صلاة الميت عليه، وعند انتهائه من ذلك التفت إلى الجمع وقال: أقرؤوا الفاتحة عليه. فامتثل البعض لهذه السخرية والمهزلة، وامتنع آخرون.

لم يكن هذا المشهد الوحيد؛ عشرات المشاهد الأخرى توالت حتى صارت الشمس في كبد السماء، وبعد ست ساعات من الإذلال سمحوا لنا بالدخول إلى الخيمة.

دخل السجناء الخيمة منهكي القوى، رموا أنفسهم على الأرض الإسفلتية دون فراش، وغطّوا في نوم عميق، وكأنَّهم عادوا للتو من ساحة حرب طويلة، لم نهنأ بالنوم طويلًا، حيث فزعنا على صوت صراخ (الوكيل محجم) ينادي على قائمة أسماء.

دبَّ الخوف والفزع في نفوس الجميع منتظرين ما هو آتٍ، هل هو نقل إلى المقصب (مبنى 10) أم إلى المقصب الآخر وهو الإدارة؟!

- 32 -

الجرب

25 مارس/آذار 2015 ـ 1 أبريل/نيسان 2015

خمسة عشر سجينًا كانوا قد خرجوا بعد أن استدعاهم (الوكيل محجم)، دون أن يُبيِّن لهم الوجهة التي سيذهبون إليها، ما جعلهم في حالة خوف وقلق من المصير المقبل الذي لا يعرفون عنه شيئًا. تفاجأ السجناء بالمعاملة غير المعتادة والليونة التي أظهرها هؤلاء الوحوش. أخذ السجناء إلى المخزن أولًا للبس زي السجن الرسمي الرمادي (الدريس) والمفاجأة أنه كان جديدًا، ثم أخذوهم إلى الإدارة وانتظروا هناك طويلًا، وأدخل ثلاثة أشخاص منهم فقط إلى مكتب يجلس خلفه ثلاثة أشخاص، رجل وامرأتان! أحدهم الدكتور عبدالله الدرازي ـ حقوق الإنسان ـ والثانية ماريا خوري، والثالثة امرأة محجبة لم يعرف السجناء اسمها. وهم أعضاء في المؤسسة الملكية لحقوق الإنسان التي شكَّلها الملك بعد (تقرير بسيوني)

الذي كشف تجاوزات ووحشية النظام الممنهجة في قمع الثورة والاحتجاجات في 2011م.

كانت الغاية من إنشاء هذه المؤسسة تلميع صورة النظام المشوهة داخليًّا ودوليًّا حتى عند أقرب حلفائه، علمًا بأنَّ المؤسسة أعدَّت ثلاثة أو أربعة تقارير دورية سلّموها إلى الملك، ورئيس الوزراء، وولي العهد، ووزير الداخلية، ومجلس النواب. إلَّا أنَّ توصيات وملاحظات هذه التقارير لم تنفّذ لأنَّ تلك المؤسسة لا تعدو كونها مؤسسة صورية.

لم يتعدَّ اللقاء 20 دقيقة سأل فيها أعضاء المؤسسة السجناء الثلاثة عمّا حدث في 10 مارس/ آذار 2015م بالتحديد، دون الانتهاكات التي حدثت فيما بعد، لكن السجناء حرفوا بوصلة الأسئلة بإصرارهم على ذكر ما حدث لهم من 10 مارس/ آذار 2015م حتى مجزرة الماء التي حدثت فجر ذلك اليوم، ممَّا جعل دموع المرأة المحجبة تنهمر من عظم المأساة التي وقعت على السجناء. أخذ السجناء يستغيثونهم لتردِّي الوضع الصحي، وعدم استخدامهم الصابون للاستحمام منذ أكثر من أسبوعين، وطالبوا اللجنة الدخول إلى المبنى ورؤية ما يحدث بأعينهم. لكن الجواب كان أنَّ صلاحيتنا لا تسمح لنا بأن نخطو خطوة واحدة خارج مبنى الإدارة في مثل هذا الوضع.

تركت مجزرة (عيد الماء)، كما أسماها السجناء جرحًا

غائرًا في نفسيات السجناء بسبب المذلة والإهانة التي كانت أقسى من الضرب والتعذيب، إلَّا أنَّ خطرًا محدقًا كان يطاردنا بسبب تلك الليلة وما حدث فيها من فظائع أثَّرت بشكلٍ كبيرٍ على صحتنا، ولا أقصد فقط أمراض (الحمى والزكام) والالتهابات التي أصابت معظم السجناء بعد تلك الليلة.

فبعد يومين وفي تاريخ 27 مارس/ آذار 2015م اجتاحت موجة من (الحكّ) عددًا كبيرًا من السجناء في كل مواضع أجسامهم، وبالتحديد الأماكن الحساسة، وصلت إلى ذروتها حتى صار السجناء يخدشون أجسادهم بأظافرهم بقوة، إلى أن تنبعث الدماء منها.

لقد تفشَّى مرض الجرب المعدي ـ هو مرض جلدي معدي تسببه القارمة الجربية (sarcoptes scabiei) أنثى العث، وينتشر في ظروف العيشة المكتظة غير النظيفة ـ بين السجناء ممَّا جعل الشرطة في رعبٍ وخوفٍ شديدين، أفضى إلى ابتعادهم وهروبهم من السجناء.

كان المرض بمثابة الرحمة التي نزلت علينا من السماء، رغم مأساويته، لكنَّه كان أخفّ وطأة من عذاب المرتزقة وتعذيبهم النفسي الممنهج.

في ذلك اليوم لم يؤخذ للعيادة سوى سجين واحد، كانت حالته مزرية قد أكل المرض جسده، وأضحى جلده مثل التمساح من شدَّة ما وقع عليه، إلَّا أنَّه لم يعالج، ولم

يصرف له دواء؛ بل تحركت الإدارة بإصرار الضباط وشرطة المبنى ببدء التجارب على أجسادنا وصرف منظفات الحمامات، ومطهرات البلاط، ومنظفات أواني المطابخ، ليس رأفة بنا، ولكن خوفًا.

كان (ردّاد) يقوم بملء دلوين بالماء، ثم يقوم بسكب ربع لتر من مطهر الأرض (الديتول) في الدلو الأول، وعلبة واحدة من صابون الملابس (تايد) في الدلو الثاني، ويخلطهما بالماء، فتصبح مائعة، ثم يقوم بتوزيعها علينا بكميات ضئيلة رغم خلطها بالماء.

كان ذلك بسبب استهتار الإدارة بصحة السجناء، وعدم صرف كميات كافية للجميع، رغم ذلك كنّا نغسل أجسادنا وملابسنا بما يتوفر لنا، ثم نمشي تحت أشعة الشمس الحارقة لتجفيف ثيابنا، فنحن لم نكن نملك غيرها، إلّا أنَّ الإدارة وبسبب الضغط الإعلامي الشديد، بعد أن انتشر خبر تفشي مرض الجرب، سمحت بشراء الملابس الداخلية (فقط) من الدكان (الكانتين)، ومنعونا من شراء الملابس والصابون رغم توفرهما.

صرفت وزارة الداخلية مئات الآلاف من الدنانير لبناء أسوار إسمنتية عالية جدًّا فارهة الصنع حول الساحة الخارجية، بينما نحن بها، والمباني ومجمع السجن بأكمله، ولم تبدِ اهتمامًا بصرف مبالغ زهيدة لتوفير الاحتياجات الأساسية والضرورية للسجناء للحفاظ على صحتهم

وتوفير مستلزمات النظافة الشخصية والعامة، فالاحتياطات الأمنية التي اتخذتها للتضييق على السجناء أهم من التزامها القانوني والأخلاقي تجاه السجناء.

لم يكن مبنانا الوحيد الذي اجتاحه مرض الجرب، فالشباب الذين عادوا من التحركات الخارجية، نقلوا لنا تردِّي الوضع الصحي في المباني الأخرى بسبب استهتار الإدارة بتوفير المستلزمات الصحية، وصنوف التعذيب الجسدي الذي أدَّى إلى انتشار مرض الجرب.

مبنى رقم (1) كان له النصيب الأكبر من التعذيب كونه مخصصًا للأحكام الثقيلة، ونقلوا إلى مبنى (6) حيث تمَّ نصب خيمة لهم هناك، سجناء مبنى رقم (3) و(6) نقلوا إلى خيمة كبيرة قرب مبنى الزيارات، لكن المفاجأة أنَّ الإخوان الذين أخذوهم بحجة نقلهم إلى الصالة الكبيرة (اللنغر) نقلوا إلى خيمة نُصبت في مبنى رقم (3)، وهم من كنا نسمع أصوات صيحاتهم وصراخهم حتى في منتصف الليل، وقد اجتاح المرض أجسادهم بكثافة نتيجة إرغام المرتزقة السجناء على السباحة في مياه المجاري القذرة!!!

بعد أسبوع من مجزرة عيد الماء، وبالتحديد في يوم 1 أبريل/ نيسان 2015م ليلًا، هبطت عاصفة عنيفة، حشدت غيومًا سوداء وجاءت بكثبان رملية كثيفة اخترقت جدران الخيمة، وتغلغلت في كل أرجائها، وزلزلت أعمدتها، ولم يبقَ إلَّا أن تسقط الخيمة على رؤوسنا.

- 33 -

العاصفة...

1 ـ 2 أبريل/نيسان 2015

ريح صرصر عاتية، عاصفة عنيفة في ليلة الخميس 1 أبريل/ نيسان 2015 أثارت أمواجًا من الرمال، وحشدت غيومًا سوداء داكنة، فاختفت الجهات الأربع، وانعدمت الرؤية، وكأنَّ الساحة غاصت في بحر أصفر أثار الخوف والفزع في قلوبنا، واندفعت الرمال في أعيننا وألقمت أفواهنا.

أما الخيمة فقد تحولت إلى مقبرة جماعية، دفنَّا فيها ونحن نصف أحياء ونصف أموات، كان الجو خانقًا جدًّا، جاثمًا فوق صدورنا، كاتمًا على أنفاسنا نتيجة هجوم الرمال التي زلزلت أعمدة الخيمة، وأحدثت ارتجاجًا شديدًا في المصابيح والمراوح فسقط بعضها، وأمسك السجناء أعمدة الخيمة حتى لا تسقط على رؤوسهم.

وسط عذاب الطبيعة لم يكفّ المرتزقة عن عذابنا، ففي بادئ الأمر حاول (الوكيل عمر) إجبارنا على الجلوس داخل الخيمة في جوها الخانق، لكن سرعان ما فرَّ السجناء خوفًا وفزعًا من سقوطها على رؤوسهم، وسط ضجيج مقاومتها لشهيق الرياح وزفيرها المخيف الذي كان أشبه بتنفس وحش خرج للتو من معركة.

فرَّ السجناء إلى الساحة، وغطوا وجوههم بمنشفة أو بطانية أو قميص داخلي، إلَّا أنَّ طريقة تلثم السجناء بأقمصتهم الداخلية أرجع ذاكرة (الوكيل عمر) إلى ساحة الاحتجاجات في الميادين خارج السجن، أو ما حدث في 10 مارس/ آذار 2015 في المبنى.

فما إن اقترب ذلك السجين الذي يضع قميصه الداخلي كلثام حتى صرخ (الوكيل عمر) بشكل هستيري يدلُّ على الفزع: ابعد!! ابعد!! شيل اللثام عن وشّك. قالها وهو يلوّح بجهاز الإرسال في وجه ذلك السجين.

بقينا على هذا الحال ساعة كاملة، نتجرع طعم التراب، وكأنَّنا في قبر يهيلون علينا التراب فيه، إلى أن حضر ضابطان بحرينيان هما معاذ وعيسى إلياسي مع فصيل كامل من قوات المرتزقة من بينهم المرتزق محمد الزقري، وعدد من شرطة الإدارة يتصدَّرهم المرتزق عبد القوي، حضروا وحضر معهم البؤس والشؤم، فهذه الوجوه معروفة بالإجرام، أمرونا بجمع مقتنياتنا الشخصية لنقلنا إلى صالة

الطعام الكبيرة، وأجلسونا في طابور متلاصقين ببعضنا بعضًا في مساحة ضيقة، كل شخص ركبته في ظهر الآخر، ورغم جهوزيتنا إلَّا أنَّهم أبوا إلَّا أن يبقونا ساعة أخرى في تلك العاصفة حتى اصفرت وجوهنا، وبلعنا كثبانًا من الرمال، ثم بدؤوا عملية النقل بالتعذيب والضرب عن طريق اصطفاف المرتزقة صفّين، يمرُّ السجناء من بينهما بشكل متوالٍ كمرور الماء بين الأخاديد، وأيّ سجين يتأخر يتلقَّى جرعة زائدة من الضرب على يد المرتزق محمد الزقري.

أدخلنا إلى صالة الطعام الكبيرة (اللنغر Langar) التي تتألف من قاعتين لم تكفِ لعدد السجناء الكبير، فأرغمونا على التكدُّس على بعضنا بعضًا، بحيث لا يحصل السجين على مساحة أكبر من التي يحتاجها لجلوسه، ممَّا جعل بعضهم ينام وهو بتلك الهيئة، رغم ذلك امتلأت الصالة عن بكرة أبيها بسجناء خيمتنا فقط! فأخذوا الباقي إلى عنبر (5) والممرات التي حوله.

في الليل كان المرتزقة يسيطرون على الوضع بسبب تعب السجناء وإنهاكهم جراء العاصفة، لكن في الصباح دبّت الحيوية والنشاط فينا، فغدا الجميع يتنقل من مكان إلى آخر، يستكشف المبنى بهيئته الجديدة، كان جاهزًا بشكل كامل عدا عنبر (4) لم يجد السجناء أيًّا من مقتنياتهم الخاصة في الغرف التي تركوها قبل ثلاثة أسابيع، لا ملابس ولا أدوات نظافة ولا كتب؛ بل أرض قاحلة لا يوجد

فيها سوى حديد الأسرّة والبلاط، والباقي كله ذهب إلى مكب النفايات، أو صار غنيمة حرب.

أمرٌ أشعر معاذ ورداد وفارس الذين حضروا في نوبة الصباح بغضبٍ شديدٍ وعدم ارتياح، فوسط هذا النشاط المفعم بالحيوية واكتظاظ كهذا في مساحة ضيقة أفقدهم السيطرة على الوضع، فغدا السجناء لا يستمعون لأوامرهم، ولا يمتثلون لتعليماتهم، وكأن ما تمَّ بناءه في ثلاثة أسابيع قد هدم في ساعات، كان بمقدورهم إبقاؤنا بين أسوار المبنى حتى الانتهاء من صيانته، لكنَّهم أرجعونا إلى الخيام ليلًا حتى يحكموا سيطرتهم على السجناء من جديد، ويتمكنوا من ممارسة طغيانهم عبر الطوابير العسكرية والتعذيب والإهانات.

في مثل هذه الأيام، وبعد أن تمَّ نشر اسم المجرم (الوكيل عمر) في الإعلام، تمَّ نقله لتوقيف الحوض الجاف، واستبدال معظم أفراد نوبته، فأصبح (الوكيل أشرف) مسؤول النوبة مع وكيل آخر، أبيض البشرة، متوسط الطول، قصير الشعر، له كرش متدلٍّ، واسمه (أبو زيود) بالإضافة إلى وكيل آخر أبيض البشرة، متوسط الطول، واسع العينين، مع شعر طويل وشارب، يتكلم دائمًا بألفاظ قذرة متدنية مع السجناء واسمه (محمد المجالي) وآخرهم رئيس عرفاء متوسط القامة، نحيف البنية، أبيض البشرة، عريض الوجه، له صوت حاد مزعج أشبه بالصفير واسمه (بكر).

ابتدعت هذه النوبة شيئًا جديدًا، وهي التمارين الرياضية فجرًا بعد طابور العدّ مباشرة، لم يستثن منها إلَّا كبار السن، أو من سقط منهكًا بسببها، كانت أسلوبًا جديدًا للإمعان في تعذيبنا، وخصوصًا في وقت الفجر البارد، ويمنع الناس من النوم مجددًا، حيث إنَّ التمارين لا تتوقف حتى وصول وجبة الفطور، التي تتزامن مع وقت انتهاء نوبتهم.

في كل يوم كانت تقام لنا أربعة طوابير بوليسية على الأقل، أولها فجرًا مع التمارين الرياضية، وثانيها صباحًا بعد الفطور عند استلام النوبة الصباحية لتهيئة التحركات الخارجية، وثالثها للعدّ وتسلّم النوبة المسائية مساءً، ورابعها قبل النوم لإبلاغ السجناء بتحركاتهم الخارجية.

كان يجب على كل من يسمع اسمه الرد: نعم سيدي أو نعم أفندي وإلَّا ينال وجبة من التعذيب.

وذات يوم، وبينما كنت سارحًا أجوب بخيالي الدنيا خارج هذه الأسوار، إذ كرر رئيس العرفاء (بكر) اسمًا ما مرتين أو ثلاث، ولم يردّ صاحبه بعد، فأيقظني من تفكيري همس أحد الإخوة وهو يقول: جهاد، إنَّه يناديك.. أجبه قبل أن تصبح فريسة لهم!

- 34 -

إلى المستشفى...

التاريخ: يومًا ما!

«نعم» قلتها بشكلٍ خاطف سريع..

«نعامة ترفسك، بناديك ثلاث مرات ليه ما تجاوبني؟ بكرة عندك مستشفى عالسبعة كون جاهز»، قالها رئيس العرفاء بكر بصوته الحاد المزعج.

لم تصل عقارب الساعة إلى السابعة صباحًا، إلَّا وأخذت من قبل شرطة التحركات بعد عدة صفعات وشتائم بحق المذهب الذي أنتمي إليه، وأنا مقيَّد بالأصفاد من الخلف، وكأنِّي سأجرّ إلى منصة الإعدام لا إلى المستشفى. ركبت الحافلة، وتحركت تجوب طرقات السجن لجمع السجناء من المباني الأخرى، وكان أول مبنى هو مبنى رقم (3)، يحتوي على خيمة للسجناء الذين تمَّ نقلهم من مبنى (4) قبل حوالي شهر. خرج عدد من السجناء بينهم الأخ حميد

(أبـو علـي) فاسـتقبلته بحفـاوة، فكـم اشـتقت إليـه وإلـى أحاديثـه، ولكـن الوقـت ليـس مناسـبًا للحديـث.

ثـم انطلقـت الحافلـة إلـى مبنـى رقـم (6) الـذي توجـد بـه خيمـة لسـجناء مبنـى رقـم (1) ذوي الأحـكام الكبيـرة، لـم أعـرف أحـدًا منهـم.

ثـم تقدمـت الحافلـة إلـى مبنـى رقـم (10) وعينـي تراقـب البـاب أيّ مَـنْ مِـنَ الأبطـال سـيطلّ علينـا الآن؟ ثـوانٍ، وتقـدم الأخ (أبـو جمـال) تعلـو وجهـه ابتسـامة عريضـة.

ثـم تحركـت الحافلـة نحـو خيمـة ضخمـة نُصبـت قـرب مبنـى الزيـارات، وخـرج منهـا عـدد مـن الشـبَّان اليافعيـن، حليقـي الـرؤوس، وعلامـات الحـزن على وجوههـم، وكأنَّهم خرجـوا للتـو مـن مأتـم، وفقـدوا عزيـزًا.

في نهاية المطاف توقفت الحافلة عند الإدارة للتفتيش المذل، وكانـت تنتظرنا هناك الحافلة المصفحـة، وهي مجزأة من الداخل إلى عدة أجزاء، منها كراسي مربعة للشرطة، وكبينتين مخصصتين للسـجناء، موصدة بنظام إقفـال الصناديق المحصنة، في كل كبينة سـتة كراسي بلاستيكية تقصم الظهر، ونافذة زجاجية صغيرة جدًّا يُعـدّ اسـتراق النظر مـن خلالهـا جرمًـا لا يغتفـر، مـع كاميـرا تبـثُّ الصورة بشـكل مباشـر إلى السائق والشـرطة في المقدمة، مساحة الكبينـة الواحـدة لا تتعـدى سـتة أمتـار مربعـة، أي إنَّ لكلّ سـجين متـر مربـع واحد فقط، يحمل السـجين فيه روحه على كفه، وسـط سـرعة وتهور السـائق، خصوصًا في الانحناءات.

هذه الكبائن قد تتحول إلى توابيت للسجناء عند وقوع أيّ مكروه أو حادث، حيث لا توجد أيّ وسائل أمان فيها، أُدخلت إلى إحدى الكبائن مع الأخ أبو جمال، والأخ علي ومعتقل من مبنى رقم (1) وآخر صغير السن من الخيمة الكبيرة، مع أحد السجناء من الطائفة السُّنية الكريمة يده معلقة بلفافة طبية إلى عنقه.

ما إن جلسنا حتى بدأ الأخ حميد (أبو علي) بالسلام والكلام، إلَّا أنَّ صوت طرق أحد أفراد الشرطة على الباب المقفل بشكل قوي، قطع حبل الكلام، وعمَّ الهدوء، تبعه صوت صراخ ذلك الشرطي: اخرسوا، الكلام ممنوع.

فأومأت إلى الأخ عبد علي بالسكوت ريثما تتحرك الحافلة، ويغلب هدير المحرك على صوتنا، وما إن تحركت الحافلة حتى كسرت حاجز الصمت والخوف، وبدأت أتحدث عن الوضع في المبنى والانتهاكات والجرائم التي حدثت لنا بالفكاهة والسخرية تارة، والغصة والألم تارة أخرى.

التفتت إلى الأخ حميد وقلت له: يا حميد أخبرنا عمَّا جرى عليكم، لقد كنا نسمع صراخكم بشكل واضح في كل الأوقات، حتى في منتصف الليل!

فأطرق برأسه إلى الأرض وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال: ما حدث لنا مأساوي جدًّا، ليتك لم تسألني يا جهاد!

- 35 -

شهادات أخرى

مقصب مبنى (3)

أوجز حميد والغصة تخنقه: نقلنا من مبنى رقم (4) ونحن نظنّ أنَّنا متجهون إلى صالة الطعام الكبيرة (اللنغر) إلَّا أنَّهم قادونا إلى خارج المبنى، نحو مبنى (3) وكانت هيئته آنذاك تنبئ بما هو آتٍ، كان المبنى مظلمًا وضيقًا وكئيبًا، في آخره باب يصل إلى ساحة كبيرة، وسطها خيمة صغيرة لا تتسع لأكثر من 70 شخصًا، لكنَّهم وضعونا فيها ونحن 177 شخصًا، وطلبوا منَّا الجلوس بهيئة القرفصاء لتتسع الخيمة لكل السجناء، إلَّا أنَّنا تفاجأنا بعد ساعة بإحضار دفعة جديدة مكونة من 56 شخصًا بحالة سيئة تدلُّ على تعرضهم للضرب. نعم إنَّهم ضحايا هجمة بربرية ألقيت فيها قنبلة صوتية داخل الخيمة.

قلت له موضحًا: حدث ذلك إثر تشابك أحد المعتقلين

مع مرتزق كان يجبر السجناء على عملية النقل بالقوة، وأظنهم أصحاب القمصان الصفراء.

حميد: كانت علامات الإنهاك والتعب على وجوههم، أصبحنا 233 شخصًا في الخيمة، وطلبوا منَا جميعنا النوم، لكن السجناء رفضوا ذلك، وارتفعت أصوات الاحتجاج والاعتراض على قرارهم، فلما رأى أفراد المرتزقة ذلك، تراجعوا عن قرارهم خوفًا من انفلات الوضع من أيديهم، ونام بعض السجناء خارج الخيمة في البرد القارس، لكن ما حيلة المضطر؟!

عمَّ صمت ثقيل للحظات، كسرته سائلًا حميد: كنَّا نسمع صرخاتكم في أوقات متأخرة من الليل، فما الذي كان يحدث؟

أجاب: كنَّا نجبر على الاصطفاف في صفوف منتظمة في ذلك الوقت المتأخر من الليل للعدّ، الساعة الثانية والنصف فجرًا، ويأمروننا بالقيام ببعض الحركات العسكرية، وترديد بعض الشعارات مثل: (عاش عاش بو سلمان) مع السلام الملكي، والهدف من كل ذلك التعذيب النفسي الممنهج الذي انتهجه الوكلاء الأردنيون وعلى رأسهم (المهندس إيهاب) و(الوكيل محمد المجالي) و(زياد) و(ناصر) و(المجرم رئيس العرفاء شاكل) الذي يلقب بالزعيم.

لكن يومًا ما استيقظنا مبكرين مذعورين على صوت

صراخ تقشعر له الأبدان، مجموعة من الشباب الذين أيقظوهم بهدوء دون أن يشعر بهم أحد، وبدؤوا مسلسل تعذيبهم بالضرب وسكب الشاي الحار على أجسادهم تارة، والماء البارد عليهم تارة أخرى، ثم التدحرج على الإسفلت مثل الإسطوانة الدائرية.

كان السجناء يعاينون ما يجري على إخوانهم عبر ثقوب موجودة في جسم الخيمة، فانتبه أحد المرتزقة للسجناء الذين يراقبونهم، وصرخ بأعلى صوته: الكل ينام يا كلاب. وأتى نحو الخيمة مهرولًا ومعه باقي المرتزقة وأيقظ الجميع، وأجلسهم وقال: ليخرج الذي كان يبصبص -يسترق النظر- وإلَّا سيتعرَّض الجميع للضرب والتعذيب.

لم يجبه أحد، ومن هذا الذي يستطيع أن يقول أنا الفاعل، وهو يرى التعذيب بأم عينه؟ فما كان منهم إلا أن أخرجوا جميع من في الخيمة للطابور العسكري في ذلك البرد حتى مطلع الفجر، تعرضنا فيه لشتى أنواع التعذيب والإهانات دون أن يعترف أحد.

كانت مثل هذه المواقف لا تعجب الجلاوزة، لأنَّها نابعة عن تآلفنا والمحبة التي سادت بيننا، ممَّا جعلهم يعمدون إلى أساليب قذرة بسياسة التهديد والترهيب لتفكيك هذا التآلف، فبدؤوا بالعتاب الجماعي الذي نجح المرتزقة من خلاله في تجنيد عدد من الأجانب للحصول على بعض المعلومات عمَّا يجري في الخيمة من تحركات

وكلام يدور، وذلك عبر توزيع السجائر عليهم، أو استثنائهم من التعذيب، أو السماح لهم بدخول الحمامات الداخلية التي كانت أنظف، وليس عليها ضغط مقارنةً بالكبينة البلاستيكية الوحيدة الموجودة في الساحة (حمام متنقل) الذي يستخدمه 233 نزيلًا، وهو بمثابة تعذيب جسدي وصحي، وخصوصًا أنَّ القذارة منتشرة فيه بشكل كبير.

أمرٌ آخر خطير نجح من خلاله الوكلاء الأردنيون ومرتزقة الدرك الأردني، بالسيطرة على الأجواء في الخيمة، وهو التمييز الطائفي، حيث كانوا يسمحون برفع أذان فئة دون الأخرى، والسماح لفئة بإقامة صلاة الجماعة دون الأخرى، والذي يتقدم ليؤم المصلين يتعرَّض للتعذيب من غير أن يُقال له ما السبب، والويل كل الويل لمن يتجمع لقراءة الدعاء أو ما شابه، فهو يتّهم بالتحريض على العصيان، ويتعرض للضرب، وهذا ما حصل معي ومع عدد من المعتقلين.

من أساليب التعذيب التي كانت تمارس معنا: الإغراق الوهمي في مياه المجاري العفنة، حيث كانت توجد لدينا بركة تجمعت فيها كل أنواع الأوساخ والقاذورات، من شعر رؤوسنا التي تحلق كل أسبوع، والماء الذي نغسل به أيدينا بعد كل وجبة؛ بل حتى بعض البول، ممَّا جعلها عفنة ونتنة الرائحة، تنتشر حولها حشرات غريبة، تخيل أنَّ في مثل هذه البركة العفنة، كانوا يجبروننا على الاستحمام والغطس برؤوسنا فيها!

خنقت الغصة صوت (حميد) فما كان يُسمع سوى صوت أنفاسه، فرددت عليه متأثرًا: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم، يا الله ما هذا كله؟ أعتقد أنَّ هذا هو سبب تفشِّي مرض الجرب فيكم بشدة.

أجاب حميد: نعم، لقد أجبرونا على نزع ملابسنا عدا الملابس الداخلية، ودهن بعضنا البعض بمسحوق أبيض كدواءٍ لذلك.

سألته: أمر أخير يا حميد، كانت أخبار متقطعة تصلنا منكم، ومنها (يوم مجزرة مجموعة الأرانب) أخبرنا عنها.

أجابني: في تاريخ 18 مارس/ آذار 2015 وبعد ثلاثة أيام من وصولنا إلى المبنى (3) وسط استفزاز المرتزقة للسجناء، عبر شتمهم والطعن في معتقداتهم، أجبر ثلاثة من السجناء على الاستلقاء على بطونهم، وسكب الماء البارد عليهم مع التعدِّي عليهم بالضرب المبرح أمام مرأى الجميع، ما أدّى إلى انفجار السجناء غضبًا في هبة احتجاج، واعترضوا على هذا التعذيب، طالبين من المرتزقة كف الأذى وترك السجناء في حالهم.

لكن بخبث قام أحد الوكلاء الأردنيين بضغط زر النجدة الأحمر الذي يوجد فوق جهاز الإرسال (البرقية) الذي يعطي إشارة لكل الأفراد والضباط الموجودين في مجمع السجن والإدارة أنَّهم يتعرضون لحالة من الهيجان والتمرد والعصيان، أو محاولة احتلال المبنى.

ما أدَّى إلى استنفار وحضور عدد كبير من مرتزقة الدرك الأردني بقيادة الرائد (بسام محمود الحنيطي) وصبّوا جام غضبهم على السجناء، وأرغموا الجميع على الدخول إلى الخيمة تحت سطوة إرهابهم، ثم قاموا باختيار 18 شخصًا بشكل عشوائي، كان يخرج كل واحد منهم من الخيمة، ويتلقَّى الضرب من كُلِّ حدب وصوب في ممر بين صفين من مرتزقة الدرك الأردني على امتداد 15 مترًا، أوسعوهم ضربًا وحشيًّا، ولم يبالوا بصغيرهم أو كبيرهم، واستمرّ التعذيب عليهم حتى الصباح. ولمدة أسبوع كامل كانوا يؤخذون إلى الإدارة من الساعة الثامنة مساءً، ويرجعونهم عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وهم في حالة يُرثى لها.

هذا عدا التعذيب الذي يمارسه الوكلاء الأردنيون عليهم عند عودتهم، مع شتى أنواع الإهانات التي وصلت لتسميتهم بـ(مجموعة الأرانب).

سكت حميد هنيهة، وطأطأ رأسه إلى الأرض، فبادرته بسؤال: هل هذا كل ما حدث؟

أجاب حميد: هناك تفاصيل لم أذكرها، وإنِّي أنزّه لساني عن ذكرها، لم أكن أتوقع من هؤلاء المرتزقة الإقدام على أفعال يندى لها جبين الإنسانية بهذه الدرجة، وترفضها كل الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، لكن أنقل لك موقفًا أقل وطأة من تلك المشاهد، عن أحد المرتزقة الذي حرص

على أن لا يفلت أحد من العقاب، وهو مرتزق قصير القامة، بدين الجسد، يضع تقويمًا على أسنانه، ولطالما أمعن في استهداف وتعذيب السجناء، وبالخصوص المعتقلين السياسيين.

قاطعت حميد قائلًا: أليس هو الذي استهدف كثير من الشباب في مبنى (4) قبل نقلكم؟

أجابني: بلى إنَّه هو.

قلت مؤكدًا: نعم ذلك المجرم اسمه (محمد الزقري) وهو يمني الجنسية.

حميد: نعم إنَّه وحش كاسر في ثوب إنسان، فقد حضر ذات يوم إلى مبنى (3) كعادته من فترة إلى أخرى، وراح يتخطى الصفوف في الطابور يسأل السجناء عن قضاياهم، ويبادر كل من يجيبه بأن قضيته تجمهر أو شغب بالصفع على الوجه أو الركل على الصدر والظهر، أو ضربه بهمجية بهراوته، إلى أن وصل عندي، وسألني عن قضيتي.

فأجبته: «سياسة، المطالبة بالديمقراطية»، إلَّا أنَّ ذلك اللعين بصق في وجهي وصفعني، فانتفضت غاضبًا واقفًا على قدمي صارخًا: «ليس لك الحق في ذلك، يا مسؤول النوبة أيُّها الوكيل محمد، قبل أيام قرأت علينا لائحة القوانين والتعليمات، فأين تطبيق القانون يا رجال

القانون؟!»، قلتها للوكيل محمد الذي أسرع مهرولًا نحوي محاولًا إسكاتي وتهدئتي.

هذا والمرتزق محمد الزقري يصرخ في وجهي محاولًا إرغامي على الجلوس، حتى سحبوني إلى داخل المبنى، لحسن حظي أنَّ المشهد التقطته إحدى كاميرات المبنى المجاور، مبنى (5) ممَّا أسهم في رفع شكوى عليه، وإيقافه عن العمل لمدة قصيرة، عاد بعدها حليق الرأس والوجه، لكنَّه لم يكفّ عن إجرامه.

ربما التعذيب في مبنى رقم (3) كان أشدّ وطأة من مبنى رقم (4) ولكنَّه لم يكن أشد من مبنى رقم (10) بل وأستطيع القول جازمًا بذلك، أليس كذا يا (.....)؟ قالها حميد محاولًا استنطاق الآخر من عنبر (10) ومعرفة تفاصيل ما جرى في مبناهم.

أجابه: كلامك صحيح يا حميد، لقد وضعونا في وجه المدفع، وحمّلونا مسؤولية كل ما حدث انتقامًا من نشاطنا الاجتماعي والحقوقي داخل السجن، فحلَّت بنا مآسٍ تدمع لها العيون، وتتألم لذكرها القلوب.

- 36 -

لو وجدت في بلدي شيعيًا لقتلته

روى لي أحد السجناء شهادته: في 10 مارس/ آذار 2015 داهم العشرات من أفراد قوات مكافحة الشغب القمعية المدججة بالأسلحة والعتاد مبنى رقم (1) وقاموا بإخراج جميع السجناء الذين كانوا حينها متواجدين في غرف العنبر بالضرب المبرح، مستعينين بالهراوات والعصي والقطع الحديدية، أخرجونا إلى الساحة المخصصة لملعب السجناء، وأرغمونا على مواجهة الجدران، ورغم أنَّ عملية إخلاء المبنى لم تقابل بأيّ مقاومة تذكر، إلَّا أنَّ الضرب والتنكيل استمرّ خارج المبنى لفترة طويلة، إلى أن تمَّ سحب تلك القوات، وحلَّت محلها قوات الدرك الأردنية، وحينها كان المشهد المأساوي حيث العشرات من المصابين ملقون على الأرض، وجدران ملطخة بالدماء، وتفاوتت الإصابات بين كسور، ورؤوس مفضوخة، ورضوض، وإصابات في العيون.

لحظات مرَّت، ظن السجناء أنَّ عملية التنكيل والضرب قد توقفت، لكنَّها لم تكن إلَّا البداية لمسلسل طويل من قهر وتعذيب وانتقام، فبمجرد تسلُّم قوات الدرك للمبنى قامت بتفريغ أحقادها الطائفية البغيضة، التي ترجمتها أساليبهم الوحشية وتفننهم بأساليب التعذيب والتنكيل وقهر البشرية، استوردوها معظمهم من مدارس النظام القمعي الأردني.

_ لكن ما الذي حصل معكم خلال الأيام الأربعة الأولى؟

الشاهد: إليك بعض تفاصيل ما عايشه السجناء في الأيام الأربعة الأولى، وهم في الساحة الخارجية للمبنى قبل نقلهم إلى الخيمة. باختصار:

1. الاعتداء بالضرب والتعرض للإهانة بسبب الانتماء المذهبي للطائفة الشيعية.

2. الانتقام المقصود من سجناء الرأي والحوادث السياسية بالتعذيب.

3. منع تقديم العلاج والرعاية الطبية اللازمة للمصابين وتعريضهم للمزيد من جلسات الضرب خاصة على مواضع إصاباتهم.

4. منع أداء الصلاة في الأيام الأولى، وبعد فترة سمح بالصلاة إلَّا أنَّ البعض تمّ إرغامه على أداء الصلاة

بطريقة المذاهب الأخرى، وذلك بسبب الحقد الدفين الذي يكنّونه للشيعة.

5. جميع السجناء كانوا ملزمين باتخاذ وضعية محددة في جلوسهم، وهي مواجهة الجدار مع رفع الأيدي إلى الأعلى طيلة تلك الأيام الأربعة، بِمَن فيهم كبار السن والمصابون والمرضى.

6. إرغام عدد كبير من السجناء على الزحف، وأثناءه يتعرضون للضرب المبرح، وكانت قوات الدرك ترغم الجميع (باقي السجناء) على مشاهدة هذا المشهد، حتى كاد بعضهم من الذين يتمّ اختيارهم للتعذيب أن يفارق حياته، وكل ذلك كان يجري أمام ناظري مدير السجن (ناصر بخيت) ونائبه (المقدم حسن جاسم) وقائد قوات الشغب (عبد الله الزايد) وقائد قوات الدرك وشرطة الأمن العام الأردنيين، وهو أردني الجنسية برتبة ضابط عالي الرتبة (أحمد المناصرة).

7. إبقاء السجناء في العراء لمدة أربعة أيام متواصلة، بقصد إرهاقهم تحت أجواء الشمس الحارقة التي كانت تكوي الأجساد صباحًا، وبرودة الجو الشديدة ليلًا .

8. استخدام دورات المياه بالرغم من توفرها في اليومين الأوليين لم يكن مسموحًا، وفيما

بعد تمّ السماح للبعض، وكان لا ينجو منهم أحد حين ذهابه وعودته من الإهانات اللفظية والضرب.

وهكذا كانت تجري الأمور على مدار الأيام الأربعة بصورة مستمرة دون توقف، حتى تمّ نقل جميع سجناء المبنى فيما بعد إلى إحدى الخيام حيث بدأ المسلسل الجديد من الترهيب والتنكيل..

وسألت الشاهد: اروِ لي أيام مكوثكم في الخيم، لأنَّنا ذقنا الأمرَّين خلالها، فماذا حصل معكم؟

الشاهد: في تاريخ 14مارس/ آذار تمَّ نقلنا إلى إحدى الخيام، وفيما بعد نُقلنا إلى الخيمة الثانية بتاريخ 16 مارس/ آذار 2015م وهي الخيمة التي خصصت لسجناء المبنى. وفي 16 مارس/ آذار 2015م تمَّ نقل سجناء مبنى (1) إلى خيمة تقع في ساحة إحدى المباني، وهي خيمة ضيقة كانت لا تتسع لنصف السجناء الذين كان عددهم يفوق الـ 265 فردًا، وهناك استمرت قوات الدرك، والأمن العام الأردني، والشغب بترهيب وتعذيب السجناء لقرابة الـ 90 يومًا متواصلة.

وهذه الإطلالة هي تفصيل مختصر لما عانى منه السجناء، ولما جرى عليهم من معاناة ومآسٍ قاسية طيلة تلك الأيام:

1. طوابير إلزامية كانت ضمن البرنامج اليومي لمرات متكررة في أنصاف الليالي والصباح، خاصة حين تشتدّ حرارة الأجواء، مع اشتداد أشعة الشمس، ممَّا تسبّب بوقوع حالات إغماء متكررة، وتوافق ذلك مع إرغام السجناء على ترديد بعض الشعارات التي تمجّد العائلة الملكية الخليفية.

2. ضرب وتعذيب كل من يطلب التوجه إلى دورات المياه، مع العلم أنَّ السجناء كانوا يعانون معاناة شديدة بسبب عدم توافر دورات المياه الكافية، فإنَّ الـ 265 شخصًا تمّ تخصيص حمامين لهم فقط، ما أدَّى إلى إصابة العشرات بالأمراض، وامتناع البعض الآخر عن تناول الأطعمة.

3. في أحد الأيام تمَّ الاعتداء على سجناء عنبر الشمال بأكملهم، ويفوق عددهم الـ 100 شخص تقريبًا (مع العلم أنَّ عنبر شمال هو أحد أقسام مبنى (1) والذي يتكون من قسمين شمال وجنوب)، تمَّ فرزهم من بين الجموع، وإلقائهم على بعضهم بعضًا أرضًا، والاعتداء عليهم جميعًا بالركلات والهراوات البلاستيكية والأسلاك الكهربائية، واستمر تعذيبهم لساعات عدة.

4. تعذيب السجناء السياسيين الجدد الذين كانت تصدر بحقهم الأحكام القضائية، ويتمّ جلبهم إلى

سجن جو المركزي، فقد كانوا يبقونهم ليوم كامل تحت التعذيب، ويتم في اليوم التالي إلقاؤهم في الخيمة مع باقي السجناء، وهم مفضوخو الرؤوس، وعظامهم مكسرة، وملابسهم ملطخة بالدماء، مع استمرار أذيتهم في الأيام اللاحقة بضربهم على مواضع إصاباتهم.

5. استدعاء أعداد من السجناء في كل ليلة وتعذيبهم تعذيبًا وحشيًّا يفضي إلى الإغماء، فلا تمرّ علينا ليلة إلَّا ويتبادر إلى أسماعنا صراخ وأنين ممَّن كان يُعذب.

6. أحد الأيام هبَّت رياح شديدة محملة بالغبار، تمّ إخراجنا من الخيمة إلى العراء، ومنع جميع السجناء من تغطية وجوههم بقصد التسبب باختناقهم.

وبعدها أرغموا السجناء على الاستلقاء على الأرض، حيث كنَّا مكدسين على بعضنا بعضًا، ولاقينا ونحن في هذه الحالة الضرب المبرح، وبقينا على هذه الحالة لساعات طوال، حيث كان الغبار يملأ وجوهنا وتسبب لنا بالاختناق، وكان أفراد الشرطة يصرخون قائلين: (موتوا يا كلاب).

7. اشتداد حرارة الجو في الأيام الأخيرة، سواء داخل الخيمة أو خارجها ممَّا أدّى إلى وقوع الكثيرين في

حالات غثيان وإغماء، وتم إجبار السجناء قسريًا في كل يوم على البقاء طويلًا تحت أشعة الشمس الحارقة.

8. الاستحمام كان من الأمور غير المسموح بها حسب الأوامر التي كانت الشرطة تتلقاها من الضباط، فيما بعد تمّ السماح للبعض بالأمر ما أدَّى إلى ظهور أمراض جلدية وانتشارها بين الموجودين.

9. إرغام السجناء على تناول الوجبات الغذائية تحت أشعة الشمس الحارقة، وفي أماكن القذارة والأوساخ، ومن بين من اشتهر من الشرطة باتباع هذا الأسلوب شخص يُدعى (علاء) برتبة وكيل وهو أردني الجنسية.

10. في الأيام الأخيرة حين فتحت عيادة السجن للسجناء، كان لا ينجو أحد ممَّن تمّ اقتياده إلى العيادة من الإهانات والضرب.

11. سمحت إدارة السجن في أواخر الأيام إجراء مكالمة هاتفية لا تتجاوز الدقيقتين، ويرغم من يجري حديثه في مكالمته أن يرفع صوته، ولا يذكر أيّ من الأمور التي كانت تجري في السجن، وبعد إنهاء المكالمة يتمّ إعادة السجناء إلى الخيمة برفقة الشرطي الذي يعيدك بالركلات والصفعات والشتائم.

12. في أحد الأيام جرى تعذيب أحد السجناء المصابين بمرض نفسي، لا لسبب فقط للتسلية (اسم السجين صادق مرهون، وهو مصاب بمرض نفسي، ما أدَّى إلى خروجه عن طوره وتوقف عن التحدث) ورغم علم أفراد الشرطة بحالته المرضية تلك، إلَّا أنَّهم قاموا بإخراجه عدة مرات أمام أنظار جميع السجناء، وذلك لإرغامه على ترديد بعض الشعارات، وأن يشتم نفسه.

وعندما رفض ذلك تعرَّض للضرب المبرح بالهراوات. ومن بين من قام بالإشراف على هذه الجريمة فريق مكون من ثلاثة عناصر من قوات الدرك (غيث وفيروز ومراد) الذين اشتهروا في مواقف عدة بتفنّنهم في إهانة وتعذيب السجناء بطريقة قاسية وشنيعة.

13. استدعاء واقتياد أعداد كبيرة من السجناء إلى مبنى إدارة السجن وتعذيبهم بالهراوات والأسلاك تحت إشراف الضباط: عادل الجودر، وعبدالله عيسى، وخالد عبدالله التميمي.

14. تعذيب بعض السجناء، وإرغام الباقين. ومن بين عناصر الدرك من الذين اتبعوا هذا الأسلوب (محمد عايد) إضافة إلى شرطة جو السابقين (حسين العلي، ورضوان يمني الجنسية، وآخرون).

15. بين فترات متفاوتة يأتي عدد من ضباط الشرطة الأردنيين وضباط الدرك لمشاهدة أساليب التعذيب والتنكيل، واتخاذها وسيلة للتسلية، فكانت تعلو منهم الضحكات وعبارات السبّ والشتم على من كان يُعذّب أمامهم.

16. تعذيب ومعاقبة السجناء على أتفه الأسباب، فمثلاً في إحدى المرات جرى تعذيب العشرات بطريقة وحشية لأنَّ الشرطة وجدت في الخيمة علبة عصير!! حسب تعليمات الشرطة يمنع إدخال الأطعمة إلى الخيمة، ومن الذين اشتهر بين الشرطة في اتباعه لهذا الأسلوب ومعاقبة السجناء على أمثال هذه الأسباب التافهة (سلامة) برتبة رئيس عرفاء.

17. أغلب الشرطة الأردنيين سواء من كان ينتمي منهم إلى الأمن العام، أو قوات الدرك الذين تسلموا إدارة السجن، هم بعثيون ممَّن يمجّدون الطاغية صدام حسين، ويتفاخرون بميولهم البعثية، وبناءً على هذا الأمر فقد ترجمت أفعالهم ما يحملونه من فكرهم البعثي الحاقد على الطائفة الشيعية.

ومن بين الشواهد الكثيرة على ذلك أحد الشرطة الأردنيين (سليم صرايرة) كان يتباهى بتمجيده لصدام، ويجاهر بعدائه الدفين للطائفة الشيعية،

أحيانًا كان يمنع البعض من أداء الصلاة، وكثيرًا ما يكرر: (لو وجد شيعي واحد في الأردن لقمت بقتله وتقطيعه).

18. النوم مسموح لفترات متقطعة قليلة، وأحيانًا يُمنع.

19. إهانة المتدينين عبر إجبارهم على حلق اللحى، وحلاقة الشعر (الإلزامية مع الضرب والإهانات).

هكذا قضى السجناء لأيام طوال قرابة الثلاثة أشهر، حيث كانت تتكرر تلك المشاهد المأساوية المشار إليها لعشرات المرات يوميًّا حتى تاريخ 19يونيو/ حزيران/ 2015م حصلت انفراجة نوعية.

كل تلك الجرائم كانت تنفذ بإشراف من مدير السجن، ومدير معسكر سافرة، وذلك بأوامر مباشرة من وزير الداخلية، وهو ما صرَّح به مرارًا وتكرارًا أمام السجناء أعداد من الضباط ذوي الرتب العسكرية العليا أنَّهم يتلقّون أوامرهم من الوزير مباشرة.

- 37 -

الاعتداء الجنسي على القاصرين

مقصب القاصرين [الخيمة الكبيرة]

حميد: ألن تخبرنا ما الذي حدث عليكم يا بني؟ كل إخوانك تحدثوا ولم يبقَ أحد صامت سواك.

قال الفتى بصوت خافت: أخاف أن يضربوني عندما أعود إلى الخيمة، مثلما ضُرب زملائي بعد عودتهم من التحركات بسبب إفشاء المأساة التي حلَّت بنا.

أجبته محاولًا طمأنته: لا تخف يا أخي لن يسمعونا نتحدث، فهدير المحركات يطغى على صوتنا الآن، ونحن معك، ولن نسمح لهم بضربك تكلم ولا تخف.

رفع الفتى رأسه قليلًا وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال: اسمي عيسى، وعمري 18 سنة.

لا يبدو عليك ذلك، خيل لي أنَّ عمرك 16 سنة أو أقل،

فأنت بلا لحية وشارب، إلَّا أنَّك رجل، أكمل يا بطل. قاطعته لألطف الجو، فابتسم وأكمل:

كنت في يوم 10 مارس/ آذار 2015م في مبنى رقم (3) جالسًا مع أكثر من 30 سجينًا في غرفة لا تتسع لذلك العدد، ولكنَّهم تجمعوا في تلك الغرفة هربًا من الغاز الخانق القاتل الذي أُطلق بشكل عشوائي مكثف داخل المبنى من نوافذ الحمامات الخارجية والأبواب، كدنا نموت اختناقًا منه.

ثم هجم بعد ذلك أفراد قوات المرتزقة، واقتحموا علينا الغرفة حاملين في أيديهم عصيّهم البوليسية والأعمدة الحديدية والألواح الخشبية، وقد ثبَّت بها عدد من المسامير، وبدؤوا بضربنا بطريقة وحشية عنيفة، سالت على إثرها دماؤنا، وتعالت صرخاتنا، وهُشمت عظامنا.

كانوا يضربوننا بلا رحمة ورأفة، وكأنَّهم ظفروا بعدوٍّ لهم وأرادوا التشفِّي والانتقام منه بصورة همجية إلى حدّ قتله، كانت مذبحة حاولت الفرار منها لأنجو من عذابها، فوجدت عذابًا أقسى على طريقي، ففي ممر المبنى اصطفَّت قوات المرتزقة المسلحة صفين متوازيين في الطريق المؤدي إلى الساحة الخلفية من غرفة التلفاز، وما إن رأوني حتى احتوشوني كالذئاب الضارية من كُلِّ جانب ومكان.

حاولت الفرار منهم للوصول إلى الساحة الخلفية،

وأنـا أتلقـى لسـعات ضرباتهـم وركلاتهـم علـى جميـع أنحـاء جسـدي. صدمـت بعـد كل هـذا العـذاب أنَّ بـاب السـاحة الخلفيـة مقفـلًا، فعـدت أدراجـي، إلَّا أنِّـي سـقطت علـى الأرض، وأصبحـت حجـر عثـرة فـي طريـق السـجناء الذيـن خلفـي، فتعثـروا بـي وسـقطوا الواحـد تلـو الآخـر، فأصبحنـا كومـة من الأجسـاد وأنا أسـفلها، انقطع نفسـي وشـارفت على الهـلاك، وأحسسـت أنَّ روحـي سـتخرج مـن جسـدي.

سـكت (عيسـى) قليلًا، وانهمـرت دموعـه، فأمهلته لحظة حتـى يهـدأ ويسـتطيع أن يواصـل الحديـث، إلَّا أنَّه اسـتمرَّ في بكائـه، ربمـا لأنِّـي أعـدت إليـه ذكريـات لـم يتحملهـا لشـدّة مـا أَلَـمَّ بـه وبزملائـه، لكنـه بادرنـي بالقـول بعـد لحظـات: لا تلمنـي فـإنَّ مـا حصـل لا يمكـن أن يوصـف، فقـد رأيـت المـوت بعينـي عـدة مـرات، ورأيـت الدمـاء تتنـاثر مـن زملائـي الذيـن هـم بمثابـة إخواني، فقد عشـنا فـي ذلك المبنـى كعائلة واحدة.

مسـح دموعـه وأكمـل قائـلًا: فـي تلـك اللحظـة حاولـت أن أبعـد بعضهـم عنِّـي لعلّـي أظفـر بالنجـاة مـن المـوت، لكنـي أدركـت بأنِّـي فـي بحـر هائـج بأمـواج متلاطمـة، فشـققت طريقًـا مـن بينهـم، حاولـت مـرة أخـرى الوصـول إلى السـاحة الأماميـة لعلّـي أنجـو مـن سـطوة المرتزقـة، إلَّا أنَّ أحـد أفـراد قـوات المرتزقة سـحب جسـمي النحيل إلى داخـل الغرفة مرة أخـرى.

وهـذه المـرة كان العـذاب أشـدّ وأقسـى لهروبـي مـن بيـن أيديهـم فـي المـرة السـابقة، حيـث ضربونـي بشـكل مبـرح بالعصـي البوليسـية علـى يـدي وقدمـي ورأسـي وظهـري، ثـم قامـوا بتحطيـم ثلاثـة كـراسٍ بلاسـتيكية علـى رأسـي ويـدي، حتـى انكسـرت إحـدى يـديَّ، ولـم يسـمح لـي بعلاجهـا حتـى الآن.

وبعـد أن أوسـعوني ضربًـا مبرحًـا أخذونـي إلـى السـاحة حيـث كان باقـي السـجناء يتلقـون نصيبهـم مـن العـذاب بخراطيـم المـاء والهـراوات وكل مـا يجدونه أمامهـم، فاسـتمرَّ هـذا العـذاب مـن وقـت أذان المغـرب حتـى السـاعة الثالثـة فجـرًا.

كل ذلـك أمـام أعيـن الضبـاط البحرينييـن والأردنييـن، وفـرق أمنيـة أخـرى مختلفـة، وكان منهـم المجـرم (عبداللـه عيسـى) والمجرم (عيسـى إلياسـي) والمجرم (ناصر بخيت) وهـو مديـر السـجن الـذي حضـر لفتـرة قصيـرة، وشـاهد بعينه مـا حـدث، ولـم يحـرك سـاكنًا، ولـم يمنعهـم مـن التعـرُّض لنـا، وبانصرافـه أعطـى الضـوء الأخضـر لمواصلـة إجرامهـم وتعدّيهـم علينـا.

لـم يتوقـف المشـهد عنـد هـذا الحـد؛ بـل تجاوزه إلـى إرغامنـا علـى ترديـد شـعارات للنيـل مـن رموزنـا السياسـية والدينيـة، وكان جـلّ هـذه الشـعارات هـو التسـقيط بشـتى الألفـاظ البذيئـة والسـاقطة، وكنَّـا حينهـا فـي السـاحة الخلفيـة

القريبة من مبنى (7) الذي يتواجد فيه هؤلاء الرموز، وكأن اختيار هذا الموقع متعمدٌ ومعد له من قبل وزارة الداخلية لتصل هذه الأصوات إلى مسامع الرموز.

قبل الفجر بقليل أتوا لتصويرنا، ومع بزوغ الفجر وإدخال وجبة الإفطار لنا والتي تناولناها مرغمين دون أن نذوق طعم النوم، وبعدها بدؤوا بتفتيشنا بحضور عدد من الشرطة اليمنيين الأصل منهم عبد القوي ومحسن ومحمد.

ما إن بدؤوا بالتفتيش، قام المرتزق محسن بضربنا، فانهال الآخرون علينا بالضرب المبرح، والتعدّي علينا بالسبّ والشتم والكلمات القادحة بحق أعراضنا ومعتقداتنا، كما أُجبرنا على رفع أيدينا والجري في الساحة.

بعدها أجلسونا، فقام أحد المرتزقة بركل كرة قدم باتجاه السجناء، ومن تصيبه الكرة منًّا تناله جلسة من التعذيب، كان هذا الأسلوب من فنون المرتزقة في اختيار الضحايا.

صمت (عيسى) قليلًا ليسترجع ذاكرته، فبادرته بالسؤال: وماذا حدث بعد ذلك؟

عيسى: حسب ما أذكر، في تلك الليلة استمر التعذيب بشتى أنواعه، وأجبرنا على ممارسة التمارين الرياضية بإشراف وكلاء أردنيين منهم: رعد وحسين وأحمد أبو عجرم، واثنان من شرطة الاتصالات هما: سيف الدين

وعبد العزيز. ولم يسلم من ذلك حتى السجين المبتلى بالعمى المعتقل (محمود جعفر) من قرية عراد.

سألته: وبعد ذلك اليوم الأسود ما هي طبيعة الإصابات التي أصبتم بها؟

عيسى: كانت أكثر الإصابات خطرًا إصابة أحد الشباب بضربة بعمود من حديد شجَّت رأسه، وأصابته بنزيف حاد، أما الإصابات الأخرى فكانت تتنوع بين إصابات وكسور في الرأس والأيدي ومنطقة الحوض وجروح أخرى غائرة في الجسم، كانت كل تلك الإصابات أثناء التحقيق حول وجود هواتف نقالة مهربة ومكان تخبئتها.

بعد ثلاثة أيام من ذلك أخرجونا من باب المبنى الخلفي، وأرغمونا على الركض نحو خيمة ضخمة قرب مبنى رقم (2) ومبنى الزيارات، وقاموا بتوزيع بطانيات ووسادات علينا، فكانت تلك أول ساعة نذوق فيها طعم النوم المتواصل لساعات، رغم عدم وجود أي مكيفات أو مراوح بالخيمة، فتجرّعنا لسعات الحرّ الشديد كون الخيمة مصنوعة من النايلون المطوي على غرار البيوت الزراعية. ما جعلنا نفكر في البدء بإضراب عن الطعام لتحسين الظرف المأساوي الذي نعيشه من سلب لكافة الحقوق منّا، وكان أبرزها: عدم السماح لنا بالذهاب إلى الحمام أو الاستحمام، ومنعنا من رفع الأذان وإقامة الصلاة، والاتصال بذوينا، وإجبارنا على الاستلقاء على

الأرض طوال الوقت دون تبادل أطراف الحديث مع بعضنا البعض.

استمرّ الإضراب لمدة يوم ونصف، وأنهيناه مجبرين، حيث كانوا يستدعون السجناء خارج الخيمة، ويجبرونهم على تناول الطعام بالقوة تحت التعذيب والضرب والسبّ والشتم مع غالبية السجناء، فاضطررنا لفك الإضراب أمام هذه التهديدات وهذا التعذيب، إلَّا أنَّنا حققنا من وراء هذا الإضراب: السماح لنا بالذهاب إلى الحمام فقط.

سألته: هل هناك شيء لم تبح به؟

سرح في أفكاره قليلًا، فأجاب بشكلٍ مختنقٍ: لا.

كررت عليه السؤال بصيغة أخرى: لقد وصلنا بأنَّ هناك تصرفات لا أخلاقية من قبل المرتزقة الأردنيين، فهل هذا صحيح ؟

عندها تكلم (عيسى) وطلب منِّي إعفائه من الإجابة على السؤال.

فسألته عن السبب فأجاب قائلًا: لا أحبّ أن أتحدث عن هذا الأمر.

قلت محاولًا استنطاقه: وهل حصل شيء من هذا؟ ثم أكملت: وما الضير في ذكر ذلك؟ ألسنا بصدد كشف الحقائق؟ ونعدك بعدم ذكر أسماء من تمّ استهدافهم.

وبعد إصرار حثيث، نطق (عيسى) وقال: كان المرتزقة الأردنيون منحرفين جنسيًّا، وكانوا يستهدفون صغار السن ذوي الوجوه الحسنة، فيقومون باستهدافهم بطرق شتى، منها ملامسة أماكن العفة تحت التهديد والوعيد، وبما أنَّ الفئة العمرية لكل السجناء في هذه الخيمة تتراوح بين 15 ـ 21 سنة، فكان استهدافهم بهذه الأساليب كبيرًا، لم يتوقف استهتارهم بالأخلاق والقيم عند هذا الحد؛ بل وفي مشهد آخر وصورة من صور الاستهتار طُلب من شابّين تبادل القبلات في الفم أمام أعين السجناء ومجموعة كبيرة من المرتزقة والوكلاء الأردنيين، ويتمادى هؤلاء الحثالة في الإمعان والدوس على القيم الأخلاقية والدينية عبر إجبار الشباب على التعرّي من الملابس عدا ما يستر العورة، وذلك للاستحمام أمام أعين المرتزقة بعد فرزهم لمجموعتين، مجموعة بعيدة عنهم وأخرى قريبة منهم، يتلذذون بالنظر إليهم لأوقات طويلة.

وهناك مشهد آخر حصل مع الكثير وهو تتبع هؤلاء المنحرفين للشباب أثناء دخولهم لقضاء الحاجة، فيتفاجؤون بفتح الباب عليهم وهم عراة.

وهنا لا بُدَّ أن أذكر الطامة الكبرى التي يندى لها الجبين، فقد تم استدراج اثنين من هؤلاء الشباب المغلوب على أمرهم، وكان أحدهم مريضًا نفسيًّا، وغير مسؤول عن تصرفاته، والآخر تحت التهديد بالضرب والترغيب واستمالته

بتوفير بعض علب السجائر وأمور أخرى، فقد طلب الوكيل (سليم الصرايمة) والوكيل (أحمد أبو عجرم) من هذين الشابين البقاء في الحمامات بعد طرد زملائهم، وبعد أن تأكدوا من عدم وجود أحد، قاموا بتجريدهم من ملابسهم، والاعتداء عليهم جنسيًّا، وحصل هذا عدة مرات في أوقات لا يسمح لأحد من السجناء بمغادرة الخيمة، وهو وقت عدّ السجناء.

- 38 -

العودة إلى الزنازين

في المستشفى، كان كل من أصادفه هناك، ممن يعرفني أو لا يعرفني، يرفع يده بالدعاء بالفرج، خصوصًا الأُمَّهات. عدت من المستشفى وأنا أستشعر الغصة والحرقة على إخواني في المباني الأخرى، وما ينالهم من تعذيب أقسى من الذي نتجرعه أحيانًا، ونقلت ذلك للسجناء معي في الخيمة.

بعد مرور شهر على وجودنا في الخيام تمّ فتح باب الزيارات، ورغم أنَّنا لا زلنا نعيش في هذا الوضع المزري، كان شعورنا يتأرجح ما بين الحزن والفرح، فقبل الزيارة بساعتين عليك الحضور لأخذ بذلة من الزي الرسمي للسجن (الدريس) مع قليل من الصابون المائع المخلوط بالماء للاستحمام.

ثم يأتي الوكلاء ويلقون علينا محاضرة في الالتزام، وعدم إثارة المشاكل، مع التهديد والوعيد بالتعذيب في

حال إثارة أي مشكلة، أو التحدث مع سجناء المباني الأخرى، أو البوح للأهل بالوضع المأساوي الذي نعيشه.

وكانت أول زيارة لي بعد أسبوع من ذلك، امتزجت بدموع أُمِّي الغالية، حزنًا على شكلي الذي تغيَّر، وجسمي الذي نحل، ودموع أخرى فرحة للقائي بعد طول اشتياق، رغم ذلك كنت أطمئنهم عن حالي، وأحثّهم على تقديم الشكاوى والتقارير للمنظمات الحقوقية للضغط على وزارة الداخلية وحثالتها المجرمة لمحاسبة المجرمين، ولوقف جميع الانتهاكات بحقنا.

في تلك الزيارة التقيت بصديقي البطل (عباس السميع)، وعلى وجهه وجسمه آثار التعذيب، تقدَّم وسلَّم عليَّ رغم تهديدات المرتزقة له، وهو مقيّد الرجلين واليدين، مع سلسلة تربط القيدين، لكنني تفاجأت عندما رأيت ثناياه مكسَّرة، فبادرته بالسؤال، فأخبرني بأنَّه بعد نقله من المبنى إلى الإدارة تعرَّض لتعذيبٍ شديد، ولم ينته تعذيبه بعد نقله إلى عزل الإعدام بمبنى رقم (1)، حيث أدخلوا عليه عددًا من أفراد عائلة الشحّي الإماراتية بزيّ عسكري، وأبرحوه ضربًا موجعًا، وهو يقول لهم: إنَّ الله يعلم أنِّي لم أقتل أحدًا؛ بل حتى حكومة البحرين نفسها تعلم ذلك، ولكن لفقت لي هذه التهمة.

رغم حالته المأساوية كان شامخًا لا تغيب عن وجهه الابتسامة أبدًا، يتحدَّى ولا يبالي بأوامر المرتزقة وصراخهم،

كيف لا وقد حكم عليه بالموت، وهو يقول للموت لا أبالي كما قال ذلك الفتى: «أولسنا على الحق؟ إذًا لا نبالي وقع الموت علينا أو على الموت وقعنا».

في أحد الأيام كان المطر يتساقط بشدَّة، والريح تنفخ خارج الخيمة، فتحدث ضجيجًا مفزعًا أيقظني من النوم، لأجد نفسي وسط بركة الماء، فمياه الأمطار دخلت الخيمة من جميع جوانبها، والسجناء الذين ينامون خارج الخيمة قد تهافتوا إلى داخلها هربًا من التبلل بالأمطار الغزيرة، فنهضت واقفًا، وتقدمت نحو الخارج لأنَّ الخيمة أكثر اكتظاظًا، ولأرى السماء تمطر مطرًا غزيرًا يتلألأ ويلمع بسبب أضواء المصابيح الكهربائية حول الساحة فجعلت الليل نهارًا.

كان منظرًا جميلًا، لكنَّه مؤلم وحزين؛ بل إنَّنا كنَّا بين الفرح والحزن، بتنا تلك الليلة مستيقظين نجلس تارة، ونقوم تارة أخرى، فالخيمة لا تستوعب كل السجناء وهم نيام، لم تكن تلك الليلة من ليالي الشتاء؛ بل تبعها يوم مشمس حار، هكذا كانت الأيام هنا، كل الفصول فيها، ولا فصل بين الأوقات، فيوم ممطر وآخر مشمس، لكن الوقت يمرُّ مرّ السحاب، الليل كما النهار والنهار كما الليل، يبدأ بطابور وينتهي بطابور، وما بينهما تعذيب وإهانات.

هكذا مرَّ أول أيام شهر أبريل/ نيسان، دائرة مقفلة تدور فيها حياتنا اليومية، نحاول فتح طريق منها لكسر الروتين

اليومي المذل والمهين، طريق نصل به للدخول إلى المبنى لنتخلص من كل هذا العذاب، فالمبنى قد جهز، ولا يوجد أيّ مسوغ لبقائنا هنا، لكن الجميع صاروا لا يأبهون بهذا الأمر؛ بلْ لا يبالون به، فقد تلقينا عشرات الوعود الكاذبة التي أفقدت الأمر أهميته وقطعت الأمر، وأنهت حالة الترقب والانتظار.

تمّ تركيب ستة مكيفات داخل الخيمة استعدادًا لقدوم فصل الصيف، لكنها لم تجدِ نفعًا، خصوصًا وقت الظهيرة حيث لا مفرّ من حرارة الشمس، فإمَّا أن تخرج إلى خارج الخيمة فتتعرض للشمس اللاهبة، أو تدخل إلى داخل الخيمة حيث تشتدّ الرطوبة ويختنق النفس وكأنَّك في فرن.

أنهت المكيفات آمال باقي السجناء بقرب موعد دخولهم للمبنى، لكن بعد عشرة أيام فقط من تركيبها، وبتاريخ 21 مارس/ آذار 2015 وتحت جنح الظلام تفاجأنا بمجيء عدد كبير من مرتزقة الدرك الأردني وشرطة الإدارة برفقة الضابطين البحرينيين الملازم الأول المجرم عبدالله عيسى، والملازم الأول المجرم الآخر عيسى الجودر، وبحضور الرائد الأردني بسام الحنيطي، أمرونا بجمع ما كان متوفرًا لنا من مقتنيات آنذاك لا تتعدى المصحف الشريف والملابس الداخلية والبطانية.

اصطففنا في طابور، وأخذت شرطة الإدارة ووكلاء النوبة ومنهم الوكيل محجم بالتهديد والوعيد قائلًا: إنَّ الوضع

الماضي قد ولى ولن يعود، وإنَّنا سندخل إلى المبنى، وكل شخص له سرير، ولن ينام أحد على الأرض، مضيفًا أنَّ لديه بين كل شخصين عميل له، في محاولة منه للنيل من نفسيات السجناء، وبثّ الشكوك بينهم، إلَّا أنَّه لم يفلح في ذلك، حيث قابل السجناء هذا الادعاء بالسخرية والتهكّم.

تهديدات الوكيل محجم، تبعتها قراءة قائمة التعليمات والقوانين الجديدة عبر مكبّر الصوت، وقائمة للعقوبات عند مخالفة السجناء لأيّ من هذه القوانين، فيم لم يذكر أيّ شيء عن حقوق السجناء، كل هذا ونحن نترقب ماهية التوزيع الذي سنوزع على أساسه، هل هو على أساس الأحكام المدانين بها؟ أو نوع القضية كما كان معمولًا به سابقًا؟ أو الفصل بين المعتقلين السياسيين وباقي السجناء؟

لم يكن أيًّا من هذه الأساسات، لقد صدمنا لطريقة التصنيف، فما إن أمسك الملازم الأول المجرم عبد الله عيسى مكبر الصوت وقال: من يسمع اسمه يصرخ بأعلى صوته نعم سيدي وينهض سريعًا من محله حاملًا مقتنياته ويركض للداخل، عنبر (1)، أحمد، أحمد، أحمد.

لم يكن هناك تصنيف معين؛ بل وزعونا على حسب الحروف الأبجدية، ممَّا يدلُّ على تخبط الإدارة. أما نحن فكانت مشاعرنا متقلبة متضاربة، هل نفرح لأنَّنا سننجو أخيرًا من عذاب الخيام، أو نحزن لوداع الأحبة والأصدقاء؟ أما أنا وعند قرب الترتيب الأبجدي لاسمي كانت عيني لا

تغادر عين المعلّم، تودعه في صمت بالغ ودموع متناثرة، كنت أخاطب نفسي حينها قائلًا: كم سأفتقدك يا أيُّها العزيز.

وصل الملازم الأول عبدالله عيسى إلى اسمي، فأجبته بنعم فقط، ممَّا أثار استهجانه وغضبه فردَّ عليَّ: قل نعم سيدي يا أبله، يا كلب. ضاربًا إياي على قفاي، دخلت الممر وفوجئت بأنَّ شرطة الإدارة تقوم بنزع وسلب كل مقتنيات وملابس السجناء، بما فيها الملابس الداخلية التي ابتعناها منهم قبل أسبوعين ـ سرقة بذريعة التفتيش ـ حتى المصحف الشريف ممنوع! فقط الثياب التي نلبسها والبطانية، ثم قاموا بتفتيشنا تفتيشًا مذلًّا عبر لمس الأعضاء الحساسة.

لم تكن طريقة إدخالنا إلى المبنى مغايرة عن الطريقة والكيفية التي أخرجنا بها، انقسم مرتزقة الدرك الأردني إلى صفّين على امتداد الممر إلى الغرفة التي صنّفت إليها، يوسعون كل من يأتي الدور عليه ضربًا مبرحًا بالهراوات حتى يصل إلى غرفته، ولسوء حظي أنَّ غرفتي كانت بعيدة، فتلقيت ضربات قاسية رسمت خرائطَ على ظهري، وأغلق الباب من خلفي.

لكن العدد لم يكن مكتملًا على عدد الأسرة في الغرفة، فلم تمرّ ساعة إلَّا وقد أدخلت دفعة من السجناء الذين نعرفهم جيدًا، إنَّهم الإخوة نفسهم الذين نقلوا من مبنانا إلى المبنى رقم (3) قبل حوالي شهر، وزع السجناء على العنابر

كلها، عدا عنبر (4) أي إنَّه تم إدخال 420 سجينًا إلى داخل المبنى، وبقي أكثر من 400 آخرين في الساحة موزعين على الخيمتين، يذوقون شتى أنواع العذاب، وينتظرون الخلاص.

لكن هل تخلصنا نحن الذين تمّ إدخالنا إلى المبنى من هذا العذاب والكابوس الذي جثم على صدورنا لأكثر من شهر!؟ لا.. لقد بدأ فصل جديد..

- 39 -

خلط السجناء..

فزعنا فجأة على صوت قرع عنيف على باب الزنزانة أثناء نومنا، وتمت مداهمتنا بالذعر والخوف الذي كاد يوقف قلوبنا، وقبل أن يتسنَّى لنا النهوض، فتح الباب عدد من مرتزقة الدرك الأردني يتطاير الشرر من أعينهم، ووجوههم محمرَّة من الغضب، خيّل لنا لوهلة أَنَّهم قادمون لقتلنا من شراستهم، والوقت قد اقترب من الفجر، دخلوا وصفعوا كل من بالغرفة بحجة التأخر عن الوقوف لهم، ورمونا بأفظع الشتائم، ثم غادروا المكان بعد تهديد ووعيد بالعودة مجددًا وتكرار المشهد، مشهد من مشاهد المداهمات الليلية التي تكررت في كل ليلة، حتى سلبت من أعيننا النعاس، وحرمتنا من لذة النوم.

خمسة أيام لم نخط فيها خطوة واحدة خارج باب الزنزانة، ولم ترَ أعيننا السماء أو الشمس، إلَّا من تلك النوافذ العالية. خمسة أيام لم يفتح الباب. كانت الوجبات

تدخل من الفتحة المستطيلة وسط الباب، والتي يسمّيها الأردنيون (الطاقة) ثم نُخرج بقايا الطعام والأوساخ منها، وكأنَّنا في حظيرة للأغنام.

خمسة أيام لم يفتح الباب إلَّا للعدّ أربع مرات في الصباح والمساء والليل والفجر، عدّ مذلٌ نجبر فيه رغم أنَّنا في قمة تعبنا ونومنا بالاصطفاف أمام الباب، مع ذكر تسلسلنا العددي.

أخذنا بعدها للدكان (الكانتين) وصادف ذلك تاريخ 26 مارس/ آذار 2015م كانت رحلة الذهاب للكانتين كرحلة مدرسية للأطفال، فقد أجبرنا على الاصطفاف والمشي بشكل قطار، واضعين أيدينا على أكتاف بعضنا بعضًا، لم يسمح لنا بشراء كل شيء، فقط الملابس والصابون والشامبو ومعجون وفرشاة الأسنان، أما باقي المأكولات والمشروبات والسجائر ممنوعة رغم توفرها، ليس لشيء سوى الاستمرار في سياسة العقاب الجماعي التي تطبقها الإدارة.

كنَّا نتوق إلى العودة إلى المبنى للاستحمام بالصابون والشامبو الذي افتقدناه لأكثر من شهر ونصف، كان الاستحمام في ذلك اليوم لذة وانتعاشًا، فقد شعرنا بأنَّ أجسادنا صارت أخفّ بكثير، وكأنَّنا كنَّا نحمل أثقالًا من الأوساخ على مدى شهر ونصف، حتى ألفنا رائحة العرق النتنة التي تخرج من أجسادنا.

تأملت شخصيات زملائي الجدد في الغرفة، فوجدت أنَّ هناك ثلاثة سجناء جنائيين بينهم أجنبي، يقابلهم ثلاثة سجناء سياسيين، لم يكن هذا الخليط المتكرر في جميع الغرف محض صدفة؛ بل أعدّت له الإدارة سلفًا وبكل إحكام، ظنًّا منها أنَّها ستقيّد السياسيين بالجنائيين، وأنَّها ستثير المشاكل بين الفئتين، بينما نحن لا نعير أيّ اهتمام لهذه الفروقات، ولم تكن هناك أي مشكلة تكدّر صفو التعايش بيننا في سجن واحد؛ بل ترسخ وبشكل كبير عامل التكافل الاجتماعي بين الطرفين، وأبعد من ذلك، فلم يكن هناك فرق بين البحرينيين والجنسيات الأخرى لقناعتنا بظلامة الكثير من الجنائيين الذين نالتهم أحكام مجحفة وغير عادلة على قضايا لا تستحق هذه الأحكام الطويلة.

بل إنَّ بعضهم أبرياء، إلَّا أنَّ القضاء غير العادل كما صنّفته الأُمم المتحدة ودول أخرى عريقة حليفة للنظام، لم ينصفهم ولم ينصفنا، ففشل مشروع الإدارة فشلًا ذريعًا في إثارة الفتنة بين مكونات مجتمع السجن.

كانت الأوقات مملة جدًّا، فليس أمامنا سوى النوم والجلوس والحديث فقط، والذي صار مكررًا ورتيبًا، ولم يعد هناك شيء جديد نتحدث فيه، فكل واحد منا قد أفرغ ما في جعبته من أخباره وحياته التي عاشها من صغره إلى لحظته تلك.

كان أبرز ما تحدث به زملاء الغرفة الجدد حديث (أبو

جميل) عن استدعائه المتكرر للتحقيق في الإدارة، واتهامه في قضية لا ناقة له فيها ولا جمل، فقد انتزعت اعترافاته تحت التعذيب بالضرب المبرح بحزمة من الأسلاك الكهربائية الملتفة على بعضها بشكل لولبي، والعصي البوليسية والأعمدة الحديدية، مع الوقوف لساعات، وإهانته عبر إجباره على تقبيل ولعق أحذية الضباط، مع رميه بأقذر الشتائم.

ولم يكن التعذيب من شرطة الإدارة أو الدرك الأردني مجهولي الهوية؛ بل انتهجه الضباط البحرينيون، وكانت أوامرهم، ويباشر في تعذيبه الضابط المجرم الكبير عبد الله عيسى، وعيسى الجودر، وعيسى إلياسي، ومسؤول الصيانة عبدالله الدوسري، الذي لف خرطومًا بلاستيكيًّا على عنق أبي جميل، وراح يخنقه بسحب طرفيه، وبحضور الرائد الأردني بسام محمود الحنيطي.

بين طيَّات الحديث لم يجد السجين الأجنبي بُدًّا من البوح بما في جعبته، فهو أيضًا كان له نصيب من الضرب والإهانات.

- 40 -

السجين الأجنبي

قال السجين الأجنبي: كنت أقيم في أحد «الأماكن العامة» داخل مبنى 4 إلى يوم الضربة المشؤومة في هذا المركز الذي يحمل اسم الإصلاح والتأهيل، وهو لا يمتُّ بصلة للإصلاح أو التأهيل. إنه إصلاح بالمنومات والمخدرات التي توزّع على السجناء بانتظام مرتين أو ثلاث بشكل يومي، والتأهيل فيه ليس سوى التنكيل والإهانة.

قلت إني أقيم في مكان عام داخل المبنى. ما هو المكان العام؟ هو أن لا تكون في غرفة ولا زنزانة وليس لديك سرير ولا مكان ومصيرك أن تعيش مشردًا تبحث لنفسك عن أية مساحة هنا أو هناك، في ممر أو زاوية، يمكن أن تضع جسدك فيها لتنام أو ترتاح أو تتناول طعامك. داخل المبنى أكثر من 1250 شخصًا يكتظون في مساحة لا تتسع لأكثر من 650، يضوج هؤلاء في الممرات والصالات وتحت كل

ما له سقف في هذا المبنى. تمنيت لو أتمكن من تصويرهم وهم نيام في الحجرات والممرات والمساحات العامة.

إذا كنت سجينًا جديدًا، وأردت الرقاد على سرير في أحد الحجرات سيواجهك سؤال جوهري: هل لك صديق من قدماء النزلاء ممن لديه مرقد داخل واحدة من الحجرات؟ إن كان نعم، سيكون ذلك بوابة عبور لك إلى الغرفة ولتشارك هؤلاء تناول وجبات الطعام أو الجلوس على سرير أحدهم وربما التناوب على النوم. وإن لم يكن لديك هذه المعرفة فمصيرك الرقاد في أحد الأماكن العامة أو الممرات، والتجول بينها وبين العنابر، ولتسلّم قدرك للضجيج والخناقات المستمرة بين النزلاء والشرطة والاستنفارات التي لا تنتهي ودوي الأبواب.

لقد عشت هذا الهرج والمرج شهورًا عدة، وأنا حائر حيال هذا الواقع المقلق والمخيف. سألت يومًا أحد النزلاء القدماء ممَّن له إلمام كامل بما يجري في السجن، قلت له: هل سيظل هذا الحال طويلًا؟ قال: لن يطول كثيرًا؛ بل إنَّ ميعاد الضربة قد حان. تعجبت: ميعاد؟ وأي ضربة يا رفيقي؟

قال: الحال هنا ليس كما ترى طوال العام؛ بل هناك مراحل تمرُّ بنا كلّ عام، أبواب الزنازين والعنابر لا تُفتح إلَّا في أوقات معينة مهما زاد عدد السجناء، ولكن مع الوقت يفتحون هذه الأبواب وصالات المداخل وساحتي

التمريض، إلى أن يصبح التنقل في كافة أرجاء المبنى متاحًا للجميع ليلًا ونهارًا. وتزيد وتيرة الحرية، ويمكن معها لكل من لديه أموال الحصول على أجهزة النقال والمخدرات بجميع أنواعها، البائعون هم من رجال الأمن الذين ينسب لهم التأهيل والإصلاح هنا، والمشترون هم من النزلاء الذين سوّلت لهم أنفسهم شراء حاجاتهم. وحينها ستلاحظ تساهلًا كبيرًا مع السجناء، وتغاضيًا عما يفعلون، ليصبحوا أكثر جرأة على التمادي، حتى يكتفي المجرمون ويحين موعد الضربة، سيقدّمون حجة بالغة للإدارة بضرورة التدخل للتأهيل وإعادة الأمور إلى طبيعتها، ومصادرة كافة الممنوعات، وبسط الانضباط من جديد.

يكمل السجين الأجنبي: هذا الرفيق كان سياسيًّا معارضًا ومحكومًا بالسجن لعدة عقود، وما زال لا يعرف كم تنتظره من أحكام. كان صادقًا معي في أحاديثه، ويتعاطف مع حالتي المزرية في السجن كوني مغتربًا ووحيدًا. أحببته أكثر واحترمته أكثر فأكثر عندما وقف معي في مرضي الذي اجتاحني ذات مرة، فقد وقف فوق رأسي وأنا أنام وسط الازدحام، وأتصبَّب عرقًا، مصفرّ الوجه، منهك الجسد، أتضوَّر جوعًا، يناولني الطعام بيد، والأدوية وقنينة الماء بيده الأخرى. كانت هذه أول معاملة إنسانية أتلقاها منذ دخلت بوابة مركز الشرطة. لقد تمت إدانتي من خلال أقوال دون سند ودليل. لا أنسى أبدًا يوم دخلت مبنى 4 وقادني الشرطي إلى إحدى الحجرات، وأخبرهم أنَّ اسمي

مسجل فيها، لقد صرخوا في وجه الشرطي، لماذا أنا مسجل ضمن حجرتهم، والحجرة مكتظة. لم أقترب من حجرتهم ولا حجرة غيرهم، نمت منذ ذلك اليوم أينما تيسر لي في الأماكن العامة، واستخدمت الحمامات العامة، ولم أحتكّ بأحدٍ غير بضعة أشخاص أعرفهم من مركز اعتقال المغتربين مثلي، وكانوا ممَّن لا سلطان لهم ولا معين.

يكمل السجين الأجنبي: لذا كانت رفقة هذا الرفيق تهمني جدًّا، إذ كانت بمثابة منفذ لي أطلّ منه على أحوال البلد في الخارج، والتفاصيل التي حدثت في البحرين من 2011م وما يحدث في السجن. وبالفعل لقد اطلعت منه على جوانب كثيرة لم تصل إلى الرأي العام، وكنت أجد كل ما يقوله ويتوقعه حاضرًا أمامي.

ومع اقتراب موعد الضربة، تزداد لا مبالاة الشرطة تجاه ما يفعله المتمردون من سبٍّ أو تكسير أو ما شابه، كأنَّ هناك مجندين لتأجيج التجاوزات، ودفع السجناء إلى حافة المواجهة مع الشرطة والتمرُّد عليهم.

في 10 مارس/ آذار، وبعد أدائنا لصلاة العصر، سمعنا دويّ قنبلة صوتية، وبدأ الغاز المسيل للدموع يتسلل إلى المسجد، وبات الانتظار في المسجد مستحيلًا. الجميع ترك الذكر والتلاوة، ولجأ إلى الله، وبدأ الفرّ والكرّ داخل المبنى بحثًا عن مخرج، والمرور بين الهراوات التي كانت

تتحرك صعودًا ونزولًا فوق رؤوس السجناء، ومن أفلت منها كان ناجيًا ومنتصرًا.

تمكنت من العبور أمام الكتائب الأمنية المتراصة عند المخرج المؤدي إلى الساحة، ووصلت إلى ساحة التمريض، التزمت بنصيحة إخوتي السجناء بأنه لكي أنجو من بطشهم، عليّ أن أخبر قوات الأمن مباشرة أنني أجنبي وأنني لا أتكلم العربية، إلا قليلًا. قال لي الإخوة: إنَّ هذه الطريقة ستضمن عبورك بشكل آمن وسالم. وهذا ما حدث بالفعل، بل إنها ضمنت لي الأمان طوال فترة إقامتنا في الخيمة خلافًا للآخرين من البحرينيين.

ولم أكن أدرك في أول الأمر لماذا صمت السجناء تجاه الضرب المبرح الذي يتعرضون له والذي أدَّى في كثير من الحالات إلى جروح، ثم علمت أنّ هناك فريقًا ذا كفاءة عالية، يقوم بتصوير ما يحدث بعدسات الهواتف النقالة، وبكفاءة عالية يقوم بعمل إخراج للفيديوات وإرسالها إلى خارج السجن، ولم يدر أحد بهم حتى أكملوا المهمة.

عثر الأمن على العدسات بعد عناء كبير وجهود مضنية، استخدموا فيها مخبرين تمّ إغراؤهم بعلب الدخان التي منعت عن السجناء وصار للحصول عليها ثمنًا باهظًا، لقد ضحَّى من ضحَّى وانقضت المهمة، وخلت الساحة بعدها من العمل الإعلامي.

يكمل السجين الأجنبي: من أهم الأسئلة التي كنَّا نواجهها طوال إقامتنا في العراء، هي عن نوعية قضايانا، فاختيار من يطبّق عليهم التأهيل -أي الإذلال والتنكيل- كان يتمّ طبقًا لماهية القضية التي سجنت بسببها.

قضايا السرقة بجميع أنواعها تحميك من الوقوع ضحية هذا التأهيل، وقضايا الاغتصاب تتبعها أسئلة أخرى، مثل: كيف كان، وأين ومتى كانت؟ وأسئلة تثير السخرية واللهو، وقضايا الاحتيال كذلك تثير أسئلة مثل أين وظفت الأموال؟ وكم المبلغ؟ لكن في النهاية ينجو أصحاب هذه القضايا ويفلتون.

أما أصحاب القضايا السياسية فقد كان حظهم أقل بكثير من الباقين، ولذا راح السجناء يختلقون قضايا أخرى لعلهم يفلتون من هذا العذاب، أحد أبرز تلك القضايا وأكثرها شيوعًا بين الشباب هي استخدامهم لتسمية (تيجوري). لفتتني التسمية، وعندما سألت عن معناها؟ قالوا لي: إنَّها خزينة للمحفوظات الثمينة من الأموال والمجوهرات في البيوت والمحلات، وتتعرض تلك لعملية سرقة بشكل شائع في البحرين، وعقوبتها ستة أشهر أو سنة.

- 41 -

منع الأذان وصلاة الجماعة

مرت الأيام ببطءٍ شديد وحمل ثقيل، وبحالٍ كئيب وسريع، فلا جفن يغمض لنا في ليلٍ، ولا عمل يشغلنا في نهار، كنت أنظر إلى نفسي ومستقبلي ومصيري.

صحيح أنَّ القضبان والجدران تحول بيننا وبين العالم الخارجي، لكنَّها لا تمنعنا من أن نجول بأفكارنا وآمالنا إلى خارج هذه الأسوار العالية، رغم أنَّنا لا نملك داخل هذه الزنزانة سوى بطانية، فشرطة الإدارة سلبت منَّا كلّ شيء بحجة التفتيش حتى المصحف الشريف وملابسنا، لكن بقي هناك شيء واحد لم ولن يستطيعوا سلبه منِّي، كان ولا زال معي، أحمله في قلبي ومشاعري وأحاسيسي، ولا يحتاج منِّي إلى شيء مادي، لأنَّه كان ولا يزال حاضرًا بداخلي، ولم يغب عنِّي أبدًا، إنَّها أُمِّي الحنونة الحبيبة التي كانت معي دائمًا في أحلك الظروف، أعيش بها ومعها، وأنام في حضنها وكنفها

حتى وأنا هنا، فأستمع لصوتها وحكاياتها تنبعث من داخلي لأنام على صوتها.

لم يكن وضع النوم أفضل حالًا من الخيمة، فعلى صقيع المكيف وبرودة البلاط العاري تتجمد أوصالنا، تُطفأ الأنوار عند الساعة الثامنة مساءً، كما كنَّا في الخيمة، ولا يسمح لأحد بالنهوض من سريره أو تبادل أطراف الحديث، فيغزونا النعاس وتستسلم أجفاننا للنوم على وجل، وفي منتصف الليل تداهم العصابة المجرمة المكان، تقتحم الغرف بقيادة الوكيل محمد أخو الوكيل عمر والوكيل ثامر بحثًا عن أيّ شيء قد يخالف أوامرهم ولو كان رغيف خبز أو طعام. فقد منعوا السجناء من الإبقاء عليه بعد الوجبة، بينما نحن صرنا نخبئ الخبز لنتسلَّى بأكله.

وأحيانًا يكتفي الوكيل الأصلع ربيع أو الرقيب معاذ بإفزاعنا من نومنا عبر قرع الأقفال بقوة، أو إغلاق فتحات الباب المستطيلة بعنف، مع انتظارهم لأيّ صوت يتذمّر من هذا الوضع ليكون مصيره التنكيل والقمع وجعله ضحية تبثُّ صدى صرخاتها الذعر والرعب في قلوب السجناء.

بعد أسبوع من دخولنا المبنى أخرجونا إلى الممر الذي يقع بين العنابر، والذي كان في السابق مخصصًا لنشر الثياب والتعرض للشمس. لكنّ الوكلاء الأردنيين ربيع وفارس الحفيظي كانوا يمنّون علينا بأن السماح لنا

بالتعرض للشمس هو بتفضّلهم علينا لا بأمر الإدارة، وأنَّه ليس لنا أية حقوق كما كان يقول الوكيل أشرف.

غشيتنا أشعة الشمس، واقشعرت أبداننا، وكأنَّنا رضُّع حديثو الولادة، كانت مدّة التشمّس حسب مزاج الوكيل، فقد تكون نصف ساعة أو حتى خمس دقائق وصباحًا فقط. وكانوا يرغموننا على لبس زي السجن الرسمي (الدريس) للخروج إلى ذلك الممر، أو الذهاب للاتصال رغم كونه مخصصًا للتحركات خارج المبنى فقط.

لم أحفظ تواريخ تلك الفترة، فكل الأيام كانت متشابهة، لكن صادفت شهري رجب وشعبان الهجريين، اللذين يضمَّان الكثير من المناسبات الدينية التي يحييها المسلمون الشيعة في البحرين، مُنعنا من إحيائها كما كنا نفعل في السابق، وقد صاروا يغلقون علينا الغرف، ويمنعون أيّ تجمع للسجناء، حتى لو كان للدعاء أو للصلاة.

لم تقف الإدارة عند هذا الحد؛ بل تمادت بالسماح للمرتزقة الأردنيين بمنع رفع صوت الأذان، فكنا لا نعرف وقت الصلاة إلَّا من خلال استلامنا الوجبات، والأكثر سوءًا من ذلك عدم معرفتنا بدخول وقت صلاة الفجر، الأمر الذي جعل السجناء ينامون ويستيقظون على وجل لمعرفة وقت الصلاة عبر النظر إلى السماء.

في إحدى الليالي استيقظت مبكرًا، لا لمعرفة وقت الصلاة؛ بل على هدير مروحية أفزعني صوتها المرعب، فهي تحلِّق على مستوى منخفضٍ جدًّا، جعلت النوافذ ترتج بشكل عنيف، خيّل لي من ذلك أنَّها ستهبط فوق المبنى لشدة قربها.

- 42 -

مروحية وعاصفة بشرية...

لم يكن موقع صوت المروحية بعيدًا، ففي الساحة كانت الليلة ظلماء، خيَّم عليها الهدوء، وكانت الخيمة تعجُّ بشخير السجناء، والكل ينعم بسكينة لا نظير لها، وفي ذلك الوقت القريب من الفجر، وفي هذه الأجواء، وإذا بعاصفة عنيفة غير متوقعة قد حلَّت، ليست عاصفة جوية نتيجة تقلبات الطقس؛ بل من نوع آخر، استيقظ السجناء مذعورين على أصوات صراخ المرتزقة الأردنيين وصفعاتهم ووطء أجسادهم، والأحذية الجلدية القاسية، وركلهم بها في كل زوايا الخيمة، جعل بعض السجناء يفركون أعينهم ظنًّا منهم أنَّهم ما زالوا يحلمون، واصفرَّ لون البعض الآخر من هول المشهد، فقد خيَّم الفزع على السجناء بشكلٍ رهيب.

كان المرتزقة بأعداد كبيرة، يدفعون السجناء بشكلٍ رهيب وبقوة نحو باب الخيمة، فسقط الكثير منهم على الأرض بسبب التدافع تحت أقدام زملائهم، هذا وصرخات

السجناء تتعالى من الضرب المبرح بالأيادي والعصي البوليسية.

خلال فترة لا تتجاوز الأربع دقائق، تمَّ إخلاء الخيمة بتلك الطريقة الهمجية، وتكدَّس السجناء في زاوية من زوايا الساحة في العراء، واضعين أيديهم على رؤوسهم، تحت سطوة إرهاب المرتزقة، مع إنزال رؤوسهم إلى الأرض حتى لا يتسنَّى لأحدٍ النظر في وجوه المرتزقة والتعرف عليهم.

في هذه الأثناء حلَّقت مروحية وزارة الداخلية على مستوى منخفض جدًّا فوق الساحة، كان هدير محرّكها يصمّ الآذان، وأجنحتها أثارت الغبار من شدَّة انخفاضها، يعتقد أنَّها كانت تصوِّر المشهد بأكمله كجزء من عملية الاقتحام، هذا وفرقة من قوات المرتزقة من شرطة الإدارة بقيادة الرائد بسام محمود الحنيطي قد دخلت الخيمة لتفتيشها، فبعثروا كل مقتنيات السجناء حتى المصاحف الشريفة، ومزقوا ملابس السجناء، وسكبوا مساحيق التنظيف والشامبو عليها؛ وسرقوا بعض المقتنيات الصغيرة، مثل بطاقات الاتصال، وقلبوا الخيمة رأسًا على عقب وكأنَّ إعصارًا قد اجتاحنا بها.

لم ينتهِ المشهد عند هذا الحد؛ بل كانت فرقة أخرى من قوات المرتزقة تنكّل بكلّ السجناء دون استثناء، وخصوصًا من يحاول أن يريح رقبته أو ينزل يديه عنها، أو يرفع رأسه ليرى ما يدور حوله.

بعدها قاموا بصف السجناء بشكلٍ لا يترك لأيّ سجين الفرصة لمدّ رجليه، وطلبوا من الجميع نزع ملابسهم عدا الملابس الداخلية، وبدؤوا بضرب من لا يمتثل لذلك.

أبقوا السجناء على ذلك الحال لمدة تتجاوز الساعة، أتم فيها المرتزقة التفتيش الذي لم يعثروا فيه على أيّ ممنوعات تُذكر.

فطلب من السجناء لبس ملابسهم خلال دقيقة واحدة، والدخول إلى الخيمة واحدًا تلو الآخر، بين صفين من المرتزقة، لم يسلم السجناء منهم من الصفع والركل والسبّ والشتم. وطلبوا من السجناء الهدوء والإسراع في الاستلقاء للنوم خلال خمس دقائق.

إلَّا أنَّ الكلّ وبسبب ما أحدثه أفراد المرتزقة من تخريب مقتنيات السجناء وبعثرتها لم يميز حاجياته ومقتنياته، وراح يبحث عنها لفترة دون جدوى، حتى نال التعب بعضهم، وتركوا الخيمة كما هي، بينما بقي البعض مستيقظًا لينال أبشع الشتائم التي نسمعها بشكل يومي، ويندى لها الجبين بالنيل من العرض والشعب البحريني كما فعل الوكيل محمد المجالي؛ بل وتجرأ رئيس العرفاء بكر ذو الصوت المزعج يومًا ما على سبّ خالقه الله عزَّ وجلَّ!

- 43 -

مغادرة الخيام

17 مايو/أيار ـ 2 يونيو/حزيران 2015

كنَّا جالسين نتبادل أطراف الحديث في حلقة دائريَّة، يسودها المزاح والضحك، ونحن نشرب الشاي، ليس في أكواب زجاجية أو حديدية أو ورقية كما تتوقعون؛ بل في قناني الماء أو الحليب البلاستيكية وهي تنكمش بمجرد سكب الشاي فيها، فتتفاعل أجزاء منها وتختلط بالشاي الذي نشربه، ليكون سمًّا قاتلًا بطيئًا، وهو ما أكده كلام كثير من الوكلاء الأردنيين، بأنَّهم يسقوننا سمًّا دون مراعاة للإنسانية، واستهتارًا بصحة السجناء.

هكذا حالتنا منذ 10 مارس/ آذار، فالإدارة لا تسمح لنا بشراء الأكواب الورقية من الدكان (الكانتين) ولا تزوّدنا بها من مستودع السجن، فصرنا نشرب الشاي بهذه الطريقة، رغم علمنا بأنَّه مضرٌّ للصحة، لكنها الحاجة.

ابتكر الشباب طريقة أخرى لشرب الشاي وهي علب العصير الورقية المستهلكة التي يتمّ فتحها من الأعلى، واستخدامها بديلًا عن الأكواب، لكنَّها لا تحفظ الحرارة ولا تصمد أمامها، فتصبح صعبة الإمساك.

فجأة وبينما كنَّا نشرب الشاي، سمعنا ضجيجًا عنيفًا لفتح أقفال الأبواب بطريقة همجية تتخلَّلها صرخات وآهات السجناء، كانت الأصوات والضجيج يقتربان أكثر فأكثر، ولكن لم يجرؤ أحدٌ منَّا على استراق النظر من فتحة الباب المستطيلة لمعرفة ما يجري؛ بل تجمدنا في مكاننا ننتظر وصولهم إلى غرفتنا.

لحظات وفتح الباب بقوة، فوقف الجميع على أقدامهم ليس احترامًا لهؤلاء الأوغاد؛ بل خوفًا من بطشهم، دخلوا وقرؤوا اسم أحد الإخوة الموجودين معنا، وراحوا ينكلون به ويضربونه، ثم أمروه بجمع مقتنياته بسرعة خلال لحظات، لقد بقي مشدوهًا وفي حالة يرثى لها، وقبل انتهائه من جمع مقتنياته، سحبوه من ثيابه وأشبعوه ركلًا على مؤخرته حتى باب العنبر، وأقفلوا الباب من ورائهم بعد أن رمونا بأبشع العبارات.

_ إنَّها عملية نقل جديدة لفئة محددة من السجناء، ولكن على أي أساس؟ قلت متسائلًا بصوتٍ مسموع، فأجابني أبو جميل سريعًا:

أتوقع أنَّه تصنيف جديد على أساس الأحكام، والفئة التي تمَّ نقلها هي من زادت أحكامهم عن الـ 15 سنة، فالأخ الذي تمَّ نقله قبل قليل بتلك الطريقة الشرسة قد تجاوزت أحكامه الـ 50 سنة على ذمة قضايا ذات خلفيات سياسية، اتهموه فيها بالإرهاب والشغب، وخيانة الوطن والتخابر، لفقها له مكتب التحقيقات الجنائية سيئ الصيت، بعد أن انتُزعت اعترافاته تحت وطأة التعذيب.

كان حدس (أبو جميل) في محله، فكل من تمَّ نقلهم تجاوزت أحكامهم الـ 15 سنة، أول شيء تبادر إلى ذهني أنَّنا حرمنا من المعلّم، فقد نقل من المبنى، وسوف نفتقد عطاءه غير المحدود، ونصائحه وتوجيهاته، وبركات وجوده التي تجذب الشباب بشكلٍ كبير نحو الدروس والبرامج لإبعادهم عن طريق الفساد والانحراف.

بعد يوم من نقل عشرات السجناء إلى جهة مجهولة، جرى إدخال عدد آخر من الخيمة لملء الفراغ الذي حصل.

في مثل ذلك الوقت، كانت كل الأنظار تتجه إلى شهر رمضان المبارك يفصلنا عنه شهر، والحالة العبادية مسيطرة على الأجواء استعدادًا للشهر المبارك، فبدأ الكثير من الشباب بصيام النهار وقيام الليل، مستغلّين أوقات الفراغ في الدعاء والصلاة وقراءة القرآن الكريم، الذي حصلنا عليه بشق الأنفس، وخصوصًا أنَّنا نبقى في الغرفة لمدة 22

ساعة! ما منح كل واحد منَّا فرصة كبيرة للاختلاء بنفسه ومحاسبتها وترويضها مع مناجاة الله سبحانه وتعالى.

لم يكن الموسم العبادي الذي قد اقترب فقط؛ بل حتى موسم الحرّ الشديد الذي يستحيل على المرء الجلوس فيه تحت أشعة الشمس الملتهبة، فكيف سيقضي الإخوة في الخارج شهر الصيام وسط هذا الحرّ الشديد!

وأما الإدارة فقد استمرت بالتسويف والوعود الكاذبة والحلول الترقيعية بحق الإخوان في الخيام، بداية نقل حوالى 150 سجينًا إلى صالة الطعام الكبيرة (اللنغر) لتقليل العدد في الخيمتين، ثم أعطتهم الوعود بأنَّه لن يبقى أحد في الخيام مع حلول شهر رمضان، وذلك على لسان الرائد بسام محمود الحنيطي التابع للدرك الأردني؛ إلَّا أنَّ شهر رمضان قد حلَّ، ولم يتغير شيء سوى أنَّهم سمحوا للسجناء بالنوم داخل عنبر (4).

وذات يوم في شهر رمضان، وبعد خروجي من مكتب الاتصالات قرب المسجد، تسلَّلت عصرًا إلى الخيام في الساحة للاطمئنان على الإخوة، لم يكن الأمر صعبًا، فتسلط الوكلاء الأردنيين وتعنّتهم قد خفّ على الإخوة في الخيام؛ بل وغابت السيطرة على الوضع، فهم قد استنفدوا كل الخيارات المتوفرة لديهم، ولم يعد هناك شيء لم يفعلوه.

ما إن حطت قدمي أرض الساحة، حتى اضطرب قلبي لعودة الذكريات السيئة التي عشتها هنا، وللمشهد المأساوي الذي رأيته، الإسفلت قد اصفرّ من طبقة الغبار، وخيمة قد تحول لونها من الأبيض إلى البني، وساحة خالية من السجناء، تقدمت نحو الخيمة والحرّ قد خنق أنفاسي في هذه الدقائق البسيطة، فكيف بمن يعيش هنا ليلًا ونهارًا؟!

دخلت الخيمة التي كانت كالخربة المهجورة، مفروشة بمفارش النوم التي تمَّ توزيعها على السجناء بعد دخولنا للمبنى، وقد علَّق بعضها بسقف الخيمة في محاولة لتخفيف حرارة أشعة الشمس، أما السجناء فليس هناك سوى عدد قليل جدًّا يتبادلون الحديث، أو قد غلبهم النعاس بعد أن نزعوا بعض ثيابهم، كانت المكيفات تعمل داخل الخيمة، لكن دون جدوى، ما إن رآني عدد من الإخوة حتى أسرعوا لاستقبالي، والسلام عليَّ بحفاوة حتى أيقظوا بعض النائمين بضجيجهم، إنَّهم: أبو محمد، وعلي جمال، وأبو غايب.

لن أبالغ إن قلت إنني لم أميّز وجوههم في بادئ الأمر، فكأن أشعة الشمس قد صهرت وجوههم كما يصهر المعدن، ثم سكبتها في قالب آخر جديد، اسمّرت وجوههم، وذبلت أجسادهم، كانوا كأشجار الخريف وأوراقها الذابلة، لم أستطع حبس دموعي، فسقطت حائرة، فرآها أبو محمد وقال ممازحًا: ماذا هناك يا جهاد، ألهذا الحدّ اشتقت لنا؟!

فرددت عليه وأنا أمسح دموعي: نعم لكن حالكم أحزنني كثيرًا، فبعد شهر ونصف تقريبًا أرى وجوهكم قد غيَّرتها حرارة الشمس، وأجسادكم قد نحلت من التعب، كم إنَّكم أبطال صابرون مكافحون.

علي جمال: دع عنك هذا الكلام وأخبرنا عن حالكم وأخباركم داخل المبنى.

أجبته: سأخبركم بعد أن نجلس، لكن أخبروني أولًا أين باقي السجناء؟

أبو محمد: إنَّهم نائمون داخل عنبر (4) لنذهب إلى جولة هناك ثم نعود لنتحدث.

توجهنا جميعًا إلى عنبر (4) من الباب الخلفي الذي يطل على صالة التلفاز التي كانت مغاسل ومسابح قبل الصيانة، بالكاد كانت هناك مساحة لتضع قدمك للدخول إلى العنبر، فأكثر من 60 شخصًا ينامون في تلك المساحة، والبعض الآخر يشاهد التلفاز بهدوء.

أما ممر العنبر فقد كان مظلمًا وكئيبًا، بين أبواب الغرف ينام السجناء، وأما داخل تلك الغرفة التي لا تتعدى مساحتها مترين في مترين ونصف، والتي كانت أصغر من الغرف في باقي العنابر، ينام أكثر من ثمانية أشخاص، فيها سرير ذو طابقين، ينام شخصان في مكان وأربعة أشخاص على الأرض، وأرجلهم تحت السرير في منظر أقسى وأشدّ

سوءًا من مخيمات اللاجئين؛ بل إنَّ ظروف مخيمات اللاجئين أفضل بكثير ممّا عشناه، ولا توجد نسبة مقارنة بيننا وبينهم، قد يرى البعض مبالغات في نقل هذا المشهد، لكن على المشككين الرجوع إلى تقارير منظمات حقوق الإنسان المعتبرة والمعترف بها دوليًّا، ومجلس حقوق الإنسان التابع للأُمم المتحدة الذي تناول الحدث وتفاعل معه بشكل كبير آنذاك، لكن كعادة الأنظمة الدكتاتورية فهي تسعى لطمس الحقائق، وإبعاد شبهة الانتهاكات عنها، إلَّا أنَّ الحقيقة ساطعة سطوع الشمس في كبد السماء، وعليها شهود.

انتهينا من الجولة، وجلسنا في إحدى زوايا الساحة نتبادل أطراف الحديث والأخبار، ونقارن الوضع في الخيام بالوضع داخل المبنى، فقلت لهم: إنَّكم تنعمون بالحرية في فعل ما يحلو لكم، ولكن في وضع مأساوي غير صحي ومكتظ، ونحن الذين داخل المبنى نعيش في وضع معتدل نظيف، لكن في ضيق وشدَّة.

ردَّ علي جمال: وهذا الشيء سيحدث لنا عند نقلنا إلى المباني الجديدة، فإنَّ الغرف هناك مجهزة بكاميرات مراقبة، أي إنَّنا سنستيقظ وننام تحت أعينهم، وهناك سيضيّقون علينا الخناق أكثر فأكثر.

أبو محمد: أتمنى أن لا أكون ممَّن سينقل إلى هناك، ولا زال لدي أمل في البقاء هنا في عنبر (4) بعد نقل الجميع،

لقد اعتدت على هذا المكان، رغم الذكريات السيئة المطبوعة على جدرانه.

أجبته قائلًا: وأنا أتمنى لك ذلك، وخصوصًا أنَّ أمامنا بعد نقلكم معارك وتحديات لاسترجاع كل الحقوق المسلوبة منَّا منذ 10 مارس/ آذار 2015م وحتى الآن، وأحتاج لمحرِّض مثلك يعينني على ذلك.

انفجر الجميع بالضحك، وقال أبو محمد ضاحكًا: من أنت؟! أنا لا أعرفك، ولم أسمع ما قلت، فلعلك تريد أن تقودنا بقولك هذا إلى الهاوية.

أجبته مبتسمًا: إنَّ رحلة المطالبة بالحقوق تتطلب منَّا السعي الحثيث ليلًا ونهارًا دون كلل أو ملل أينما كنَّا، هنا أو في المباني الجديدة أو في الخارج، سأفتقدكم كثيرًا، وسأتواصل معكم باستمرار، لنتعاهد أن نكون العناصر المؤثرة في أيِّ مكان كنَّا، من أجل نقل الحقائق، ليس لشعب البحرين فقط؛ بل للعالم بأسره، لكي يعرف الناس حقيقة هذا النظام، ومدى إمعانه في سحق الإنسانية بكُلِّ معانيها.

وتكون هذه الحقيقة رافدًا ودافعًا للمناضلين في كيفية انتزاع الحقوق من هذه الأنظمة الدكتاتورية التي تسلّطت على العباد دون حق، وسلبت الشعوب كل حقوقها ومقدّراتها، وسخَّرتها لأجل نزواتهم المريضة، فإن طال

الزمان لهذا الشعب المظلوم، فإنَّ بزوغ شمس الحرية والانتصار آتٍ لا محالة.

علي جمال: صدقت يا جهاد، طال الزمان أو قصر فإنَّ الشعب سوف ينتصر.

- ويومها سنلتقي ونتذكر هذه الأيام، وسنرويها مطعّمة بالفكاهة والضحك، أستودعكم الله يا أحبَّتي، أتمنى أن أراكم مجددًا قبل نقلكم. قلتها مودعًا إياهم، وودعتهم وداعًا حارًّا لا يخلو من الألم لفراقهم، ثم عدت إلى داخل المبنى.

في صباح اليوم التالي علمت من الضجيج أنَّهم قد نُقلوا إلى المباني الجديدة، وكان ذلك اليوم يصادف يوم النصف من شهر رمضان 2يونيو/ حزيران/ 2015 ففرحت كثيرًا لأنَّهم قد تخلصوا أخيرًا من ذلك الوضع المأساوي.

لكنني حزنت أكثر على فراقهم، وما خفف عليَّ ذلك بقاء (أبي محمد) ضمن أسوار المبنى في عنبر (4) كما تمنَّى، أرسل لي رسالة يومها يقول فيها ممازحًا: يا ليتني تمنّيت الحرية بدلًا من عنبر (4). وبهذا أسدل الستار على حقبة الخيام المليئة بالآلام والمعاناة، وبدأت حقبة المطالبة بالحقوق المليئة بالتحديات.

- 44 -

نحو الإضراب مجددًا!

يجب أن نتعامل مع الوضع بحيطة وحذر، ولا نفشي أسرارنا لأحد، فالعملية تحتاج إلى سرّية شديدة وتكتم. في البداية سنخلق جوًّا من التذمر ومعارضة سلوكيات المرتزقة ليصحو الناس من حالة القنوط والسكوت على جرائم المرتزقة وإهانتهم وتعذيبهم، وهذه المدة لن تكون بسيطة، لأنَّ هاجس الخوف الذي استحكم بشكل تراكمي على مدى الشهور الماضية يصعب هدمه بسرعة.

ثم بعدها نشيع بحذر أنَّ هناك إضرابًا قادمًا لنرى ردَّة فعل الناس، ونجعلهم يترقبونه بحماس، وندرس أكبر عدد يمكننا الحصول عليه وأقل عدد، طبعًا استثنوا من ذلك مجموعة النظافة وتوزيع الوجبات، فهم سيكونون واقفين على خط التماس بين نارين، وفي مواجهة المدفع، ولا تجزموا قطعًا بأنَّ كلّ المعتقلين السياسيين سيشاركون في الإضراب، ولا أنَّ كل السجناء الجنائيين سيتخلّفون.

فبين المعتقلين السياسيين أُناس جرفهم التيار عبر وشاية عميل، وعشوائية الاعتقالات التي ينتهجها مكتب التحقيقات الجنائية، فوصلوا إلى السجن حتى دون أن يشاركوا في الاحتجاجات، أو كانوا ممَّن شارك في الاحتجاجات، لكن السجن أرهقهم وأوهى من عزيمتهم كما أخذ من يقينهم مأخذًا كبيرًا، وإلَّا فإنَّنا نأمل أن يصمد الجميع إن شاء الله في الإضراب، ويساندنا عدد من السجناء الجنائيين.

قلتها في اجتماع سرّي بين أربعة من الإخوة في العنبر من بينهم: أبو جميل وأبو علاء وأبو عبدالله وأبو مريم، اخترتهم بعناية شديدة.

أبو جميل: ما هي مطالب الإضراب الرئيسية التي وضعتها يا جهاد؟

أولًا: وقبل كل شيء وقف جميع أشكال التعذيب والإهانات وسوء المعاملة.

ثانيًا: زيادة مدة الاتصال والذي ينصّ القانون بأن يكون نصف ساعة في الأسبوع لكل سجين.

ثالثًا: الخروج للتشمس ساعتين في الصباح، وأخرى في المساء في الساحة كما ينصّ قانون السجن.

رابعًا: حرية ممارسة الشعائر الدينية ورفع الأذان.

خامسًا: فتح أبواب الزنازين.

سادسًا: السماح بإدخال الكتب والملابس عبر الأمانات.

سابعًا: السماح بإقامة صلاة الجماعة في المسجد.

ثامنًا: توفير الخزائن الحديدية لمقتنيات السجناء.

تاسعًا: توفير ثلاجة لكل عنبر.

عاشرًا: السماح بشراء الطعام والشراب، وكل المبيعات المتوفرة في الدكان (الكانتين).

طأطأ أبو علاء رأسه وقال: أو ليس كل ذلك من حقوقنا وسلب منَّا بين ليلة وضحاها؟ والآن نحارب لإرجاع ما سُلب منَّا.

أجبته قائلًا: نعم هكذا هو الوضع يا أبا علاء، رجعنا إلى المربع الأول من جديد، فبدلًا من أن نطالب بإقامة برامج أكاديمية وتعليمية، ونرتقي في مستوى المطالب للأعلى، سنحارب على الحقوق الأساسية، هذا ما أرادته وزارة الداخلية من خلال الضربة الأمنية التي عبَّدت الطريق لها، حيث كانت تنتظرها منذ زمن.

أبو عبدالله: وهل سيقتصر الإضراب على العنبر، أم سيشمل باقي العنابر؟

أجبته: بل سيشمل كل العنابر، وسيساعدنا أبو غايب

في الجهة الأخرى بالتنسيق مع العنابر هناك نظرًا لصعوبة التواصل.

بدأ السجناء أول إضراب لهم بحذرٍ شديد قبيل شهر رمضان المبارك، وتعاملت الإدارة معه بخبثٍ كعادتها، حيث أعطت السجناء الوعود بتحقيق المطالب كلها، مبيِّنة حسن نيتها عبر السماح للمدخنين بشراء السجائر، بعد أن كانت ممنوعة لمدة طويلة، وفي وقت كان الدكان (الكانتين) مغلقًا، تمَّ فتحه بشكل استثنائي مساءً، مع وعود بشراء حاجيات ومستلزمات أخرى.

جرى خداع الكثير من السجناء، وخيّل إليهم أنَّ الإدارة جادة في الأمر، فتمَّ فك الإضراب على هذا الأساس، وتسابق غير المضربين قبل المضربين لشراء السجائر، إلَّا أنَّ السجناء اكتشفوا بعد أن ذهبوا إلى الدكان أنَّها خدعة ومكيدة، حيث لم يسمح للكل بشراء السجائر؛ بل سمح لفرد واحد من كل غرفة بالشراء لباقي زملائه في الغرفة وبكمية محدودة (ستة علب لكل شخص) ولم يسمح لأحد بشراء باقي المستلزمات الأساسية الأخرى.

لكن نشوة التدخين التي فقدوها لمدة طويلة أنستهم المطالب الأخرى التي لم يحقق أيًّا منها، عدا زيادة وقت الاتصال من خمس دقائق أسبوعيًّا إلى عشر دقائق، وعلى الرغم من ذلك فقد حقق الإضراب نصرًا معنويًّا للسجناء

عبر كسر جبروت وطغيان الوكلاء الأردنيين الذين تحولوا من وحوش كاسرة إلى حيوانات أليفة.

كان هذا الإضراب بمثابة حجر زاوية للإضراب الثاني، الذي كان بعد شهر رمضان المبارك، وكان قاسيًا، وامتدّ إلى أربعة أيام، ما جعل وزارة الداخلية تعود إلى أساليبها القذرة (بتسليط إدارة السجن ممثلة بالرائد بسام محمود الحنيطي وزمرته من الوكلاء الأردنيين) بعدم الإصغاء إلى مطالب السجناء، وتضييق الخناق عليهم، عبر فصل المضربين عن باقي السجناء، وخصوصًا في توزيع الوجبة وتناول الطعام، وعدم تقديم العلاج اللازم لأيّ من المضربين حتى ذوي الأمراض المزمنة، حتى سقط العشرات مغشيًا عليهم، ونقل البعض إلى المستشفى ليدقّ جرس الإنذار بجدية الإضراب، والتعاطي مع مطالب المضربين لئلّا يقع المحذور.

فعندما أجبرت الإدارة على التفاوض مع المضربين، وتحقق الكثير من مطالب السجناء ومنها: الاتصال، والمعاملة، وساعات التشمس، وفتح أبواب الزنازين لفترات محدودة يحدّدها الوكلاء الأردنيون بمزاجيتهم، والسماح بشراء الأطعمة والمشروبات من دكان النزيل، والسماح بإدخال الكتب الدينية وفق معايير وأهواء مكتب الإرشاد الديني، الذي يتعامل بعقلية ملؤها الطائفية والحقد على المكون الرئيس في السجن، فكانت هذه العقلية تعرقل دخول الكتب لمجرد وجود عبارات لا تتوافق مع

معتقداته، فيما يقبل إدخال كتب طائفية بحتة تنال وتكفر وبشكل واضح الطوائف الأخرى، ممَّا يسهم في تدمير النسيج الاجتماعي داخل السجن، وشحن الطوائف على بعضها البعض، وإحداث الفتنة المذهبية.

وقبل شهر محرّم، أعلن السجناء إضرابًا بشكلٍ عفوي ضد منع إحياء الشعائر العاشورائية، وهي من المواسم الدينية الرئيسية لدى المسلمين الشيعة، وفيها ذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) سبط الرسول (ص). فرغم تواصلنا مع إدارة السجن قبل أشهر لوضع برنامج للإحياء، إلا أننا تفاجأنا قبل يوم من حلول شهر محرم برفض تجمع السجناء في مكان واحد لإحياء هذه الشعائر، وذلك إمعانًا منهم في سلب الحقوق التي أقرّتها كل دساتير البحرين، وترعاها الدولة خارج السجن.

بعد الإضراب، حضر الملازم الأول محمد جمال قصير مع النقيب سعود بو فلاح، للاجتماع بمسؤولي العنابر، واطلاعهم على مبررات منع الإحياء بشكلٍ جماعي، وهي الدواعي الأمنية، ولا نعرف أية دواعٍ أمنيةٍ في مبنى محصن أمنيًّا، ومغلق من كُلِّ الجوانب.

مرّ شهر محرّم بغصَّة وحرقة على السجناء الذين حرموا من إحياء الشعائر بالصورة التي عهدوها، ولكن خفف عليهم الألم حضور عدد من المشايخ وطلَّاب العلوم الدينية من مبنى (10) شيءٌ لم نصدقه في بادئ الأمر،

فمبنى رقم (10) يحتوي شخصيات وقيادات تمّ فصلهم عنَّ السجناء حتى لا يتأثروا بفكرهم وتوجّهاتهم السياسية والاجتماعية، لكنهم اليوم موجودون معنا ويقدمون المحاضرات الدينية بهذه المناسبة.

تمّ إحياء الشعائر أمام الوكلاء الأردنيين الذين كان بعضهم يشاهدها للمرة الأولى، فأثارت لديهم الكثير من الأسئلة، وبادروا بطرح أسئلتهم التي جرّ بعضها البعض الآخر. فمن السؤال عن سيرة الإمام الحسين، إلى أسئلة عن الوضع الاجتماعي في البحرين، وأخرى عن الوضع السياسي، وسبب وجود هذا الكم الهائل من السجناء في هذا السجن، حتى ساد لدى البعض جو من المودة والألفة بعد الحقد والضغينة، وقد ربطتني علاقة جيدة مع أحد الوكلاء الذي كان يتحدث معي على انفراد لفترات طويلة.

ففي إحدى المرات كنّا نتحدث عمَّا حصل بعد تاريخ 10 مارس/ آذار 2015 وفترة تواجدنا في الخيام، فبان الحزن على وجهه، وتغيَّرت ملامحه، وبعد هنيهة من التفكير والإمساك عن الحديث، انفجرت عيناه بالدموع باكيًا متألمًا، فخيّم جو من الكآبة والحزن على جلستنا، فاندهشت لهذا الأمر، وتساءلت في نفسي عمّا يبكيه، إلَّا أنه قال بعد برهه: لا تذكرني بهذه الحقبة، فقد تلطّخت يدي بدمائكم من دون وجه حق.

- 45 -

شهادة!!

لقد تحدث الوكيل بطريقة وكأنَّه يحاول زحزحة صخرة عن صدره وحبلًا عن عاتقه، تحدث بحديث ذي شجون، ودموعه تنهمل من العيون، وقال: قدمنا إلى البحرين بعد عقد وقّع بين الدرك الأردني وحكومة البحرين، وكنَّا نعتقد بأنَّها فرصة ذهبية لا تفوّت، لكوننا سنجني مبالغَ طائلة من وراء المجيء إلى هذا البلد، وذلك بمضاعفة الراتب، والحصول على مميزات في فترة العقد لا نحلم بها.

فكان الدافع المادي هو ما جعلني أقدم على هذه الخطوة أنا وزملائي الآخرين. وفور وصولنا إلى البحرين تمّ الاجتماع بنا وإبلاغنا بأنَّ عملنا سيكون في أماكن مختلفة، منها: السجون، ومركز الحبس الاحتياطي، والقوات الخاصة (مكافحة الشغب) لمواجهة أخطر الإرهابيين المدعومين من قوى خارجية كإيران وأشرسهم، وعلينا التعامل معهم بحزم وقوة، فهم قتلة بامتياز، ولا يجوز التهاون معهم.

وهكـذا تـمّ تغذيتنا بمخـاوف كبيـرة ومعلومـات مضللـة، حتـى إننـا شُـحنّا حقـدًا وكراهيـة ضدّكـم، وخصوصًـا بعـد عـرض الكثيـر مـن المقاطـع الإجراميـة لتفجيـرات وصـور لإصابـات مهولـة.

استرسـل الوكيـل موضحًـا: لـم يقتصـر هـذا الأمـر علـى مجموعتنـا؛ بـل كل المجموعـات والدفعات التـي قبلنا وبعدنا بالطريقة والأسـلوب نفسـهما، لذلك قد تتذكـر كلام (الرقيب معـاذ) عندمـا قـال لكـم: نعلـم أنَّكم أولاد شـوارع وخبـراء في حـروب الشـوارع، ونحـن أتينـا خصيصًـا للتعامـل معكـم.

وعلـى هـذا الأسـاس شـاركت (الـكلام للوكيـل) فـي قمـع السـجناء فـي فتـرة مـا بعـد 10 مـارس/ آذار 2015 يومهـا طلبـت إدارة السـجن بمعيـة الضبـاط البحرينييـن الشـرطة والـوكلاء الأردنييـن التدخـل قبـل وصـول (قـوات سـافرة) وكان ذلـك بمثابـة جعلنا ككبش الفداء للسيطرة على الوضـع على ظهورنا.

لكننـا شـرحنا لقائـد الشـرطة الأردنيـة الرائـد بسـام محمـود الحنيطـي بـأنَّ الوضـع يحتـاج إلـى قـوات مسـلحة، وبعـد السيطرة علـى الوضـع، ضربنا بيـد من حديـد، وضيّقنا الخناق عليكـم، وأذقناكـم صنـوف العـذاب والويـلات، وأنـا المذنب شـاركت فـي ذلـك مـن دون وجـه حـق، فقـد كنـت شـديدًا فـي التعامـل معكـم، شـأن أقرانـي مـن الأردنييـن، ولكـن قابلنـا كل مـن قمنـا بتعذيبـه وإيذائـه بالسـكوت والاستسـلام، أو تذكيرنـا بعـذاب اللـه وعقابـه.

إلَّا أنني بعد أن فلقت هامة أحد السجناء، وبعد أن هدأ ضجيجهم من الصرخات والآهات، راجعت نفسي وسألتها، أين هم الإرهابيون المدرّبون على شتى فنون القتال؟! فأنا لا أرى سوى أُناس لا حول لهم ولا قوة، عندها تيقَّنت أنَّ وزارة الداخلية ووزيرها الأحمق قد أوقعونا في فخ لن نخرج منه، وعارٍ لم ولن تمحوه الأيام.

أكمل الوكيل الأردني: لقد اطلعت على شبكات التواصل الاجتماعي، وعلمت أنَّنا نواجه شعبًا ذا مطالب حقة سلبت منه لسنين طويلة، شعبًا ذا خلق رفيع وعزم شديد وثقافة عالية، لم يتنازل عن مطالبه على مرِّ السنين الأربع الماضية، إلَّا أنَّ المنظومة العسكرية في مثل هذا البلد المسلم تقوم بتضليل كوادرها أو من يلتحقون بها من بلوشستان والهند واليمن، ونحن الأردنيين بشكل فظيع.

فالتعليمات كانت تأتينا من المكاتب الخلفية، وهي الإدارة بقيادة الضباط البحرينيين، وكنَّا ننفذها بحذافيرها بحق السجناء، ضمن العقيدة الأمنية التي تتبناها وزارة الداخلية، والتي وضعتنا في وجه المدفع، إلَّا أنّي أدركت بأنني يجب أن أقوم بشيء للقضاء على الصراع الذي بداخلي، فقمت ببناء علاقات مع الكثير من السجناء من خلال تواجدي في أكثر من مبنى من مباني السجن، وكانت علاقة مودة وألفة ملؤها الاحترام والأخوة.

لكنني اكتشفت أنني لست الوحيد؛ بل الكثير من زملائي الذين جذبهم خلقكم وسماحتكم، فلم يمتلكوا أيّ خيار دون ذلك، كل ذلك للتكفير عمَّا قمنا به، ومحو ذاكرتنا من حقبة لا نحسد عليها، ولا نتمنى أن تعود علينا مرة أخرى.

كما عاهدت نفسي ويشاطرني عدد من زملائي، بأن لا نجدّد عقدنا هنا، ولا نرجع لهذا البلد مرة أخرى، وإن كلف ذلك تجريدنا من الخدمة العسكرية.

لقد كشفت لنا الأيام بأنَّنا نعيش مع هؤلاء السجناء كل يوم، ونحن نشعر بالخجل والألم ممَّا اقترفناه بحقكم، كما اكتشفنا بأنَّ المستوى الثقافي والتعليمي للسجناء يفوق قدراتنا وعقولنا، وأنَّهم ذوو بصيرة، ومستويات تعليمية متقدمة، إلَّا أنّنا لم نعرف ذلك إلَّا متأخرين.

ففي هذا السجن الطبيب والمهندس والصحفي والكاتب والعالم، ولم أرَ مثيلًا لهم أيضًا في مستوى الرقيّ بالأخلاق، والمحافظة على القيم، فكانوا في أصعب الظروف يحافظون على الصلاة والقيم دون انقطاع.

أتمنى من كل قلبي لهذا الشعب تحقيق مطالبه، وخروج السجناء والانتصار، وذلك ليس ببعيد، وأتمنى من حكومتي، الحكومة الأردنية عدم رمي أبنائها في هذه المهالك والصراعات التي جرّت الويلات علينا، فكم من

مواطني الأردن قد لاقوا حتفهم في هذا الصراع الذي ليس لهم فيه لا ناقة ولا جمل، فالمال الذي يلوّح به هذا النظام والأنظمة الدكتاتورية لحماية أنفسهم لن يعيد الشهيد (محمد الكساسبة) الذي حُرق أمام العالم لأهله، ولن يعيد الشهيد العريف علي محمد زريقات الذي لقي حتفه في تفجير في قرية دمستان بالبحرين؛ بل سيزيد من الحقد على شعب الأردن.

- 46 -

مآلات!

«يا منتقم.. يا منتقم.. يا منتقم».. صرخات أحد الأحرار مستغيثًا تحت سوط الجلَّاد أيام تواجدنا في الخيام.. لم يغب صدى هذه الصرخات عن مسامعي وأفكاري، وأنا أعلم أن لكل ظالم مآل يحصد فيه شرّ عمله، وأن الله لا يترك المجرم ينجو بعمله ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[1].

لقد سقطت أوراق البعض سريعًا، جراء سواد أعمالهم، ونالوا بعض مصيرهم الأسود في الدنيا، مما رأيناه وعرفناه، وسيلقون ما هو أشد وأسوأ، ولن تغادر من إجرامهم صغيرة ولا كبيرة، إلا ويكسبون مثلها.

الوكيل فارس الذي تسلّق على آهات الأبرياء، والرقيب معاذ الذي طالما أمعن في إذلال السجناء ونال من كرامتهم، قاما ببناء علاقات مع بعض السجناء للتكسب المخالف للقانون من ورائهم، بتهريب الممنوعات وبيعها بمبالغ

---

(1) سورة السجدة، الآية 22.

خيالية، مثل: الهواتف النقالة التي يعادل سعر الواحد منها في السجن أجر شهرين لمخصصه الشهري، وتهريب المواد المخدرة لمجموعة من السجناء، واستمروا على هذا الحال فترة طويلة، فحصدوا منها ثروة طائلة، حتى غدوا مكشوفين لكل السجناء، وشاع خبرهم في الإدارة التي قامت بنصب كمين محكم للرقيب معاذ، وضبطته متلبّسًا بالجرم، ليُساق إلى سجن قرين العسكري لفترة وجيزة، استشعر منها زميله الوكيل فارس أن دوره قادم لا محالة، وذلك بعد أن أبلغه الرائد بسام محمود الحنيطي ـ وهو أحد أقاربه ـ بأنَّ اسمه قد ورد في أحد محاضر التحقيق، وعليه أن يسرع بمغادرة البحرين، وأن يتقدّم بطلب إجازة وفاة كي يتمكن الرائد بسام من مساعدته على الفرار قبل المساءلة، وهذا ما حصل.

أما زميله معاذ فلم يمكث في التوقيف طويلًا، فمن خلال زملائه الأردنيين اكتشفت بأنَّه تمّ إخلاء سبيله وإبقاؤه تحت الإقامة الجبرية في سكن العسكريين، وبعد فترة وجيزة تمّ ترحيله إلى الأردن دون محاسبة، ولكن الدرك الأردني، وللحفاظ على ماء وجهه، قام بتجريدهم من الرتب العسكرية بعد 15 سنة من الخدمة، ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية الأردنية بتهمة خيانة الأمانة، لينالوا حكمًا نافذًا بالسجن لمدة سنتين.

مآل آخر، هو الشرطي محمد الزقري، كان ينتمي لشرطة سافرة، وتلذذ بصرخات السجناء، وحاول كسر

إرادتهم بالإهانات والإذلال. شوهد لاحقًا في مستشفى قوة دفاع البحرين من قبل أحد السجناء الذي عذّب على يديه، وهو مكفن بالضمادات الطبية في هيئة الميت، علمنا فيما بعد أنه تعرّض لحادث أثناء قمعه الاحتجاجات في إحدى القرى المطالبة بالحقوق المشروعة. ليس هذا فقط، بل علمت من أحد المصادر بأنَّه حكم على ذمة قضايا تعذيب في السجن. ويبدو أنه جعل كبش فداء لكبار الضباط.

ومآل ثالث، هو لمجموعة من رجال الأمن، حين نشرت الصحف المحلية خبر مفاده حصول تفجير في (منطقة سترة) بحافلة تابعة لوزارة الداخلية، لم يتأكد من صحة تلك الرواية، إلَّا أنَّ السجناء تعرفوا على صور القتلى وبعض الجرحى، الذين زارهم وزير الداخلية بأنَّهم ممن شاركوا ضمن القوات الخاصة في الاعتداء على السجناء وتعذيبهم بشكلٍ عنيفٍ قاسٍ.

ومازلنا ننتظر أن نشهد مآلات المجرمين في الدنيا، قبل الآخرة..

- 47 -

الفصل الأخير

رجل كبير في السنّ بلباسٍ مدني، لم يلبس قط لباس السجن، ولم يوضع في يده قيد كباقي السجناء، تفتح له الأبواب الموصدة ويتنقل بين مباني السجن أيِّ وقت شاء بلا حراس وبلا تفتيش، عبر بسيارة كهربائية يستخدمها كما الضباط، له كل الامتيازات: وجبات طعام خاصة، اتصال يومي غير محدد الوقت والمدة، متى ما شاء يطلب من الشرطة فتح غرفة الاتصال، حتى لو كان الوقت منتصف الليل. تهابه الشرطة وتحسب له ألف حساب لقوة نفوذه مع الإدارة ووزارة الداخلية، وعلاقته القوية مع الضباط الذين رأيتهم معه عدة مرات: المجرم عبدالله عيسى والمجرم عيسى إلياسي والمجرم معاذ الذي حصل على ترقية مؤخرًا إلى ملازم أول (نجمتين).

قد تعتقدون أنَّه سجين، لكنه هو حالة جسَّدتها معايير التمييز والعنصرية التي يكيدها النظام ضمن منظومته في

التمييز بين المواطنين، فيسمح له بالخروج من مجمع السجن لزيارة عائلته، وقضاء ساعات معهم، في حين يتمّ التضييق على آلاف السجناء بأقل الحقوق.

ليس هذا فقط؛ بل إنه يقوم بمهام إدارية وخدماتية تحتم عليه الخروج من مجمع السجن بشكل يومي، وكأنَّه موظفٌ تنفيذيّ لدى الإدارة، حيث يقوم باستلام الوجبات اليومية من الشركة المزودة للطعام، وتوزيعه على كافة مباني السجن. ولا يخلو هذا الأمر من شبهات فساد مالي وإداري قد يرتكبها بعض الأطراف.

إنَّه يوسف أحمد الدوسري الملقب بالـ(سمسور) والذي اعتاد على ارتياد السجن منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي على ذمة قضايا مختلفة في السرقة والنصب والاحتيال وغسيل الأموال والدعارة، وكان آخرها بيع مقبرة مليئة بقبور الموتى على أنَّها أرض صالحة للاستثمار، علمًا أنَّه وبمجرد انتهاء حكم استئنافه يطلق سراحه في أول مكرمة ملكية.

ليس هذا وحسب؛ بل يهدّد ويتوعد السجناء والشرطة الأردنيين بتقديم الشكاوى ضدهم، وهو صادق في ذلك، فذات يوم وبسبب وقوف مسؤولي العنابر ضدّه في موضوع توزيع الوجبات، ذهب إلى الإدارة خلسة، بينما كان المكتب الرئيس (الكونتر) يعجّ بالسجناء الذين يراجعون طلباتهم وحقوقهم المسلوبة، ويتنقلون بين الجهتين، وعاد ومعه

شرطي في يده كاميرا رقمية (فيديو) قام بتصوير المشهد بها، وابتسامة خبيثة تعلو وجه يوسف أحمد الدوسري (السمسور) ليأتي الأمر في اليوم التالي بفصل الجهتين عن بعضها بعضًا، وجعل مكتب منفصل لكل واحد منهم مع بناء سورٍ عالٍ بين الساحتين، يستحيل بعده عبور السجناء إلى الجهة الأخرى، ممّا فرّق شمل السجناء، وضيّق الخناق عليهم أكثر فأكثر.

ذات يوم كنت جالسًا وحيدًا في الساحة الخارجية في الليل، أنتظر ابتداء إحياء إحدى المناسبات الدينية التي تصادف تلك الليلة، وبينما كنت أتأمل جمال القمر الساحر، سمعت شخصًا يناديني باسمي، وهو يمشي مسرعًا نحوي، فدققت النظر وإذا به (أبو محمد) قد جاء خلسة من الجهة الأخرى للمبنى لرؤيتي، كان لقاءً حارًّا رائعًا، تبادلنا فيه الأحاديث والذكريات الأليمة بطرفة ونكات وضحك.

ـ أتذكر عندما قام (رداد) بسكب الماء عليك هناك؟! كنت ترتجف حينها كالسمكة التي خرجت للتو من الماء. قلتها ضاحكًا لأبي محمد.

فبادرني بالضحك هو أيضًا وقال: وكيف لي أن أنسى ذلك، لقد كان الماء باردًا جدًّا، للأسف عادت تلك الدفعة من المجرمين إلى الأردن في نهاية شهر يناير/ كانون الثاني 2016 دون حساب.

فأكدت كلامه قائلًا: هذه هي سياسة هذا النظام، يأتي بمرتزقة بعقود مؤقتة يسرحون ويمرحون ويرتكبون أفظع الجرائم بحق هذا الشعب، ثم يعودون إلى ديارهم ويفلتون من العقاب.

أبو محمد: سمعت أنَّ الدفعات القادمة في المستقبل القريب ستكون من المصريين أيضًا.

- مصريون أو أردنيون يبقون في أعيننا وعين هذا الشعب مرتزقة لقمع وقتل هذا الشعب. عقَّبت على كلامه، ثم سكتت لوهلة وقلت: إنَّ الوضع يسير نحو الأسوأ، والإدارة تحاول بشتى الطرق التضييق على السجناء بقراراتها وتعليماتها المتناقضة التي تدلُّ على تخبّط الضباط.

أبو محمد: أعتقد أنَّك تقصد موضوع إطفاء الأنوار؟!

أجبته: نعم، ففي بادئ الأمر أصدر الضابط المناوب البحريني (معاذ) أمرًا كتابيًّا بعدم إطفاء الأنوار الداخلية للغرف ليلًا وقت النوم، ما أثار استهجان وغضب السجناء في كل المبنى لتلك الطريقة الماكرة لحرماننا من النوم، إلَّا أنَّ شرطة الإدارة جاءت وطبّقته بالقوة تحت التهديدات وعاقبت عددًا من الأشخاص ممَّن رفضوا القرار بنقلهم للانفرادي.

أبو محمد معقبًا: أصبنا على إثر ذلك بالأرق والتعب الشديد لحرماننا من النوم؛ بل وصرنا ننتظر طلوع النهار لتطفأ الأنوار.

أردفت قائلًا: ولكن بعد شهر واحد فقط صدر أمر بإطفاء الأنوار في ساعة مبكرة من الليل، ومن الضابط نفسه؛ بل وحتى منعونا من قراءة القرآن الكريم بعدها، أو السهر أو القيام بأيّ نشاط!

أبو محمد: جهاد، أخبرني ماذا حدث في موضوع استكمال الدراسة الجامعية؟!

أجبته بحسرة: ماذا أجيبك يا أبا محمد، المدير عبد الله علي راشد المعنطر والضابط محمد جمال قمبر المسؤول عن البرامج والأنشطة لا يعيرون الموضوع أهمية؛ بل إنَّهم لم يكلفوا أنفسهم العناء بمقابلة الطلبة والجامعيين والردّ على رسائلهم.

ردَّ عليَّ: ردود الرسائل أصبحت تتأخر كثيرًا، وأحيانًا لا تصل، والمعضلة في الاكتظاظ الذي خيَّم بشبحه مجددًا على السجن بأكمله، وليس المبنى فقط، فعندما كنا في الخيام، كان الوكلاء الأردنيون وبإمرة الضباط البحرينيين يشدّدون على أنَّ العدد داخل الغرف لم ولن يتجاوز ستة سجناء بناء على عدد الأسرّة، ولكن في شهر رمضان السابق حلّ أول وافد في غرفتنا على الأرض، والآن وبعد سنة وشهر تضاعف العدد بشكل مخيف، حتى أصبح العدد في الغرف عنبر (4) الصغيرة أربعة أشخاص، وفي باقي العنابر تسعة أشخاص! والحال نفسه في المباني الجديدة.

عقبت: وغرفتنا بها عشرة أشخاص، المشكلة أنَّ آفة الاكتظاظ لا يمكن أن نحدّ تأثيرها على الغرف؛ بل إنَّها تنخر حقوقنا وتسلبها في شتى الأمور، فالزيارات التي تمنح لكل سجين مرتين في الشهر، قد تقلصت بشكل ملفت إلى زيارة واحدة كل شهر! تعاني عوائلنا الأمرَّين للحصول على موعد يناسبها.

وأما الاتصال فصارت مشاكله لا تعدّ ولا تحصى، كبائن الاتصال نصفها معطلة، والباقي لا يفي هذا العدد، فيفقد الكثير حقه في الاتصال، رغم أنَّهم يسمحون لنا بـ 15 دقيقة فقط، هذا والإدارة تلوّح بنظامٍ جديدٍ للاتصال يفيد السجناء للاتصال بأرقام محددة مع كيفيةٍ صعبة ومراقبة شديدة.

أبو محمد: أضف إلى ذلك موضوع ارتياد العيادة، فرغم الإذلال الذي يواجهه المريض الذي لا حول له ولا قوَّة، إلَّا أنَّه لا يمتلك خيارًا آخر غير الذهاب إلى تلك الخربة، لمدة ساعات، فبالأمس انتظرت ثلاث ساعات للذهاب إلى العيادة، وبعد كل هذا الانتظار لم يكن الطبيب موجودًا، فعدنا أدراجنا دون تلقي العلاج اللازم، وحتى لو كان الطبيب موجودًا فعلاجه لن يتغيَّر عن كل مرة، (بندول) أو أيّ مسكن للألم فقط، كل هذه المشاكل لا يمكن السكوت عنها، يجب أن نفعل شيئًا!

قطعت حديثه مازحًا: يبدو أنَّ جسدك قد اشتاق للضرب يا أبا محمد.

فردَّ عليَّ ضاحكًا: ليس تمامًا، فالحمدلله الذي صبّرنا على تلك الأيام.

أكملت: الضغط لا يولّد إلّا الانفجار، وتراكم هذه المشاكل دون إيجاد حلول لها ستسبِّب كارثة قادمة على غرار ما حدث في حقبة سابقة، حيث لم تحتمل وزارة الداخلية كل ضغوطات هذه المشاكل، فسعت لمعالجتها بالقوة الأمنية التي أثبتت فشلها في السابق، ففي 2002م هجمت القوات الخاصة على مبنى رقم (2) باسم السيطرة على الفوضى، وذلك لإنهاء إضراب بالقوة أنهك وزارة الداخلية.

وفي 2004م تكرر الأمر نفسه في مبنى (4) بعد الاحتجاج على سوء المعاملة وتعدِّي أحد أفراد الشرطة على السجناء، دخلت القوات الخاصة المبنى، وأوسعت كل من رأته في طريقها بالضرب.

وفي 2008م انتقمت الإدارة من السجناء بعد ستة شهور من عملية احتلال لمبنى رقم (4) حلَّت بالمفاوضات.

وبعد سنتين من ذلك، أي سنة 2010م تكرر الأمر نفسه وفي المكان نفسه وللأسباب نفسها، حيث اعتصم السجناء في صالة الطعام الكبيرة (اللنغر Langar) بسبب إصدار الإدارة عددًا من القرارات بشكل مفاجئ، وهي تمسّ حقوق السجناء في الزيارات، وساعات الخروج للهواء الطلق، وفتح الزنازين.

إلَّا أنَّ الإدارة التي حضرت ممثلة في المجرم عبد الله عيسى والمدير آنذاك إبراهيم سيف نجران رفضت التراجع عن تلك القرارات، وأبت إلَّا أن ينتهي الأمر بشكلٍ مأساوي، فسالت دماء السجناء، وتناثرت على جدرانٍ (اللنغر) بعد إصابات بليغة إثر قمع عنيف للسجناء المعدمين، ومعاقبتهم بنقلهم إلى مبنى رقم (1) والعزل.

وتكرر الأمر في 2012م بسبب رفض الكثير من السجناء معاملة الشرطة، ومطالبتهم بإصلاح المكيفات في ذلك الحرّ الشديد.

وتكرَّر الأمر مجددًا في 2014م بسبب اعتصام السجناء في الساحة لمطالبتهم بحقهم بالاتصال، بعد فقدهم اتصالاتهم لفترة بسبب تعطل الكبائن، ولم تفاوض الإدارة السجناء؛ بل أدخلت قوات خاصة فانتقمت شرّ انتقام من المحتجين، وقامت بتصفية حسابات سابقة مع مسؤول المبنى آنذاك ــ الشرطي شكيل باكستاني الأصل، لديه انحرافات جنسية ــ والضابط عبد العزيز الدوسري، وتبجَّحت في اليوم التالي بعملية إنهاء ما سمته بالفوضى، ورمت السجناء برفض الأوامر، ومحاولة اختطاف ضابط.

والمرة السابعة والأخيرة كانت حقبة الخيام الماضية، والله أعلم بما هو آتٍ، وزارة الداخلية وقيادتها لا تتعلم من التجارب والدروس السابقة، وبقيت على عقيدتها الأمنية

الفاشلة في التعامل معنا في السجن، كما هو الحال مع المطالبين بالديمقراطية في الشارع.

قاطعني أبو محمد قائلًا: صدقت يا جهاد، ها نحن نرى تزايد الاكتظاظ يومًا بعد يوم، دون الاهتمام لهذا الأمر، وزاد الطين بلَّة تكدس السجناء على بعضهم في الغرف، ورفض الإدارة نوم السجناء خارجها في صالة التلفاز.

فقبل أسبوع رفضت بعض غرف أحد العنابر، استقبال السجناء الجدد المحكومين حديثًا، لعدم وجود مساحة لهم في تلك الغرف، فخرجوا ينامون في صالة التلفاز ممَّا جعل مسؤول النوبة يستدعي الضابط المناوب في تلك الليلة، وهو المجرم عيسى إلياسي، الذي حضر برفقة أكثر من 15 شرطيًّا من شرطة الإدارة يتقدمهم وكيل القوة (طارق) يمني الجنسية، وتدعمهم شرطة المبنى وكان منها: الأردني صدام، دخلوا العنبر بعد إقفال جميع الغرف، وإحداث ضجة كبيرة من خلال قرع الأبواب بشكل عنيف، وكأنَّ طبول الحرب قد قُرعت، وتوجهوا إلى صالة التلفاز في نهاية الممر والغرف التي رفضت استقبالهم، وقاموا بتهديد السجناء بإدخال القوات الخاصة (مكافحة الشغب) لإجبارهم على دخول الغرف بالقوة إن لم يمتثلوا للتعليمات؛ بل وهددوا الغرف الرافضة بالنقل العقابي إلى مبانٍ أخرى.

في النهاية انصاع السجناء، ودخلوا الغرف بعد شدّ

وجـذب، ونقـاشٍ حـادٍّ مـع الضابـط عيسـى إلياسـي، كان فحـواه (مـا هـو الداعـي لإدخـال سـجناء جـدد إلـى غـرف مكتظـة، وكسـر القانـون الـذي فرضتـه الإدارة بمنـع تواجـد أكثر مـن ستة سـجناء في الغرفـة الواحـدة، في حيـن يوجـد 17 مبنـى تابعًـا لسـجن جـو المركـزي، فضـلًا عـن وجـود سـجون أخـرى).

وبهـذا سـجّل السـجناء رغـم دخولهـم الغـرف موقفًـا، خصوصًـا أنَّ الضابـط عيسـى إلياسي لـم يجـد جوابًـا، وكأنَّـه أُلقـم حجـرًا ولاذ بالفـرار.

فقلـت مسـتهزئًا: يـا لـه مـن جبـانٍ، كان يسـتعرض عضلاته علينـا ويمعـن فـي إذلالنـا وإجبارنا علـى الوقوف لـه عندما كنَّا فـي الخيـام، والآن أصبـح فـأرًا مـا إن تقتـرب منـه حتـى يلـوذ بالفرار.

أبو محمد: ألا يوجد هناك إحياء لمناسبة هذه الليلة؟!

بلـى، سـيبدأ الإخـوة بعد قليـل لنتوجـه إليهم. قلتهـا مجيبًا. وبينمـا نحـن نمشـي عائديـن قلـت لـه: حتى إحيـاء الشـعائر لم يسـلم مـن آفـة الاكتظـاظ، فـلا زالـت الإدارة تصـرّ أن تكـون الشـعائر فـي صالـة التلفـاز داخـل العنابـر وهـي لا تسـتوعب أعـداد السـجناء الهائلـة، بينمـا ترفـض نقـل الإحيـاء إلـى المسـجد المشـترك بيـن العنابـر، لكونـه المـكان المركـزي لإقامـة الفعاليـات والـدروس والبرامـج الدينيـة والتعليميـة.

ـ جهاااااد، أبومحمممممد، أين أنتم، أنا أبحث عنكم منذ ساعة. كان ذلك صوت أبي مريم الذي جاء مهرولًا نحونا، وهو يلهث من التعب.

أبو محمد: ماذا هناك يا أبا مريم؟! هل حدث مكروه ما؟!.

ابتسم أبو مريم ابتسامة عريضة، ثم قال: لا، ولكن هناك شخصًا يودّ رؤيتكما.

تبادلنا أنا وأبو محمد نظرات التعجب، وقلنا بصوت واحد: ومن هو ذلك الشخص؟

ـ تعالا معي وسأخبركما. قالها أبو مريم، وهو يسحبنا من أيدينا، ويمشي بسرعة، دخلنا إلى أحد العنابر، وتوجهنا إلى غرفة قد تكدست النِّعال والأحذية على بابها، فتحنا الباب، وإذ بأعداد كبيرة من الإخوة الذين قد جلسوا على الأرض والأسرّة حتى لم تعد الأرض مرئية، وقد شدّ انتباههم شخص يقابلونه، جالس قرب السرير الذي يقع قرب الباب.

لقد أتيت بهم يا معلّم. قالها أبو مريم ببهجة.

فوقف ذلك الشخص على قدميه، وبانت ملامحه البهية وابتسامته التي تمسح الآلام، وبشاشته المعهودة، إنَّه المعلّم، ما إن وقع بصري عليه، حتى انهمرت دموعي،

وأسرعت نحوه، وقبّلت جبينه رغم ممانعته لذلك، كان لقاءً حارًّا مليئًا بالدموع والأشواق للذكريات، كانت تلك المرة الأولى التي يأتي فيها إلى المبنى ضمن إحياء الشعائر الدينية.

جلست ليكمل المعلّم حديثه الذي كان جلّه عن أهمية الحضور واستغلال الأشهر العبادية القادمة (رجب وشعبان ورمضان) في الانغماس بالعبادة وعدم تضييع هذه الأوقات الثمينة، كما حثَّ على إقامة الدروس، والحضور الدائم فيها، وعدم إضاعة الوقت، كان الكل منشدًّا إلى حديثه، ويتفاعل معه بشكل ملحوظ عجيب.

كان مقصد المعلّم إحالة السجن من مقبرة للأحياء، إلى مدرسة نكون فيها أحياء بقلوبنا، ونحطم هذه الأغلال بالاستفادة من وقتنا، أي لا نكون عددًا بلا قيمة يحسب كل يوم مرتين كحساب القطيع من الغنم، وهو ما أراده وسعى إليه هذا النظام الفاشل، وحطمه الكثير من السجناء بمختلف مواهبهم. فمن كاتب لرواية من خلف القضبان، ونحّات ورسّام وخطّاط ومعلّم للقرآن، ومبتكر لأعمال يدوية وفنية رائعة، وأمور لا تعدّ ولا تُحصى.

كان عمل المعتقل حسين عبد الغني من (قرية جد حفص) كنجم بازغ بينهم، فقبل حوالى شهر وقعت بين يدي رواية كتبها هو بعنوان: (آدم المقدام) يتناول فيها قصة خيالية للصراع الأزلي بين الحق والباطل، وبين الخير

والشر، بين شخصية حاكم ظالم اسمه آدم، ورغم أنَّها أول عمل روائي يقوم به إلَّا أنَّه كان رائعًا جدًّا من حيث الفكرة والأسلوب والمستوى الأدبي.

كانت تلك الرواية دافعًا لي لكثير من الأمور، ومنها هذا العمل الروائي، إنه نوع من الانتصار على القضبان والسجَّان، وهو مقاومة لئلا نُصبح أمواتًا.

لم تمرّ سوى أيام، حتى فاجأنا (حسين عبد الغني) بانتصار من نوع آخر، فضمن احتفال بمولد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام كانت المفاجأة، وهي عقد قرانه على ابنة خالته من خلف القضبان، أمر أفرحنا كثيرًا وأشاع البهجة والسرور في الأجواء، حتى سالت دموع الفرح على وجنتينا من فرط السعادة.

كنت سأسبق (حسين عبد الغني) إلى هذا الأمر، لو وافق أهلي وأهل الفتاة التي تنتظرني خارج السجن بصمود وإيمان. ما تزال تنتظر رغم ضغوط أقاربها في محاولة منهم ليوهنوا صبرها، أو يغروها بعروض الزواج هنا وهناك. لقد قابلتهم برد حاسم وصريح: سأنتظر خروج المعتقلين.

منذ لحظة اعتقالي، وطنّت نفسها على تحمُّل كل الصعاب لئلَّا تميل بها رياح الأيام، وساعدها في ذلك قربها من والدتي التي أصبحت مثل والدتها، والتي سألتها بصراحة ووضوح ذات يوم: هل ستنتظرينه؟ فأجابت بذلك

الجواب الذي يثلج القلب: سأنتظره حتى لو قضى فترة حكمه كاملة.

وإضافة إلى صبرها وصمودها ومآزرتها لوالدتي في أحلك الظروف والمحن، وإعانتي على تدبير الكثير من الأمور، وإنجاز الكثير من الأعمال، ومنها هذه الرواية، كانت السرّ الذي يجعلني أبدأ كل يوم بابتسامة، والأمل الذي أعيش به وأتنفسه، والذي ساعدني على اجتياز الشدائد والمحن، فلقد اجتازت امتحان الحب والوفاء والصبر والتضحية بجدارة وبقلب أبيض ينبض بالحب نادر الوجود في هذا العالم، ستنتظرني وسينتظرنا هذا الشعب في يوم النصر وانتزاع الحقوق القادم لا محالة.

لم ولن يساورنا شك في أنَّ ذلك اليوم قادم لا محالة، يوم ستبزغ فيه شمس الحرية الساطعة بضيائها حتمًا، وتنكسر فيه القيود والقضبان حقًّا، وتفتح فيه الأبواب المؤصدة علينا حالًا، وسيحتفل فيه كل هذا الشعب، رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا.

يومٌ يعود فيه أفواج المعتقلين الصامدين إلى أهاليهم وأحبتهم مكلَّلين بالزهور، مزفوفين بالأزاهيج والزغاريد، ليكون النصر عرسًا لهم، يثلج قلوب أُمّهاتهم المحترقة بنيران الصبر والفراق، ويشفي جرح قلب أم الشهيد التي ستتيقن أنَّ دم ولدها قد آتى أُكله ولم يذهب هدرًا.

ليسجل التاريخ تضحيات هؤلاء الشباب بأحرف من ذهب، عندها لن نلفظ الكلمات؛ بل ستخنقنا العبرات، ولن نمشي على الأرض؛ بل سنحلّق في السماء، وسترفعنا الأيدي والأكتاف، ويدوِّي شعار لطالما ردَّدناه منذ بداية الاحتجاجات عند 2011م لإيماننا بالنصر وهو: (منصورين، والناصر الله).

ولكن إلى ذلك الربيع، كم مرة سيمرّ علينا الخريف؟! إلى ذلك اليوم لسنا في أمان، ولن نكون في أمان من رياح بطش وزارة الداخلية ومنتسبيها، وحملاتها القمعية باسم مخالفة القانون، أو مكافحة الشغب، لإنهاء إضراب هنا وهناك، أو القضاء على موجة مطالبة بالحقوق المسلوبة بين الحين والآخر، دون رادع!

فأين الأُمم المتحدة والدول دائمة العضوية في مجلس الأمن؟!

وأين مجلس حقوق الإنسان والمنظمات الدولية من كل هذه الانتهاكات، فخيارات البطش والتنكيل ما زالت مفتوحة على مصراعيها، وما زلنا لا نعلم ما قد تخفيه لنا صفحات المستقبل، إلَّا أنَّنا ورغم موجات التكتم والتضليل الإعلامي لهذا النظام المستبدّ سنظل نصدح ونقول له ولكل العالم: لن تخنقوا الحقيقة.

كتبت أول كلمة في هذه الرواية بتاريخ 10 فبراير/شباط 2016م

وكتبت آخر كلمة في
اليوم العالمي لحرية الصحافة 3 مايو/أيار2016م

جهاد
من سجن جو المركزي
البحرين

الفهارس العامة

أسماء المعتقلين

أبو إبراهيم: 38.
أبو جبرائيل: 40.
أبو جمال: 256، 257.
أبو جميل: 295، 310، 311، 319.
أبو عبد الله: 319، 320.
أبو علاء: 319، 320.
أبو علي: 77، 78، 83، 224.
أبو غايب: 77، 78، 79، 83، 126، 127، 129، 130، 133، 137، 184، 216، 242، 243، 313، 320.
أبو قاسم: 27، 69.
أبو قسام: 40.
أبو محمد: 77، 78، 87، 120، 121، 190، 191، 195، 216، 217، 226، 313، 314، 315، 316، 317، 335، 336، 337، 338، 341، 342.
أبو مريم: 319، 343.
أبو هاجوس: 70، 72، 74، 123، 144، 145، 154، 159، 161، 162، 163، 217، 220، 221، 223.
أبو يقين: 169، 170، 177.
أحمد: 289.
أحمد عباس الدرازي: 37.
أحمد عباس هلال: 109.
أحمد نصيف: 38، 39.
أسامة (الحلاق): 68، 138، 140، 206، 207.
جاسم الدمستاني (الشيخ): 241.
جاسم النعيمي: 40.
جعفر معتوق: 235.
جمال: 97.
جهاد: 38، 39، 51، 57، 73، 81، 111، 125، 127، 134، 147، 190، 191، 215، 216، 224، 226، 254، 257، 313، 317، 319، 337، 341، 343
حسن عبد الغني: 109.
حسين (والد علي أبي هاجوس): 70، 72، 74.
حسين حبيل (مصور): 38، 40، 234.
حسين السهلاوي: 109.
حسين عبد الغني: 39، 344، 345.
حسين الهنان (الشيخ): 40.
حميد (أبو علي): 256، 257، 259، 262، 264، 265، 276.
خالد: 57، 58.
خليل: 235.
رضا عبد علي: 111.
سعيد السماهيجي: 40، 109.

سمسمور= يوسف أحمد الدوسري
سيد أحمد رضا حميدان: 109.
سيد محمد: 77، 78.
سيد هاشم: 130.
شوقي رضي: 39، 40.
صادق عبد الله حسين: 109.
صادق مرهون: 273.
عباس السميع: 109، 110، 164، 286.
عباس العكري: 109.
عبد الرحمن مسعود الباكستاني: 70.
عبد الشهيد: 164، 165.
عبد الوهاب حسين: 41.
عبد علي: 257.
عبد علي السنكيس: 74، 75.
عبد علي خير (أبو رضا): 112.
عزيز العكراوي (الأستاذ): 69، 170.
عقيل سرحان: 152، 165، 166.
علاء: 40.
علي: 257.
علي (أبو حسين): 31، 32، 33، 38، 39.
علي (والد أبي هاجوس): 220، 222.
علي أبو هاجوس= أبو هاجوس
علي الأعرج: 40.
علي جمال: 216، 217، 218، 219، 220، 223، 224، 225، 313، 314، 315، 317.
علي حسن: 40.
علي حسن حاجي: 109.
علي السميع: 40.
علي عبد الإمام: 23، 31.
علي قمبر: 172، 173، 208
علي محمد (الأستاذ): 79، 80، 166، 167، 168
علي المسترشد (الشيخ): 40، 54، 55.
عمر: 57.
عيسى (فتى): 276، 278، 280، 281، 282، 283.
عيسى قمبر: 172.
فاضل العبيدي: 63.
قاسم: 216، 217، 219، 224.
المحرقي: 179، 181.
محمد الجشي: 38، 40.
محمد سهوان: 215.
محمد المحاسنة: 109.
محمد ميرزا: 109.
محمود جعفر: 281.
محمود السبع: 40.
محمود علي المحفوظ (الشيخ): 50.
المعلم: 28، 31، 32، 33، 36، 37، 38،79، 87، 101، 120، 215، 290، 343، 344.
مهدي الموسوي (السيد): 54، 168، 177.
ناجي علي حسن فتيل: 109.
هاني: 163.
هشام الصباغ: 50، 53.
يوسف (من معتقلي المعامير): 141.
يوسف أحمد الدوسري: 334، 335.

قوات الأمن والشرطة في سجن جو

إبراهيم السعيدي: 172.
إبراهيم سيف بخيت النجران: 13، 340.
أبو زيود (وكيل): 253.
أبو عنتر: 90، 91، 92، 93، 94.
أحمد أبو عجرم (وكيل أردني): 280، 284.
أحمد السمين (شرطي): 209، 225، 229، 230، 232، 233، 234، 237، 239.
أحمد المناصرة (ضابط): 268.
أشرف (وكيل): 225، 237، 253، 304.
إيهاب (وكيل أردني): 259.
أيوب (باكستاني): 195، 196.
باسم (رائد أردني): 63.
بسام الحنيطي: 263، 288، 295، 307، 312، 322، 326، 331.
بكر (رئيس عرفاء): 253، 254، 255، 308.
ثامر (وكيل): 303
حسن جاسم (مقدم): 268
حسين (وكيل أردني): 280
حسين العلي: 273
خالد الشحي: 110
خالد عبد الله التميمي (ضابط): 273
خليفة بن أحمد آل خليفة: 106، 107، 108، 125
راشد عبد الرحمن عبد العزيز (مقدم): 10.
رامي (عريف): 202، 240، 242، 243.
ربيع (وكيل): 303.
رداد (رئيس العرفاء): 183، 184، 185، 188، 200، 202، 203، 206، 207، 248، 253، 335.
رضوان (يمني): 273
رعد (وكيل أردني): 280
زياد (وكيل): 259
سعود بو فلاح (نقيب): 323
سليم الصرايمة (وكيل): 284
سند (وكيل أردني): 116
سيف الدين (يمني): 213، 214، 280.
شاكل (رئيس العرفاء): 259
شاهد (ملازم أول): 193، 195، 227، 229، 234
شكيل (شرطي باكستاني): 340
صدام (وكيل أردني): 341
طارق (وكيل يمني): 341
عادل الجودر (ضابط): 273
عبد العزيز (شرطة الاتصالات): 281

عبد العزيز الدوسري: 340
عبد الله (وكيل): 202، 203، 229
عبد الله الدوسري: 295
عبد الله الزايد (قائد قوات الشغب): 268
عبد الله الشامسي (لواء): 86
عبد الله علي راشد المعنطر: 337
عبد الله عيسى (ملازم): 131، 236، 273، 279، 288، 289، 290، 295، 333، 340.
عبد المطلب (رئيس العرفاء): 202، 205، 239، 240.
علاء (وكيل أردني): 272
علوي (وكيل يمني): 176، 177
عمر (وكيل أردني): 150، 160، 162، 163، 188، 189، 190، 206، 209، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 234، 238، 251، 253، 303.
عمران (شرطي بلوشي): 149.
عيسى إلياسي (ضابط): 193، 195، 251، 279، 295، 333، 341، 342.
عيسى الجودر (ملازم): 288، 295.
عيسى المحيمد (عقيد): 13.
غازي صالح آل سنان (عقيد): 13.
غيث (من قوات الدرك): 273
فارس الحفيظي (وكيل أردني): 169، 170، 171، 178، 183، 202، 203، 208، 213، 238، 253 ، 303، 330، 331.
فيروز (من قوات الدرك): 273.
القرشي (يمني): 213، 214.
محجم (وكيل أردني): 138، 141، 155، 182، 200، 201، 239، 240، 241، 244، 245، 289.
محسن (شرطي يمني): 280.
محمد (أخو عمر): 225.
محمد الأنصاري (ضابط): 111.
محمد الزقري (يمني): 168، 192، 193، 237، 238، 239، 240، 251، 253، 264، 265، 331.
محمد المجالي (وكيل): 253، 259، 308.
محمد جمال قصير (ملازم أول): 323.
محمد جمال قمبر (ضابط): 337.
محمد راشد الحسيني (رائد): 13.
محمد عايد: 273.
محمد عبد القوي: 74، 75، 108، 110، 164، 171، 172، 173، 193، 194، 198، 208، 251، 280.
مراد (من قوات الدرك): 273.
مصطفى حيدر غلام: 114، 116، 117، 118.
معاذ (افندي): 183، 184، 185، 202، 203، 206، 251، 253، 303، 326، 330، 331، 333، 336.
معن (شرطي): 212.
ناصر أبو عجرم (وكيل أردني): 206، 207، 259.
ناصر بخيت (مدير السجن): 48، 268، 279.
يوسف (وكيل أردني): 114، 116، 117، 118، 125.

قال لي الضابط الأردني بعد انتهاء محنة ١٠ مارس/آذار، لن نرجع إلى البحرين مرة أخرى، وإن كلف ذلك تجريدنا من الخدمة العسكرية، نشعر بالخجل والألم ممّا اقترفناه بحقكم، اكتشفنا متأخرين طيبتكم وأن فيكم الطبيب والمهندس والصحفي والكاتب والعالم. أتمنى من حكومتي، الحكومة الأردنية عدم رمي أبنائها في هذه الصراعات، كم من مواطنين أردنيين قد لاقوا حتفهم في هذا الصراع، فالمال الذي يلوّح به هذا النظام والأنظمة الدكتاتورية لحماية أنفسهم لن يعيد الشهيد (محمد الكساسبة) الذي أُحرق أمام العالم، ولن يعيد الشهيد علي محمد زريقات الذي لقي حتفه في تفجير قرية دمستان بالبحرين؛ بل سيزيد من الحقد على شعب الأردن.

مرآة البحرين
Bahrain Mirror

ISBN 978-9953-0-3898-8
9 789953 038988